الدكتور محمّد سهيل طقّوش

تاريخ الدولة العباسية

دار النفائس

تاريخ الدولة العباسية

تأليف

الدكتور محمد سهيل طقّوش

أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الإمام الأوزاعي

كلية الدراسات الإسلامية

دار النفائس

تاريخ الدولة العباسية

تاليف: الدكتور محمد سهيل طقوش

الطبعة السابعة: 1430هـ - 2009م

ISBN 978-9953-18-045-8

نشر

Publisher

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية الصباح
وصفي الدين - ص.ب 5152 - 14
الرمز البريدي: 2020 - 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 803152 - 009611810194
بيروت - لبنان



DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon

Email: alnafaes@yahoo.com

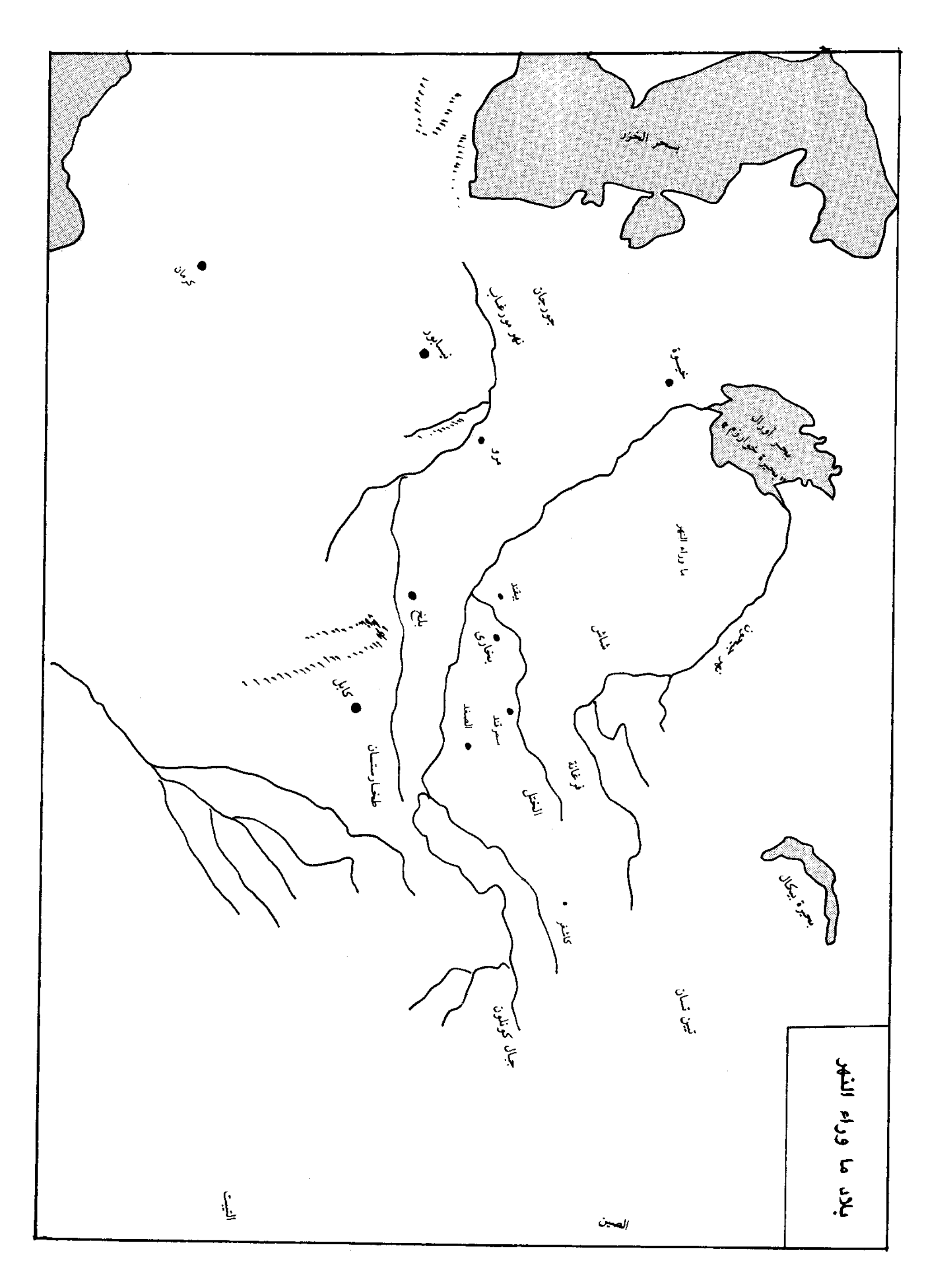
Email: alnafaes@alnafaes.com

Web Site: WWW.alnafaes.com

إهداء

إلى ابنتي رمزية

فلتزدادي قوة يا ابنتي العزيزة، كي تقفي ثابتة القدم، راسخة كالطود العظيم، لترثي هذه الذخائر العلمية التي تركت، وكي أقول لقلبي إنك تبدئين من حيث أنتهي، لتبلغي مقاماً علياً.


بلاد ما وراء النهر
بحر الخزر
نيسابور
مرو
بلخ
كابل
بخارى
سمرقند
ما وراء النهر
فرغانة
كاشغر
بحيرة بيكال
الصين

خريطة رقم (١)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وبعد:

تتناول هذه الدراسة تاريخ دولة الخلافة العباسية من جانبها السياسي بموضوعية. والواقع أن أحداث التاريخ العباسي معقَّدة ومتشعِّبة ومتشابكة، وذات تكوينات سياسية متعددة. وقد شكَّلت دولة إسلامية مترامية الأطراف، تُعد امتداداً لدولة الخلافة الأموية، تفاعلت عليها عناصر متعددة عربية وفارسية وتركية، وشهدت بُنى اجتماعية وعنصرية متباينة، وتطورات سياسية واقتصادية واجتماعية هامة، حدَّدت مسيرتها ونهجها. وظل العامل الأبرز، في صنع هذه الأحداث والتفاعلات، العقيدة الإسلامية بفعل تأثيرها الجذري في المجتمع الإسلامي.

لم يكن قيام دولة الخلافة العباسية مجرد بيعة خليفة دون آخر، أو انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين في حكم الجماعة الإسلامية؛ بل يعد هذا الحدث ثورة شاملة في التاريخ الإسلامي، ومنعطفاً مهماً في مسيرة التطور الإسلامي، غيَّر، بشكل جذري، المجتمع الإسلامي، وترك انطباعاً عميقاً في جميع نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وفتح أمام المسلمين من غير العرب، باب الظهور في تلك النواحي.

وقد حاول المؤرخون كشف مكنونات هذا التحول وتفسيره، منطلقين من مفاهيم مختلفة. فقد رأى فيه بعضهم ثورة الفرس على الحكم العربي، في حين علَّله بعضهم بأنه مجرد ثورة على حكم بني أمية لإزاحتهم عن الحكم، وإحلال العباسيين مكانهم، وقال فريق آخر بحتمية هذا التحول نتيجة التطورات التي شهدها العالم الإسلامي خلال القرن الأول الهجري.

والواقع أنه نتج عن سياسة الأمويين غير المتوازنة تجاه الشعوب غير العربية، وتجاه بعض الفئات العربية، تعثُّر واضح في الحياة السياسية، استغله العباسيون

لصالحهم، وكان هؤلاء قد استغلوا أيضاً الفراغ القيادي الذي أحدثته وفاة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية صاحب الدعوة الكيسانية وإمامها؛ فملأوا هذا الفراغ. وترأس محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الدعوة للرضا من آل محمد، ظاهراً، وأخذ يعمل على تخصيصها لبني العباس، سراً، وقد نجح في ذلك بفضل ذكائه ومقدرته وكفاءته.

وبعد أن وُجد الشخص القيادي، وُجدت أيضاً الأرضية المتوثبة لتقبل الدعوة، وتمثَّلت بخراسان كأرض وبالخراسانيين كشعب متوثب لتقبل هذا التغيير، مدفوعاً بعوامل سياسية واجتماعية وعقدية.

ففي خراسان، تنازع العرب فيما بينهم، ويكاد النزاع القيسي اليمني لا ينقطع. وشهدت هذه البلاد اشتباكات مع الأتراك الوثنيين بحكم موقعها الحدودي من منطقة بلاد ما وراء النهر، كما وُجد فيها عدد كبير من الفرس والموالي الذين استاءوا من الحكم الأموي، خاصة وأن خراسان بعيدة المسافة عن مركز الخلافة الأموية، مما حال دون وصول النجدات إليها في الوقت المناسب، وبالتالي ساعد هذا العامل على خلق بؤر للفوضى، والإشهار بالتمرُّد على مركز الخلافة.

وهكذا تمكَّن أبو مسلم الخراساني الذي وجَّهه إبراهيم بن علي إلى خراسان لإظهار الدعوة العباسية، من دخول مرو، واستولىٰ على فارس، ثم اتجهت جيوشه نحو العراق، وتمكَّنت من هزيمة الجيوش الأموية، ودخلت البصرة والكوفة في عام (١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م).

في هذا الوقت، توجه أبو العباس السفاح، الذي خلف أخاه إبراهيم الإمام في رئاسة الدعوة، إلى الكوفة، وخطب في الناس معلناً قيام دولة الخلافة العباسية، وبذلك يُعدُّ أول خليفة عباسي، وقضى قادته على بقية الأمويين.

خلف أبا العباس بعد وفاته أخوه أبو جعفر المنصور الذي يُعدُّ، بحق، المؤسس لدولة الخلافة العباسية، ثم تتابع الخلفاء من بعده على مدى أربعة عصور تاريخية امتدت حتى عام (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م).

كانت حدود العالم الإسلامي، عندما آلت الخلافة إلى بني العباس، قد شملت إقليمي جرجان وطخارستان، وجاورت حدود بلاد الترك والصين، وبلغت بلاد كشمير في الجنوب الشرقي، وبلاد النوبة في الجنوب المصري، وإلى ما يلي

المغرب جنوباً في الصحراء، وجبال القوقاز وأرمينيا في الشمال، وتاخمت حدود الإمبراطورية البيزنطية، أما في الأندلس فقد جاورت حدودها جنوبي بلاد الفرنجة.

شهدت دولة الخلافة العباسية، في عصرها المبكر، ألواناً عدة من الخلافات الداخلية من أجل الاستحواذ على السلطة، تطوَّرت إلى اشتباكات دامية، مثل خروج عبد الله بن علي على ابن أخيه أبي جعفر المنصور. ولعل أخطر صراع شهده العصر العباسي الأول هو النزاع الذي نشب بين الأمين والمأمون.

وواجه الخلفاء العباسيون خلال العصر العباسي الأول معارضة أولاد عمومتهم الطالبيين، الذين أملوا عندما ساندوا الثورة، أن تؤول الخلافة إليهم. إلا أنهم أصيبوا بخيبة أمل عندما استأثر العباسيون بالحكم، فتصدوا لهم بقوة الحركات المناوئة. وواجه العباسيون أيضاً حركات عنصرية فارسية مناهضة للحكم العربي، خاصة بعد التخلص من أبي مسلم الخراساني مثل البابكية والخرّمية.

وشهدت دولة الخلافة العباسية، في عصرها الأول، اصطدامات على حدودها بينها وبين جيرانها خاصة البيزنطيين. فاستمرت حرب الصوائف والشواتي، التي كان مسرحها الثغور، لكن لم يتجه العباسيون إلى القضاء على الدولة البيزنطية. أما على الجبهة الشرقية فقد ثبَّتَ العباسيون النفوذ الإسلامي في أقاليم بلاد ما وراء النهر وفي إقليم السند.

وعملت دولة الخلافة العباسية، على تثبيت سلطتها في بلاد المغرب، لكن الأندلس ما لبثت أن انفصلت عنها في خطوة ملفتة بقيادة عبد الرحمن الداخل الأموي، واقتدى الأدارسة به، وانفصلوا بالمغرب الأقصى مما دفع العباسيين إلى محاولة ربط الأقاليم الأخرى في دولتهم التي تحاول الانفصال، برباط رسمي. من ذلك تولية الرشيد إبراهيم بن الأغلب على إفريقية.

وقد تأثرت دولة الخلافة العباسية بذلك الصراع على النفوذ بين العرب والفرس والترك. وقوي نفوذ الفرس بفعل عدم قدرة الخلفاء المحافظة طويلاً على التوازن بين هذه الشعوب، فسيطروا على معظم المرافق، فكان منهم الوزراء والقادة المتسلطون بدءاً من عهد المنصور، حتى اضطر هارون الرشيد إلى نكبة وزرائه البرامكة، ثم رجحت كفتهم بعد انتصار المأمون على أخيه الأمين، وبلغ بنو سهل، وهم فرس، منزلة كبيرة في عهده، ورأى المعتصم أن يصطنع لنفسه عنصراً جديداً يعتمد عليه،

فاتخذ من الأتراك بطانة، وأداة، ووزراء، وقادة، فقضى بذلك على النفوذ الفارسي.

وبوفاة الواثق في عام (٢٣٢ هـ/ ٨٤٧ م) ينتهي العصر العباسي الأول.

وما واجهه العباسيون في العصر العباسي الأول من مشكلات داخلية وخارجية لم يمنعهم من الارتقاء بدولتهم إلى مستوى عالٍ من المقدرة السياسية والحضارية، فبنوا مدينة بغداد في عهد المنصور، وقد غدت عاصمة الدولة منذ ذلك الوقت، وإحدى أكبر الحواضر الإسلامية، ومركزاً تجارياً مزدهراً. وبنى المعتصم مدينة سامراء، وسكنها، وجعلها قاعدة للدولة، إلاَّ أن ذلك لم يُفقد بغداد أهميتها.

وشهدت التجارة نشاطاً ملحوظاً، اعتمدت على ما تنتجه أقاليم الدولة، أو ما تستورده من غيرها وتعيد تصديره، كما ازدهرت الحياة الثقافية، ونشط تعريب تراث المعارف الإنسانية.

وفقدت دولة الخلافة العباسية فعاليتها في العصر العباسي الثاني، الذي ابتدأ في عام (٢٣٢ هـ/ ٨٤٧ م)، وذلك نتيجة لضعف الهيئة الحاكمة، مما أدّى إلى إضعاف السلطة المركزية للدولة سياسياً وإدارياً ومالياً، وبالتالي أخذت الولايات بالانفصال عنها. لكن المبادىء التي نادت بها الثورة، ظلت تؤتي ثمارها على الرغم من ضعف الخلافة. وانتقلت الدولة من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم. وقامت في الأطراف دول انفصالية، ودخلت شعوب جديدة في المجتمع الإسلامي تمكَّنت من الوصول إلى الحكم، ووقع الخلفاء تحت نفوذهم، مما أدَّى إلى تحجيم دورهم السياسي الفاعل، فبرز الأتراك على الساحة السياسية وقد حملوا عبء إدارة الدولة وتوارى الخليفة في الظل.

وتحوَّل مسار التاريخ السياسي، الذي لم يعد تأريخاً للخلافة، وإنما أضحت الشعوب الإسلامية هي التي تصنع هذا التاريخ وتوجهه. فقد برزت العنصريات في ظل شعار المساواة بروزاً واضحاً، واستجابت الخلافة للمصالح الإقليمية، الأمر الذي أدَّى إلى بروز اللامركزية. ومن الطبيعي، في هذا الوضع الشاذ، أن تتجه جهود المؤرخين إلى تأريخ سياسات الشعوب الإسلامية كجماعات إقليمية تسعى إلى تنمية شخصيتها ومصالحها وتقوية قبضتها على ما تسيطر عليه، بدلاً من الاتجاه إلى تأريخ أعمال الخلفاء.

وتلاشت، في هذا العصر، فكرة جمع العالم الإسلامي تحت قيادة سياسية واحدة، وتأرجحت علاقات الخلافة مع الدول الإقليمية بين العداء السافر حيناً والتعاون المثمر أحياناً أخرى.

وشكَّل العصر العباسي الثالث، الذي ابتدأ في عام (٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م)، ردَّة فعل مناهضة للنفوذ التركي الذي سيطر على مقدرات الخلافة في العصر العباسي الثاني، ومثَّل حركة فارسية ـ شيعية تزعمها بنو بويه الذين أسسوا دولاً انفصالية في فارس والأهواز وكرمان والري وأصفهان وهمذان، وتمكنوا من فرض هيمنتهم الفعلية وبسط سلطتهم على العراق حتى عظُم نفوذ هذه الأسرة وسمي باسمها العصر العباسي الثالث.

وقد حافظ البويهيون، بعد تردد، على منصب الخلافة، لكنهم سيطروا على مقاليد الأمور، وتصرفوا بشكل مطلق. واستمرت مظاهر ضعف الخلفاء، وفقدان هيبتهم، مسيطرة طيلة هذا العصر.

وشكَّل العصر العباسي الرابع، الذي ابتدأ في عام (٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م)، ردة فعل مناهضة للنفوذ الشيعي. ويتشابه هذا العصر مع العصر السابق من حيث تركيز السلاجقة الذين حلوا محل البويهيين، على المشرق الإسلامي، فبسطوا هيمنة فعلية على مقدرات الخلافة مع احترام شخص الخليفة ومركز الخلافة، ويختلفان من حيث المذهب الديني بفعل اعتناق السلاجقة المذهب السني الذي يعتبر الخليفة العباسي رئيسه الروحي.

وتأرجحت علاقة الخلافة بهؤلاء السلاجقة بين التعاون المثمر، والعداء السافر، خاصة في فترة تفكك وحدة السلاجقة، فمال الخلفاء إلى الانعتاق من الطوق السلجوقي. لكن الخلافة رأت نفسها عاجزة عن وضع حد للاضطرابات الناجمة عن تنازع الأسرة السلجوقية مما دفعها إلى الاستعانة بالخوارزميين للقضاء على السلاجقة، وأوقعها ذلك في نزاع مع القادمين الجدد أيضاً بفعل طمعهم في الهيمنة على اختصاصاتها.

وحتى تتخلص من سيطرة الخوارزميين عمدت، الخلافة، إلى الاستعانة بعنصر جديد هو العنصر المغولي الذي تميز بقسوته ووحشيته، وقد سقطت تحت ضرباته الموجعة في عام (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م).

من الملاحظ أن المكتبة العربية تفتقر إلى دراسة علمية شاملة ومتخصصة تعالج تاريخ دولة الخلافة العباسية منذ قيامها حتى سقوطها. وما عالجته الكتابات العربية حتى الآن، يشكل جزءاً يسيراً من هذا التاريخ، باستثناء العصر العباسي الأول الذي حظي ببعض الاهتمام، وهذا الذي دعانا إلى الكتابة في هذا الموضوع، لنعطي صورة متكاملة وشاملة عن تاريخ دولة الخلافة العباسية منذ قيامها حتى سقوطها، آخذين بعين الاعتبار الظروف التي عاشتها، والتيارات المختلفة التي تحكّمت بها، واضعين أمام القارىء تاريخ مرحلة إسلامية هي دون شك من أهم مراحل التاريخ الإسلامي، نظراً لما تضمنته من تيارات سياسية وأهواء حزبية وطموحات عنصرية لا تزال تؤثر على أوضاع العالم الإسلامي حتى يومنا هذا.

وسأتجنب، خلال البحث، الدخول في التفاصيل، باستثناء ما هو ضروري لجلاء حقيقة أو تقديم شاهد.

إن القدرة على الإحاطة الموضوعية بهذا التاريخ المتشعب، لا تتوافر إلا بالعودة إلى الأصول، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار التنوع الكبير في الأفكار والمعلومات والمواقف والآراء.

ومما لا شك فيه بأن الغاية من دراسة أحداث التاريخ هي العبرة واستخلاص الدروس للإفادة منها، وأن واجب المؤرخ يفرض عليه أن يتجرَّد من كل العوامل التي تصادفه أثناء بحثه والتي تحجب عنه الرؤية الصحيحة وتبعده عن الوصول إلى الحقيقة العلمية.

من أجل ذلك، فقد استندت، في هذا البحث، على مصادر ومراجع مهمة، عديدة ومتنوعة، يراها القارىء في حواشي البحث وفي المكان المخصص لعناوينها.

وآمل بما اعتمدت عليه أن يخدم الحقيقة التاريخية كما آمل بأن تكون هذه الدراسة المتواضعة قد استوفت الحد الأدنى من شروط البحث العلمي، وقدَّمت ما هو حيوي ومفيد لأجيالنا الطالعة.

أما تشكيل الموضوعات التي يراها القارىء بعناوينها الكبيرة فقد قسمتها إلى عشرة فصول موزعة على العصور العباسية الأربعة.

تضمن الفصل الأول قيام دولة الخلافة العباسية، التي انطلقت من خراسان باتجاه العراق، على أنقاض دولة الخلافة الأموية.

وتضمن الفصل الثاني دراسة لشخصيتين عباسيتين هما أبو العباس السفاح ثم أبو جعفر المنصور الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لهذه الدولة. فتطرقتُ إلى جهودهما في تثبيت أقدام العباسيين في الحكم، ومحاربة الفئات التي خرجت على حكمهما، إلى أن استتب لهما الأمر نهائياً.

وتحدثتُ، في الفصل الثالث، عن شخصيتين هما محمد المهدي وموسى الهادي. وتطرقت إلى جهودهما في استكمال سياسة سلفيهما الداخلية والخارجية.

كما أوليتُ، في الفصل الرابع، دراسة شخصية هارون الرشيد اهتماماً حيث بلغت الدولة في عهده ذروة تألقها السياسي والعسكري، وذلك من خلال أعماله في حقل السياسة الداخلية والخارجية.

ودرستُ في الفصل الخامس شخصية كل من الأمين والمأمون من خلال أعمالهما. وقد تبلورت في عهدهما العنصرية الفارسية التي دخلت في صراع سافر مع العرب. وقد مثَّل الأمين الاتجاهات العربية في حين مثَّل المأمون التطلعات الفارسية من خلال أسرة بني سهل الفارسية.

أما في الفصل السادس فألقيت الضوء على شخصيتين هامتين هما المعتصم، الذي أدخل عنصراً جديداً في حلبة الصراع العنصري، بهدف القضاء على النفوذ الفارسي، هو العنصر التركي. وقد هيمن الأتراك على مقدرات الخلافة بعد وفاته، وخلفه الواثق الذي توفي في عام (٢٣٢/ ٨٤٧ م) وانتهى بوفاته العصر العباسي الأول.

وعالجتُ، في الفصلين السابع والثامن، أوضاع دولة الخلافة العباسية الداخلية والخارجية في ظل تسلط العنصر التركي على مقدراتها. وقد أدَّى وضع الخلافة الضعيف والمتدهور إلى بروز حركات انفصالية حقَّقت أمانيها العنصرية في تكوين دول إقليمية. وتراوحت علاقات هذه الدول بالخلافة بين التعاون المثمر والعداء الشديد. وقد شكَّلت أحداث هذين الفصلين العصر العباسي الثاني الذي انتهى في عام (٣٣٤ هـ/ ٩٤٦ م).

وعالجتُ في الفصل التاسع علاقة دولة الخلافة العباسية بالبويهيين فيما سمي بعصر النفوذ الفارسي وهو العصر العباسي الثالث الذي انتهى في عام (٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م).

وخصصتُ الفصل العاشر لتسطير أحداث العصر العباسي الرابع وهو عصر

النفوذ السلجوقي التركي. وبيَّنت العلاقة بين دولة الخلافة العباسية والأتراك السلاجقة التي تراوحت أيضاً بين العداء والتعاون.

وانتهى هذا العصر بسقوط دولة الخلافة العباسية في عام (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م) على أيدي المغول.

وأنا على ثقة بأن القارىء سيجد في هذه الدراسة متعة وفائدة، كما سيلمس فيها حياداً، وتجرداً في معالجة أحداثها.

والله أسأل أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها القارىء العربي والمسلم إنه سميع مجيب.

بيروت في ١/ ٢/ ١٩٩٦

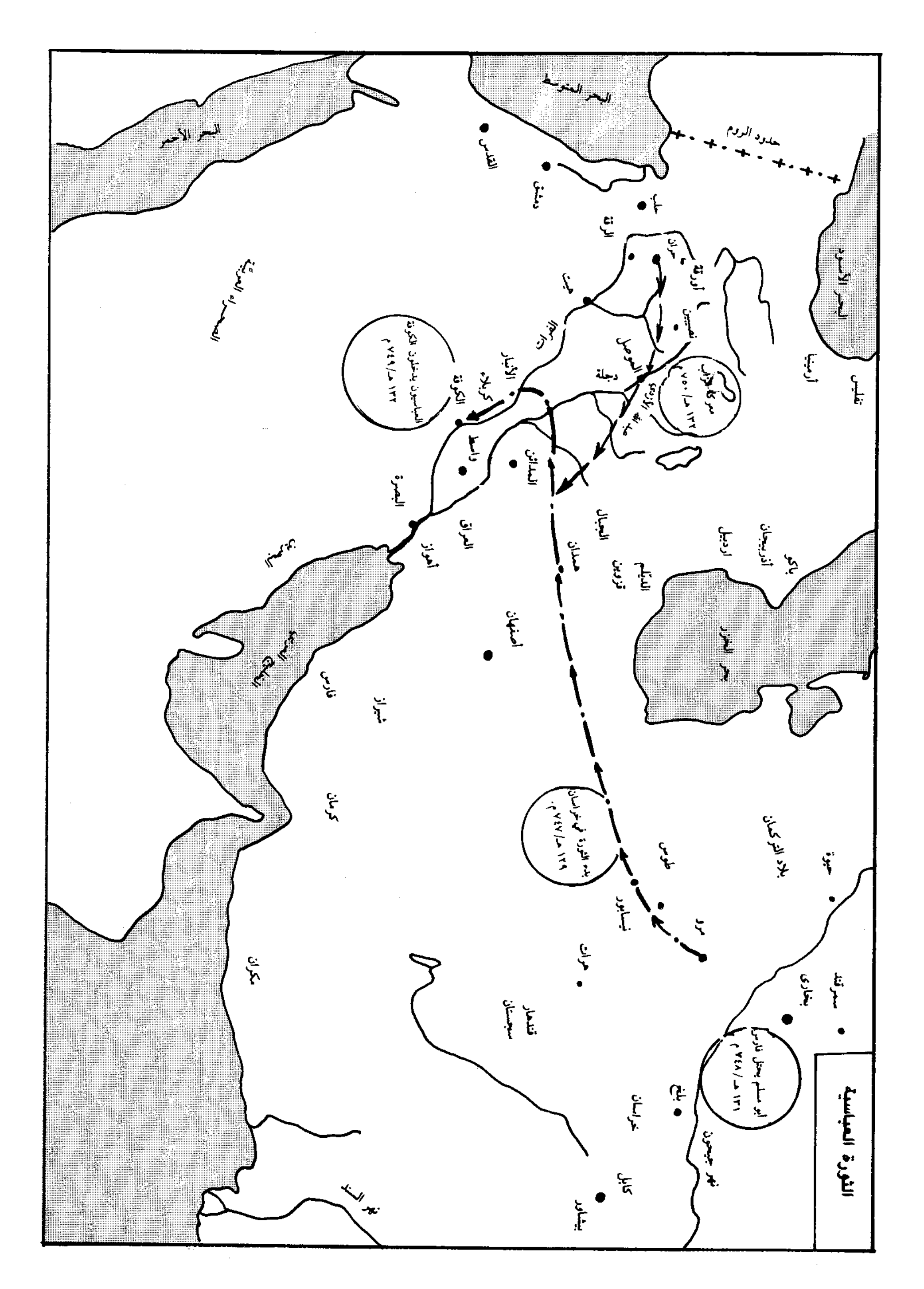
د. محمد سهيل طقوش



العصر العباسي الأول

عصر القوة والتوسع والازدهار

(١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ/ ٧٥٠ ـ ٨٤٧ م)


الثورة العباسية
البحر المتوسط
البحر الأحمر
البحر الأسود
بحر الخزر
الخليج العربي
الصحراء العربية
حدود الروم
القدس
دمشق
حلب
الرقة
حران
نصيبين
الموصل
الفرات
دجلة
الأنبار
كربلاء
الكوفة
واسط
المدائن
البصرة
العراق
أهواز
العباسيون يدخلون الكوفة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م
معركة الزاب ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م
أرمينيا
تفليس
باكو
أذربيجان
أردبيل
الديلم
قزوين
الجبال
همذان
أصفهان
فارس
شيراز
كرمان
مكران
بلاد التركمان
خيوة
مرو
طوس
نيسابور
بدء الثورة في خراسان ١٢٩ هـ / ٧٤٧ م
هراة
قندهار
سجستان
سمرقند
بخارى
بلخ
خراسان
نهر جيحون
كابل
بيشاور
نهر السند

خريطة رقم (٢)

خلفاء العصر العباسي الأول
ومدة خلافة كل منهم

أبو العباس عبد الله السفاح	١٣٢ ـ ١٣٦ هـ/ ٧٥٠ ـ ٧٥٤ م
عبد الله أبو جعفر المنصور	١٣٦ ـ ١٥٨ هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م
أبو عبد الله محمد المهدي	١٥٨ ـ ١٦٩ هـ/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥ م
أبو محمد موسى الهادي	١٦٩ ـ ١٧٠ هـ/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦ م
أبو جعفر هارون الرشيد	١٧٠ ـ ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩ م
أبو موسى محمد الأمين	١٩٣ ـ ١٩٨ هـ/ ٨٠٩ ـ ٨١٣ م
أبو جعفر عبد الله المأمون	١٩٨ ـ ٢١٨ هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م
أبو إسحاق محمد المعتصم	٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤١ م
أبو جعفر هارون الواثق	٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ/ ٨٤١ ـ ٨٤٧ م

قيام دولة الخلافة العباسية

تنظيم الدعوة العباسية

لم يكن قيام دولة الخلافة العباسية مجرد بيعة خليفة دون آخر، أو انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين في حكم المسلمين، ويعتبر هذا الحدث أكثر من مجرد تغيير في الأسرة الحاكمة. لقد كانت الثورة العباسية، وما نتج عنها من تغيير جذري في المجتمع الإسلامي، نقطة تحول هامة وفاصلة في هذا المجتمع، لازمته طوال العصر العباسي الأول.

وقد ثبت أن التنظيم العقدي في فترة التحضير للثورة ينم عن عبقرية فذّة في الإعداد والترتيب. لقد وضع العباسيون الأوائل نهجاً، في التنظيم السري، أضحىٰ مثالاً يُحتذىٰ. طبقته بعض الدول التي قامت في كنف الخلافة العباسية، كالفاطميين، بالإضافة إلى الحركات السرية التي قامت في بلاد المسلمين كالقرامطة. ويقوم هذا التنظيم على السرية المطلقة. وقد انتهج العباسيون الأوائل هذا الأسلوب السري على أثر الكوارث التي حلت بآل البيت طيلة العصر الأموي، وما عمدت إليه الدولة الأموية من القضاء على الحركات العلوية وعلى زعمائها بشكل خاص، بحيث لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة.

وتقوم الدعوة السرية حول إمام من آل البيت يدير دفة هذه الحركات السرية، ويرعى هذه التنظيمات، ويوجه النقباء والدعاة ويقودهم[1]. وقد آلت الإمامة في هذا

---

(١) وضع المشرفون على الدعوة العباسية تنظيماً إدارياً سرياً تضمن سلسلة من المراتب بشكل تسلسلي بهدف تيسير مهمة القائمين بها. تبدأ هذه السلسلة بمرتبة النقباء =

التنظيم السري إلى بني العباس في فترة مرحلية بالغة الأهمية[1].

وأدرك الإمام محمد بن علي العباسي (١١٨ ـ ١٢٥ هـ)، الذي آلت إليه الدعوة العباسية، والذي سعى لنيل الخلافة؛ أن نقل حق الإمامة من بيت إلى بيت آخر لا بد أن

= مساعدي الأئمة، وكان عددهم اثني عشر نقيباً. وهم وحدهم يعرفون سر الإمام ويحتفظون بهذا السر لأنفسهم. وكانوا على طراز واحد من القدرات العسكرية والثقافية والإخلاص للدعوة، وقدرة على استقطاب الأنصار. ويلي مرتبة النقباء مرتبة نظراء النقباء وعددهم يساوي عدد النقباء. والنظير يحل محل النقيب عند وفاته. ويساعد النقباء عدد من الدعاة يبلغ عددهم سبعون داعياً، يأتمرون بأمرهم، ويتمتعون بقدرات دعائية وعسكرية مماثلة. وبرز من بين هؤلاء عدد من الدعاة، أخذوا على عاتقهم إعداد الأنصار نفسياً وثقافياً، وإحداث الثورة، وكانت لهم مواقف مميزة. ويلي مرتبة الدعاة مرتبة دعاة الدعاة. ويتبع الدعاة في سلسلة المراتب طبقة أخرى أدنى مرتبة هي طبقة العمال، حيث كان لكل داعٍ عددٌ من العاملين يديرون الجهاز السري. وينتهي الجهاز بخلايا سرية كانت تتوغل فيّ عمق المجتمع في كافة الأمصار. وقام منطق هذا الجهاز السري على شعارات دعائية هي المساواة والإمامة للرضا من آل محمد، والدعوة إلى الإصلاح. راجع، مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية، ص ٢١٦ ـ ٢٢٢.

(١) يذكر العباسيون قصة يفسرون بها حقهم الشرعي بالخلافة، وهي أن أبا هاشم، زعيم الشيعة الكيسانية، قصد دمشق بناء على دعوة من الخليفة سليمان بن عبد الملك، فبَرَّه ووصله، ثم رأى من فصاحته ورئاسته وعلمه ما حسده عليه، فتخوف منه مدركاً أن الشيعة هم الحزب المنافس لبني أمية، فدس له من سمه. وشعر أبو هاشم بالسم يجري في جسمه، فأدرك أنه ميت، وكان بالقرب من بلدة الحميمة، فعرَّج عليها واجتمع بعلي بن عبد الله العباسي، فأخبره بأنه هالك، وأوصى إليه، وتنازل له عن حقه في الإمامة، وسلَّمه زمام الدعوة الكيسانية، وأمدَّه باسم داعي دعاته في الكوفة ومن يليه من الدعاة، كما سلَّمه رسائل يقدمها إليهم. وعلى أساس هذا التنازل، ورث علي بن عبد الله العباسي، وابنه محمد من بعده، جميع الخطط والدعاية السرية التي كانت للشيعة الكيسانية. هذا وينكر عدد من المؤرخين هذه الرواية ولا يعتقدون بصحتها.

راجع حول هذا الموضوع: ابن الأثير جـ ٤ ص ١٥٩ وقارن بابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص ١٤٣ الذي يذكر أن هشاماً بن عبد الملك هو الذي استدعى أبا هاشم. العبادي، أحمد مختار: في التاريخ العباسي والأندلسي ص ١٩ ـ ٢١. العمرو، علي عبد الرحمن: أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول: ص ٨٢ ـ ٨٣.

يسبقه إعداد الأفكار، وتهيئة النفوس لتقبل الوضع الجديد، لذلك التزم جانب الحيطة والحذر حين طلب من أتباعه دعوة الناس إلى ولاية آل البيت دون تسمية أحد.

ومن مقره في الحميمة، أخذ ينظم الدعوة، ويدير شؤونها ويرسل الدعاة والنقباء إلى الجهات الملائمة وأهمها خراسان، وذلك عن طريق شبكة سرية متعددة الحلقات، حملت اسم «دعوة آل البيت» آخذاً بعين الاعتبار الحرص على إخفاء أطماعه نحو الخلافة. ولا ريب في أن ذلك قد خدع الكثيرين من مؤيدي الدعوة إذ ظنوا أنهم يعملون لذرية علي بن أبي طالب.

وتجلت مقدرته في وضع هيكلية التنظيم السري الذي قام على الشعارات الدعائية من اختيار مركز الدعوة وشعاراتها والأمصار التي تنطلق منها، وتحديد مقر الدعاة، ومهنتهم، وطريقة التعامل مع الناس.

فمن حيث مركز الدعوة، فقد اختار الحميمة، بفعل موقعها الجغرافي على خط القوافل التجارية وطريق الحج من جهة، كما أنها تقع بعيداً عن المسرح السياسي.

ومن حيث الشعار، فإنه نادى بشعار المساواة، والدعوة إلى الرضا من آل محمد، والإصلاح. وقد ساهم هذا الشعار في نجاح الدعوة عن طريق:

- اندماج الشعوب التي أسلمت في الدولة الإسلامية.
- ضمان تكتل الطالبيين وراء الدعوة.

ومن حيث الأمصار التي تنطلق منها الدعوة، فإن محمد بن علي أمر الدعاة بالتركيز على خراسان. وهذا يعني في واقعه التاريخي، العرب من مقاتلة ومستقرين، والموالي[١]. ويبدو أنه شعر بتأزم الوضع في خراسان واقترابه من الانفجار بفعل الصراعات القبلية وتذمر الموالي، فرأى أن مرو، وهي قصبة خراسان، هي المكان الملائم لاستقطاب الأنصار لجيش الثورة فأثبت بذلك أنه كان على تفهم تام للأوضاع السياسية، وتوزيع الولاءات السياسية في الأقاليم الإسلامية[٢].

---

(١) راجع وصية الإمام لدعاته من حيث تحديد خراسان كمركز لنشر الدعوة عند المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٢) الواقع أن الدعوة الشيعية التي قامت باسم آل البيت والتي نادت بأن الطالبيين هم الورثة الطبيعيون لخلافة النبي، وجدت في خراسان أرضاً صالحة لنموها. فمنذ أيام زياد بن =

ومن حيث تحديد مقر الدعاة، فقد اتخذ الإمام العباسي الكوفة، المعروفة بالولاء لآل البيت. وهي تصلح لأن تكون حلقة الوصل بين الهاشمية في الحميمة وميدان الحركة في مرو، بفعل جوها الموالي للثورة، والمناهض للأمويين.

وقد أشار محمد بن علي على دعاته أن يتعاطوا مهنة التجارة لإخفاء هدفهم الدعائي عن السلطة، كما أوصاهم بنشر الدعوة بالحكمة.

وهكذا توفر للدعوة العباسية القيادة الفذّة والدعاة المخلصون والبيئة الصالحة.

أطوار الدعوة العباسية

مرّت الدعوة العباسية بطورين هامين:

الطور الأول

يبدأ هذا الطور في مستهلّ القرن الثاني للهجرة، وينتهي بانضمام أبي مسلم الخراساني إلى الدعوة، ويغطي الفترة الزمنية بين عامي (١٠٠ـ ١٢٨هـ/ ٧١٨ـ ٧٤٦م).

وقد تميزت الدعوة، في هذا الطور، بالسرية التامة، وخلوها من أساليب العنف، في الوقت الذي كانت فيه دولة الخلافة الأموية متماسكة.

= أبيه بدأ تهجير أعداد كبيرة من الشيعة من الكوفة والبصرة إلى منطقة بلخ في خراسان استمرت أيام الحجاج بن يوسف الثقفي. ومما لا شك فيه أن هؤلاء المبعدين وجدوا في الأقاليم الفارسية أرضاً صالحة لنشر أفكارهم عن الإمام المنتظر وهو المهدي، بفعل أن الموالي من الفرس كانوا لا يزالون يشعرون بالحاجة إلى حاكم مطلق يمتلك من الصفات ما هو فوق البشر وفقاً لما تعودوه زمن الأكاسرة، وبفعل ما كان سائداً في المجتمع الساساني من نظرية الحق الإلّهي للملوك، حيث كان يتوارث الملك أهل بيته ولا يجوز نقله إلى غير بيت الملك. وكانت العلاقات الجيدة بين خراسان وكل من الكوفة والبصرة، وهما مركز الاستقطاب الطالبي، سبباً في اعتناق أهل فارس الآراء المعادية للأمويين، لذلك استجابوا للدعوة العباسية رغبة في التخلص من حكم الأمويين وأملاً في استعادة سلطانهم الغابر الذي قوّضه المسلمون، وكان هذا اندفاع غالبيتهم لمناصرة أي ثائر ضد الدولة الأموية.

راجع فيما يتعلق بأسباب استعانة العباسيين بالفرس واستجابة هؤلاء لهم: العمرو: مرجع سابق ص ١١٠ ـ ١١٥.

نظَّم الدعوة في العراق ثلاثة دعاة هم: ميسرة العبدي، وهو مولى لعلي بن عبد الله بن العباس، وبكير بن ماهان، ويُعتبر أهم دعاة العراق، وأبو سلمة الخلاّل الذي قاد الدعوة في الأعوام الخمسة الأخيرة قبل تسلُّم بني العباس السلطة.

أما في خراسان، فقد قامت الدعوة على أكتاف جماعة من الدعاة، أشهرهم أبو عكرمة السراج، مولى ابن عباس، ومحمد بن خنيس، وحيان العطار، وكثير الكوفي، وخداّش البلخي، ونقيب النقباء سليمان بن كثير الخراعي.

ويبدو أن السلطات الحاكمة، علمت بأمر الدعوة، فطاردت الدعاة وقتلت بعضهم، كما أن بعضهم الآخر راح ضحية تطرفه كخداش البلخي.

وأحدث الإمام محمد بن علي العباسي تغييراً استراتيجياً هاماً في فحوى الدعوة حين خصَّصها لنفسه، وكشف ذلك لدعاته، على أن يبقى هذا الأمر وقفاً عليهم فقط دون العامة.

وتوفي الإمام محمد في عام (١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م)، بعد أن قطعت الدعوة شوطاً بعيداً، وقد أوصى بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم[١].

الطور الثاني

يبدأ هذا الطور بانضمام أبي مسلم إلى الدعوة العباسية، واستمر حتى عام (١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م) وهو العام الذي سقطت فيه دولة الخلافة الأموية، وقامت دولة الخلافة العباسية.

تعرضت الدعوة العباسية، بعد وفاة الإمام محمد بن علي، إلى الاهتزاز بفعل قيام حركات شيعية مستقلة عنها، في خراسان، فخشي الإمام إبراهيم أن يفلت زمام الأمور من يده، وتكتسح هذه الحركات دعوته. لذلك قام ليعيد طاعة الخراسانيين العرب بشكل خاص، واستطاع، بنفوذه الشخصي، أن يستميل زعيمهم سليمان بن كثير الخزاعي الذي تمكَّن من إعادة التلاحم بين الجماعة الخراسانية، وبين الرئاسة في الحميمة.

تميزت الدعوة، في هذا الطور، باستعمال القوة لتحقيق هدفها. فبعد اتساع خلاياها، وتعمق جذورها في المجتمع الخراساني، أضحى لا بد لها من رئيس على

(١) ابن كثير: جـ ١٠ ص ٥.

درجة عالية من الكفاءة، والمقدرة، يشرف على شؤونها، ويعد الخطط للتحركات المقبلة.

عرض إبراهيم الإمام، القيادة على نقيب النقباء سليمان بن كثير، وكان شيخاً مسنّاً، فاعتذر عن قبولها[1]، ثم عرضها على إبراهيم بن سلمة فاعتذر أيضاً[2]. عندئذ اتخذ الخطوة الحاسمة، واختار أبا مسلم الخراساني[3]، ممثلاً له في خراسان، فقلّده الأمر وأرسله إلى هناك[4].

كان اختيار أبي مسلم خطوة موفقة وفاتحة مرحلة جديدة في استنهاض حياة الدعوة بفعل أن مولى يدير دفة الأمور في خراسان ذات النفوذ الفارسي الواضح، والمضطربة قبلياً، أجدر بالثقة من عربي حر. وتدل الرسالة، التي بعث بها الإمام إليه عندما ولاّه الشروع للعمل في خراسان، أن استمالة العرب اليمانية هو حجر الأساس ومفتاح النصر[5]، فاستقامت أمور العباسيين في خراسان نتيجة جهوده السياسية والعسكرية، واستطاع هذا الرجل، بما تمتع به من كفاءات، أن يصبح الداعية العباسي

---

(١) قال سليمان بن كثير عندما عُرضت عليه رئاسة الدعوة: «لا آلي على اثنين من الناس» ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٩٥.

(٢) برّر إبراهيم بن سلمة اعتذاره بوجود من هو أكثر جدارة منه. المصدر نفسه.

(٣) ترجّح الروايات التاريخية الأصل الفارسي لأبي مسلم. فهو مولى فارسي واسمه الحقيقي بهزوان. تلقى أصول الدعوة في الكوفة، فاسترعى انتباه الدعاة فيها، فقدموه إلى الإمام إبراهيم الذي لمس فيه ذكاءً خارقاً وإرادة قوية، فأيقن أنه الشخصية التي يمكن الاعتماد عليها. راجع فيما يتعلق بأصل أبي مسلم وحياته الأولى: الطبري: جـ ٧ ص ١٩٨ ـ ١٩٩. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد. جـ ١٠ ص ١٠٧ ـ ١٠٨. ابن خلكان: وفيات الأعيان. جـ ٣ ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٤) ابن خلكان: المصدر نفسه ص ١٤٧.

(٥) راجع نص الرسالة عند الطبري: جـ ٧ ص ٣٤٤. الجدير بالذكر أن بعض المؤرخين ينكرون وجود مثل هذه الوصية، وأنها موضوعة من قبل أعداء الثورة العباسية من أجل تشويه طبيعتها وأهدافها وتأليب العرب ضدها بفعل أنها توصي بالقضاء على العنصر العربي، إلا أن الأحداث تؤكد بعض ما جاء فيها خاصة فيما يتعلق باستمالة اليمانية واستقطابهم للعمل ضد مضر.
راجع حول نقد وجود هذه الوصية: عمر، فاروق: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين ص ٧٨ ـ ٧٩.

المتحكم في الشرق كله بعد أن اكتسب ثقة سليمان بن كثير[١].

هذا، وقد حفلت الأعوام الأربعة الأخيرة من حياة دولة الخلافة الأموية، (١٢٩ ـ ١٣٢ هـ/ ٧٤٦ ـ ٧٥٠ م)، بتطورات سريعة، شكَّلت جذور الحياة العباسية، وتجلَّت فيها مظاهر ضعف العنصر العربي بشكل عام، بفعل ما ساده من نزاعات وانقسامات حادة، وبرز خلالها ضعف الأمويين بشكل خاص، وشهدت عمليات تصفية النظام الأموي وظهرت القوى الجديدة من بين ركام المعارك على مرحلتين: مرحلة أبي مسلم الخراساني، ومرحلة قحطبة بن شبيب، وانتهت بقيام دولة الخلافة العباسية.

مرحلة أبي مسلم الخراساني

نزل أبو مسلم، فور وصوله إلى خراسان، في بلخ، ونال، بعد فترة قصيرة، ثقة سليمان بن كثير، ثم أخذ يدير الأمور بحكمة ودهاء، فراح يتنقّل في قرى الشرق، يحثُّ أهلها على الالتفاف حول الدعوة. وقد أصاب نجاحاً كبيراً في ذلك، فاستقطب الموالي بما صوَّر لهم من فساد الحكم الأموي، وأثارهم بما كانوا يعانونه من ظلم في ظله، ووعدهم بأنه سيجعلهم سادة، وسيملكهم الأرض، كما نجح في استمالة الدهاقنة وأهل الريف بتقريبه بين العقيدة الإسلامية والمعتقدات الشعبية، خاصة فيما يتعلق بمذهب تناسخ الأرواح[٢]، ثم استقطب القبائل العربية اليمنية، وانضم إليه أهل التقادم المعروفين بمعارضتهم للنظام الأموي.

بعد أن اطمأن أبو مسلم إلى ما وصلت إليه الدعوة من القوة والانتشار، رفع تقريراً بذلك إلى القيادة في الحميمة. ومن جهته، أخذ الإمام إبراهيم بن محمد زمام المبادرة، فحدَّد تاريخ بدء التحرك، آخذاً بعين الاعتبار الظروف الداخلية لقوة الدعوة، والظروف الداخلية المتردية لدولة الخلافة الأموية.

وفعلاً، أعلنت الثورة في خراسان يوم الخميس في الخامس والعشرين من (شهر

---

(١) محمود، حسن أحمد والشريف، أحمد إبراهيم: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) ابن أعثم: أبو محمد أحمد: كتاب الفتوح جـ ٤ ص ٣٤٨. بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي: ص ٣١٤.

رمضان عام ١٢٩ هـ/ شهر حزيران عام ٧٤٧ م) على يد سليمان بن كثير. فالتفّت شيعة العباسيين حول أبي مسلم، وقد اتخذوا السواد شعاراً في ملابسهم وألويتهم، ولذا عرفوا بالمسودة[١].

وأقيمت في يوم عيد الفطر، في سفيذنج، أول صلاة لأنصار العباسيين[٢]، فانكشف أمرهم. وكان لا بد من الصدام مع القوات الأموية لتحديد الموقفين، السياسي والعسكري.

وعمد أبو مسلم إلى أسلوب المزج بين السياسة والقوة العسكرية، بهدف التفريق بين القوى الخراسانية[٣] ودفعها إلى الاصطدام حتى لا تتحد كلمتها، ويقوى أمرها، مما يشكل خطراً على الدعوة العباسية. فنجح بدهائه في الإبقاء على العداء بين الوالي الأموي على خراسان، نصر بن سيار، وخصومه، وتعاون مع جديع الكرماني ثم مع ابنه علي بعد ذلك، وشيبان الحروري للإطاحة بالأمويين، ثم زرع بذور الشقاق بين الوالي الأموي وزعماء القبائل. وتخلّص أخيراً من شيبان الحروري وابني الكرماني علي وعثمان.

وهكذا تحرك أبو مسلم على كافة جبهات القوى السياسية[٤]. ونجح في قطف ثمار جهوده بالقضاء على خصومه، والتفرد بحكم خراسان، وفرَّ نصر إلى نيسابور[٥].

وعمد الزعيم الخراساني، بعد أن ثبّت أقدامه في المناطق التي سيطر عليها، إلى التخلص من الزعماء البارزين الذين اعتبرهم منافسين له على الزعامة. فقتل سليمان بن كثير الخزاعي، نقيب النقباء، كما قتل ابنه محمد[٦]، وتخلص من عدد من أنصار

---

(١) ابن أعثم: جـ ٤ ص ٣٤٨.

(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٣٥٧.

(٣) وجدت على الساحة الخراسانية أربع قوى متنافسة هي:
- قوة الدولة الأموية ممثلة بوالي خراسان نصر بن سيار.
- قوة اليمنية وربيعة بزعامة جديع الكرماني.
- قوة الخوارج الحرورية بزعامة شيبان الحروري.
- قوة الثورة العباسية بقيادة أبي مسلم الخراساني.

(٤) راجع فيما يتعلق بالسياسة التي انتهجها أبو مسلم، والتي مكنّته من التفرد بحكم خراسان: ابن أعثم: جـ ٤ ص ٣٣٨ - ٣٤٤، ٣٤٨. الطبري: جـ ٧ ص ٣٥٥، ٣٦٧، ٣٧٧ - ٣٨١.

(٥) الطبري المصدر نفسه: ص ٣٧٧ - ٣٨١.

(٦) الجدير بالذكر أن حادثة قتل سليمان بن كثير تمّت دون العودة إلى الخليفة أو أخذ رأي الأمير=

الثورة الذين شاركوه في العمل السياسي والعسكري.

وخلا بذلك، الجو لأبي مسلم، وأضحى الحاكم الأوحد لبلاد المشرق، واتخذ لنفسه لقب «أمير آل محمد»[1] وهذا يعني أنه اعتبر نفسه أكثر من مجرد والٍ على مقاطعة.

تجلَّت خلال حرب خراسان قدرات أبي مسلم العسكرية والسياسية والإدارية، تلك القدرات الكبيرة التي تجمَّعت لهذا الوالي والتي جعلته من بين أعظم القادة العباسيين.

وأضحى هذا الرجل، بعد أن تقرَّب من سكان البلاد المحليين أمل الموالي الذين تطلعوا إليه، وتوسموا فيه القدرة لرد اعتبارهم، وإحياء الإرث الفارسي القديم ويمكن اعتباره مقدمة لظهور البرامكة والطاهريين والبويهيين، واضعاً بذلك أسس الدولة الخراسانية.

مرحلة قحطبة بن شبيب

ما كادت الثورة العباسية تستقر في خراسان، وتتهيأ القيادة فيها لتسديد الضربة الأخيرة لنصر بن سيار، المتقهقر إلى نيسابور، ومعه أنصاره من العرب من قبائل تميم وبكر وقيس، حتى نُقلت قيادة العمليات العسكرية من أبي مسلم إلى قحطبة بن شبيب الطائي بأمر من الإمام إبراهيم بن محمد[2].

ويبدو أن القيادة العليا في الحميمة تطلعت إلى ما وراء خراسان من أحداث، ورأت ألا يتجاوز أبو مسلم هذه المنطقة، وأن العمليات العسكرية في المناطق العربية لا بد أن تُسند إلى قيادة عربية.

سيطر قحطبة على طوس ونيسابور[3]، وأدرك نصر، من جانبه، استحالة المقاومة واستعادة السلطة، فهرب من نيسابور إلى الري[4].

= أبي جعفر الذي كان موجوداً آنذاك في خراسان. راجع: عمر: مرجع سابق ص ٨١.

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٨٨.

(٣) الطبري: ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٩٠. ابن أعثم: جـ ٤ ص ٣٥٣.

ذعرت الحكومة المركزية في دمشق من هذه التطورات السريعة في خراسان، فأرسلت الجيش تلو الجيش للقضاء على قوة الثورة، إلا أنها فشلت في مهمتها. فاستسلمت المدن مثل أصفهان ونهاوند وغيرهما[1]، وأضحت الطريق، إلى العراق، مفتوحة أمام جيش الثورة. ومات نصر بالري في جو الهزيمة القاتم دون أن يكسب معركة[2]. وفقد الأمويون بموته قائداً كبيراً يقودهم في هذا الصراع الدامي مما أثَّر على قضيتهم تأثيراً سلبياً.

واندفع قحطبة بجيشه نحو الكوفة في جو الانتصارات، في الوقت الذي كان فيه يزيد بن هبيرة، الوالي الأموي على العراق، يتحرك نحوه، فجرت بينهما معركة انتهت بانتصار قحطبة. وتقهقر ابن هبيرة إلى واسط وتحصَّن بها. لكن قحطبة لم يعش ليرى النتيجة النهائية، فقد غرق وهو يعبر النهر[3] وخلفه ابنه الحسن في زحفه الظافر ودخل الكوفة في الرابع عشر من (شهر محرم عام ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م) واعترف بأبي سلمة الخلال رئيس دعاة العراق وزيراً لآل محمد، وقد أضحى صاحب السلطة الفعلية[4].

وبهذا تقرر مصير العراق. وكان استقرار الثورة في هذا البلد، بعد المشرق، كسباً عظيماً بحيث أضحى من الممكن أن تظهر الدعوة، وأن يعرف الخراسانيون إمامهم من آل محمد[5].

اعتلاء بني العباس السلطة

كان أبو مسلم على اطلاع دائم بما كان يجري في العراق، عن طريق مندوبه السياسي أبي الجهم بن عطية، الذي رافق جيش قحطبة، وكانت له هيمنة على القوى المسلحة. وقد اعترف به أبو سلمة الخلّال وأقرَّه في منصبه السياسي هذا.

أما أبو سلمة، فقد كان مسؤولاً عن الكوفة بوصفه «وزير آل محمد»[6]، وهو

---

(١) المصدر السابق: ص ٤٠٥ ـ ٤٠٨. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٧٥.
(٢) ابن أعثم: جـ ٤ ص ٣٥٣.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٥٧. اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٧٧.
(٤) المصدران نفساهما.
(٥) محمود والشريف: مرجع سابق ص ٦٤.
(٦) الطبري: جـ ٧ ص ٤٥٠.

منصب ولقب استحدثا حديثاً[1]. ونستنتج من طبيعة المهام التي كان يمارسها، والمسؤوليات الملقاة على عاتقه، في هذه الفترة، أنه كان صاحب الأمر والنهي. وقد اعترف بسلطته هذه جميع أنصار الثورة، لكن سيطرته على الجيش لم تكن كاملة، وقد بقيت في يد أبي الجهم.

وبعد سيطرة أنصار الثورة على الوضع في العراق، حان الوقت لاختيار الشخص من آل محمد الذي أعلنت الثورة باسمه، وكان اسم إبراهيم الإمام هو الشائع. لكن هذا التداول كشف عنه الغطاء، وسهّل لبني أمية اكتشاف الصلة بينه وبين الثورة. لذلك قبض عليه مروان الثاني، وسجنه في حرّان، ثم قتله في (شهر محرم عام ١٣٢ هـ/ شهر أيلول عام ٧٤٩ م)[2]، وتؤكد الروايات أن الإمام إبراهيم نعى نفسه إلى أهل بيته أثناء القبض عليه، وأوصى إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد، وجعله الخليفة بعده، وأمرهم بالمسير معه إلى الكوفة، وأخبر أصحابه، قبل موته، بهذا الاختيار[3].

وعندما وصل آل العباس إلى الكوفة، بعد دخول جيش الثورة إليها، أنزلهم أبو سلمة في دار الوليد بن سعد، مولى بني هاشم، وأمرهم بالاختفاء. وكتم أمرهم عن جميع القادة والشيعة نحواً من أربعين ليلة، ورفض أن يدفع لهم نفقات الانتقال[4]، وكتب في الوقت نفسه، إلى زعماء آل البيت من بني علي بن أبي طالب يعرض عليهم إمارة المؤمنين بشروط محددة[5]. والراجح أنه عزم على تحويل الأمر إلى آل علي عندما بلغه خبر موت الإمام إبراهيم بن محمد، لكن هؤلاء اعتذروا عن قبول الدعوة[6].

ولنا أن نتساءل: ما هي مبررات أبي سلمة في تحويل الخلافة إلى بيت علي بن

---

(١) شعبان، محمد عبد الحيّ: الثورة العباسية ص ٢٥٧.
(٢) الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣. اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٧٤. أخبار الدولة العباسية: لمؤلف مجهول ص ٣٩٣.
(٣) الطبري: جـ ٧ ص ٤٢٣.
(٤) المصدر نفسه: ص ٤٣٠.
(٥) لقد كتب أبو سلمة إلى جعفر الصادق وعبد الله المحض وعمر الأشرف وكانوا جميعاً في الحجاز.
(٦) راجع فيما يتعلق بإرسال الكتب إلى هؤلاء الزعماء وردود الفعل عليها عند اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣. ابن الطقطقا: ص ١٣٧ ـ ١٣٩.

أبي طالب؟ وما هي الشروط التي وضعها لتسلم هذا المنصب؟

يبدو أن وزير آل محمد لم يأخذ وصية الإمام إبراهيم لأخيه أبي العباس مأخذ الجد، أو على الأقل، فإنه لم ير أن أبا العباس هو أصلح الهاشميين لتولي إمارة المؤمنين.

لكن مما لا شك فيه، أن هذا الرجل كان واقعاً تحت ضغط الأحداث السياسية المتعددة الاتجاهات، كان أشهرها الاتجاه العلوي، والاتجاه الخراساني، والاتجاه القومي الفارسي المقنع، فكان عليه أن يختار شخصاً مقبولاً من كافة الأطراف، خاصة وقد بدا الفرق واضحاً في وجهات النظر بين الاتجاهين الأولين بشأن صلاحياته[1].

ويُفهم من تحوله إلى آل علي، أنه استنتج من خلال الظروف السياسية المحيطة به، ومن توقعاته للمستقبل، أنه قد لا يحقق تطلعاته السياسية في ظل الحكم العباسي. ويبدو أنه كان يمثل بعض الزعماء الخراسانيين الفرس، ذات الاتجاه القومي المقنع، فأراد أن يحوِّل الأمر إلى الطالبيين بحيث يكون له الفضل في نقل السلطة إليهم طمعاً في تحقيق أهدافه المتمثلة في إحياء الأماني القومية للفرس[2].

ونتيجة لهذا الاختلاف في النظرة السياسية والعقدية، ظل أبو سلمة زهاء شهرين منهمكاً في البحث عن الرضا من آل محمد يكون مقبولاً من الجميع من جهة، ويرضى بهذا المنصب على شروط الخراسانية التي جعلت من الصعب، وربما من المستحيل، وجود الشخص الذي يقبل بهذا العرض، من جهة أخرى، لذلك كان رفض زعماء آل البيت يصب في هذا الاتجاه[3].

وأخيراً فرضت الخراسانية مرشحها العباسي، أبا العباس عبد الله بن محمد أميراً للمؤمنين، فبويع له بالخلافة يوم الجمعة (الثاني عشر من شهر ربيع الآخر عام ١٣٢ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٤٩ م)[4] والجدير بالذكر، في هذا المقام، أن

---

(١) طلب الطالبيون أن يكون الإمام نفسه هو أمير المؤمنين، وهذا يعني أن يكون الحاكم ذا سلطات دينية وسياسية في وقت واحد. أما وجهة النظر الخراسانية فتتضمن وجوب التغيير الجذري في هيكلية النظام السياسي السابق بحيث يتمتع أمير المؤمنين بسلطات دينية محدودة فقط دونما سلطات سياسية زمنية.
راجع فيما يتعلق بهذا الموضوع: شعبان، مرجع سابق ص ٢٥٨.

(٢) العمرو: مرجع سابق، ص ١٤١.

(٣) شعبان: ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٤) ابن كثير: جـ ١٠ ص ٥٢.

تاريخ خلافته يبدأ بعد مقتل مروان الثاني، آخر الخلفاء الأمويين، لثلاث بقين من شهر ذي الحجة من العام الهجري المذكور، الموافق لشهر تموز عام ٧٥٠ م، وهو تاريخ قيام دولة الخلافة العباسية.

ولم يكن أمام أبي سلمة، الذي تمَّ الأمر دون علمه، إلا أن يقبل بالأمر الواقع مبرراً موقفه أمامهم: «إني إنما كنت أدبر استقامة الأمر وإلا فلا أعمل فيه شيئاً»[١].

ويبدو أن أبا مسلم قد استُشير في الأمر قبل حدوثه ووافق عليه، بدليل أن مندوبه السياسي أبا الجهم قام بنشاط ملحوظ في اختيار أبي العباس[٢].

الاتجاهات العامة لدولة الخلافة العباسية

انتهجت دولة الخلافة العباسية، منذ قيامها، سياسة مشرقية واضحة، وتطلعت بوجهها إلى خراسان مهد نشأتها. وجاء هذا التحول نتيجة عدة عوامل لعل أهمها:
- مناوأة أهل الشام للعباسيين، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين.
- انتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد.
- التأثير الفارسي على النظم والحياة االعباسية.
- انتعاش التجارة المشرقية.
- ابتعاد الدولة العباسية عن عالم البحر الأبيض المتوسط.
- عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول بحري في المتوسط يضارع الأسطول الأموي.

مما لا شك فيه أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين قد صحبه تغيير جذري، وتطور واسع وعميق في مجمل الحياة الإسلامية، وقد تجلَّى ذلك في الاتجاه العام للخلافة العباسية، وتمثَّل في بادىء الأمر، بنقل العاصمة من دمشق إلى بغداد، مشكِّلاً بذلك خطوة نوعية في الانتقال من العالم البيزنطي إلى العالم الفارسي.

هذا وقد تراجع النشاط الحربي الكبير الذي شهده العصر الأموي على الجبهة الغربية في عالم البحر المتوسط، ونظر العباسيون إلى شواطئه على أنها حدود، ونهايات

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٨٣. الطبري: جـ ٧ ص ٤٢٠.
(٢) الطبري المصدر نفسه: ص ٤٢٩ ـ ٤٣١.

لدولتهم، ينبغي الدفاع عنها لا الهجوم منها. ونتيجة لهذا التراجع تولت الإمارات الإسلامية في المغرب والأندلس مسؤولية الدفاع عن الحوض الغربي لهذا البحر.

وانصرف العباسيون، بشكل عام، نحو الشرق. ففي تركستان، أوقفوا الخطر الصيني الزاحف على ديار المسلمين، ثم سادت علاقات وثيقة بعد ذلك، مع العالم الصيني، خاصة التجارية، وتوسع المسلمون في إقليم السند، ووطدوا النفوذ الإسلامي هناك.

ونمت البحرية الإسلامية في المحيط الهندي، لتؤدي دوراً تجارياً، فأتاح ذلك لتجارة الهند أن تدخل أسواق العراق بطمأنينة، كما أتاح للثقافة الهندية أن تواكب التجارة. وقد أدّى تفاهم العباسيين مع الصين إلى فتح أسواق الشرق الأقصى أمام تجارة متبادلة غنية، كما أدّى تفاهم العباسيين مع ملوك الفرنجة إلى إتاحة الفرصة لتجارتهم أن تمتد إلى غربي أوروبا وشمالها الغربي، إلا أن التركيز اقتصر على الشرق.

نتج عن انتقال العاصمة والابتعاد عن الاهتمام بالشؤون الغربية، أن ضعف النفوذ العباسي في المغرب الإسلامي مما أدى إلى انفصال تلك الأطراف الغربية عن السلطة المركزية، فاستقلت الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل الأموي، وانفصل المغرب الأقصى على يد الأدارسة العلويين، واستقل بنو رستم، الخوارج الأباضية بالمغرب الأوسط، واكتفى العباسيون بإقامة دولة حاجزة موالية لهم في المغرب الأدنى هي دولة الأغالبة.

وحمل العصر العباسي معه تطوراً آخر. فقد جمع العباسيون السياسة مع الدين. وهم في هذه الناحية يختلفون عن الأمويين الذين اتهموا بالاهتمام بالمصالح الدنيوية، فأعلنوا أنهم يريدون إحياء السنة وإقامة العدل. فأحاطوا أنفسهم بالعلماء والفقهاء، وارتدوا بردة الرسول ﷺ كرمز لسلطتهم الدينية، واستغلوا فكرة المهدي حتى أضحت شعارهم الديني والسياسي. واعتمدوا على نظرية الإمامة التي كانت محور عقيدتهم ودعوتهم. وقد أعطت هذه السياسة الدينية، للخلافة العباسية، مسحة من القداسة بحيث أضحى سلطان الخلفاء مستمداً من الله سبحانه وتعالى[1]، وأضحى مفهوم الخلافة شبيهاً بمفهوم الحق الإلٓهي في الحكم، الذي ساد أيام الساسانيين.

---

(١) راجع ذلك في نص خطبة أبي جعفر المنصور، عند ابن كثير: جـ ١٠ ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

واتبع الخلفاء العباسيون بعض العادات الفارسية مثل: الاستئثار بالسلطة، الاحتجاب عن الناس، الظهور وسط حرس وحاشية؛ فنشأت نتيجة ذلك وظيفة الحجابة. كما وُجدت طريقة خاصة للتسليم على الخليفة مثل: الانحناء، تقبيل الأرض أو ذيل الثوب. وقد خالف العباسيون بذلك الروح العربية السمحة التي ظلَّلت حياة الأمويين.

وتأثرت حياة الخلفاء، وأساليبهم في العمل، وطريقتهم في الحكم، بالأساليب الفارسية، وطغت على نظمهم الإدارية تقاليد الديوان الفارسي، كما شهد بلاطهم قيام الخدم والجواري.

ومن التأثيرات الفارسية التي دخلت العصر العباسي، منصب الوزارة. وأضحى للوزير من حيث المظهر والاختصاص والتسمية طابع جديد لم يكن من قبل. ويلاحظ أن معظم الوزراء العباسيين كانوا من أسر فارسية، كالبرامكة، وبني سهل، وبني طاهر، وبني الفرات، وبني خاقان وغيرهم. واتبع الوزراء والكتّاب ورجال الدولة التقاليد الفارسية القديمة في العمل والمراسلات.

تقسيم تاريخ دولة الخلافة العباسية

حكمت دولة الخلافة العباسية قرابة ٥٢٤ عاماً: (١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ/ ٧٥٠ ـ ١٢٥٨ م)، وابتدأت بأبي العباس السفاح وانتهت بوفاة المستعصم، حيث زالت على أيدي المغول. ولم تكن هذه الفترة الزمنية على نمط واحد من حيث قدرات الدولة وقوة الخلافة.

اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ دولة الخلافة العباسية إلى أربعة عصور وفقاً لقدرات الخلافة، وتطور أوضاعها السياسية وازدهار الحياة الثقافية والفكرية، وهي:

العصر الأول:

هو عصر القوة والتوسع والازدهار (١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ/ ٧٥٠ ـ ٨٤٧ م)

العصر الثاني:

هو عصر النفوذ التركي (٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ/ ٨٤٧ ـ ٩٤٦ م)

العصر الثالث:

هو عصر النفوذ البويهي الفارسي (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ/ ٩٤٦ ـ ١٠٥٥ م)

العصر الرابع:
هو عصر النفوذ السلجوقي التركي (٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ/ ١٠٥٥ ـ ١٢٥٨ م)

العصر العباسي الأول: ١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ/ ٧٥٠ ـ ٨٤٧ م

ابتدأ هذا العصر بخلافة أبي العباس السفاح وانتهى بخلافة الواثق، وتميز بقوة الخلافة واستقلالها التام، وتركيز السلطات العليا في الدولة بيد الخلفاء الذين تمتعوا بقدرات شخصية وسياسية وإدارية فذَّة، استطاعوا من خلالها المحافظة على وحدة الدولة، وإخماد الفتن والثورات التي قامت في وجهها.

تمتع الفرس في هذا العصر بمكانة مرموقة في الدولة، وكان لنفوذهم الواسع تأثير كبير في توجيه سياستها، حتى سيطروا أخيراً على الجهازين الإداري والعسكري في بغداد والأقاليم الخاضعة لنفوذها، فأحكموا قبضتهم على قيادة الجيوش والمناصب الإدارية الكبرى كالوزارة والكتابة والولاية على البلدان[1].

وكان أفراد الجيش عوناً للخلافة، وأداة طيعة في يد الخلفاء. وقد ختم هذا الدور بانتهاء عهد الخلفاء الذين كانوا يقودون الجيوش بأنفسهم، ويخوضون غمرات الموت ولا يستسلمون لداعي الترف المضني.

ومثَّل هذا العصر الزاهي كل من الخلفاء: أبو العباس، المنصور، المهدي، الهادي، الرشيد، الأمين، المأمون، المعتصم والواثق.

العصر العباسي الثاني: ٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ/ ٨٤٧ ـ ٩٤٦ م

ابتدأ هذا العصر بخلافة المتوكل، وانتهى خلال عهد المستكفي، وتميز بضعف الخلافة وسقوط هيبتها شيئاً فشيئاً، حتى تجرأ أمراء الأطراف بالتخطيط للانفصال عنها. وأحكم الأتراك، في هذا العصر، قبضتهم على أجهزة الدولة. ومنذ عهد المتوكل، بدأ الانحلال يتسرب إلى جسمها بفعل ازدياد نفوذهم. وكان هذا الانقلاب،

---

(١) الزهراني، محمد بن مسفر: نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية: ص ١٤.

من الحكم العربي إلى الحكم التركي، مظهراً من مظاهر الثورة التي شعر بها معظم أجزاء الخلافة وأدت إلى إضعاف سلطة الخليفة ثم تلاشيها في النهاية[1].

وازداد ضعف الخلفاء في هذا العصر بفعل تفاقم خطر الدول المستقلة التي انفصلت عن جسم الخلافة. فقد قويت شوكة علي بن بويه في فارس. ووقعت الري وأصفهان والجبال في يد أخيه الحسن بن بويه. واستقل الحمدانيون بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر. واستقل محمد بن طغج الأخشيد بمصر والشام، واستحوذ نصر بن أحمد الساماني على خراسان.

تقلصت، نتيجة ذلك، رقعة دولة الخلافة، ولم يبقَ في أيدي الخلفاء إلا العراق وبعض مناطق فارس والأهواز. إلا أن هذه الأقاليم التي ذكرت كانت تسودها الاضطرابات والفتن. وآل الأمر إلى أن يتولى بغداد مملوك تركي أو ديلمي يطلق عليه اسم «أمير الأمراء» له النفوذ التام والسلطان المطلق والولاية العامة وليس للخليفة من الأمر شيء[2].

إلا أن الخلافة استعادت في الفترة بين عامي (٢٥٦ ـ ٢٩٥ هـ) قدراً كبيراً من سلطتها وتشمل عهود الخلفاء، المعتمد والمعتضد والمكتفي. وقد أطلق على هذه الفترة اسم «صحوة الخلافة»[3].

ومثَّل هذا العصر كل من الخلفاء: المتوكل، المنتصر، المستعين، المعتز، المهتدي، المعتمد، المعتضد، المكتفي، المقتدر، القاهر، الراضي، المتقي، والمستكفي الذي ملك بنو بويه في عهده.

العصر العباسي الثالث: ٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ/ ٩٤٦ ـ ١٠٥٥ م

ابتدأ هذا العصر أثناء خلافة المستكفي، وانتهى أثناء خلافة القائم، وتميَّز بارتباطه بتاريخ البويهيين الذين كانوا أصحاب النفوذ الحقيقي والسلطان الفعلي في

---

(١) Lane - poole, S: History of Egypt in the Middle Ages: P 29

(٢) الخضري، الشيخ محمد: الدولة العباسية: ص ٤٨٤.

(٣) الزهراني: ص ١٤.

العراق. ولم يكن للخليفة إلا الاسم، وأضحى وكأنه موظف عندهم، يتناول منهم ما يقيم به أوده وليس له حق التصرف في أي أمر من أمور الخلافة دون الرجوع إليهم وأخذ موافقتهم.

لقد فقد الخليفة نفوذه في هذا العصر يؤمر فيأتمر، ويفعل ما يُطلب منه وليس له عليهم من سلطان ديني لمخالفتهم له في المذهب، فقد كانوا شيعة غلاة، إنما ارتضوا ببقاء منصب الخلافة خدمة لأغراضهم.

وقد وصف البيروني أوضاع العباسيين في أيام بني بويه في هذه العبارة: «وإن الدولة والملك قد انتقل في آخر أيام المتقي وأول أيام المستكفي من آل العباس إلى آل بويه، والذي بقي في أيدي الدولة العباسية إنَّما هو أمر ديني اعتقادي لا ملك دنيوي»[1].

ومثَّل هذا العصر كل من الخلفاء: المستكفي، المطيع، الطائع، القادر والقائم.

العصر العباسي الرابع: ٤٤٧ ـ٦٥٦ هـ/ ١٠٥٥ ـ١٢٥٨ م

ابتدأ هذا العصر أثناء خلافة القائم، وانتهى بوفاة المستعصم، وتميز بانتقال السلطان الفعلي إلى أيدي السلاجقة الأتراك الذين أقاموا في بلاد الجبل. كانت أوضاع الخلافة مع هؤلاء السلاجقة، أفضل منها مع بني بويه، لأنهم احترموا الخلفاء تديناً باعتبارهم على مذهب أهل السنة وأبدوا لهم من مظاهر التعظيم والإجلال ما يقضي به منصبهم الديني.

لم يكن الخلفاء، خلال هذا العصر، على نمط واحد من القدرة والتصرف. فإنهم منذ عهد المسترشد شرعوا يستردون بعض نفوذهم الفعلي. واستقلوا بحكم بغداد والأعمال التابعة لها منذ عهد المقتفي، واستعادوا نفوذهم منذ عهد الناصر، واستقلوا بحكم العراق ومكثوا ستة وستين عاماً لم يخضعوا فيها لأي سلطان إلى أن قام المغول بتحركهم الواسع منطلقين نحو الغرب يحتلون الممالك ويدمرون المدن حتى وصلوا إلى بغداد فاحتلوها وأسقطوا الخلافة العباسية.

---

(١) البيروني، أبو الريحان: الآثار الباقية عن القرون الخالية: ص ١٣٢.

ومثَّل هذا العصر كل من الخلفاء: القائم، المقتدي، المستظهر، المسترشد، الراشد، المقتفي، المستنجد، المستضيء، الناصر، الظاهر، المستنصر والمستعصم.

من أوجه الاختلاف بين العصر الأول والعصور الأخرى من حياة دولة الخلافة العباسية، ظهور عنصر جديد هو العنصر التركي، وانتقال الخلافة من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم، نتيجة قيام دول منفصلة إما انفصالاً تاماً كاملاً، أو ذاتياً مع الاعتراف بسلطة الخليفة.

وكان الفرس قد نقلوا نشاطهم إلى الشرق بعد ما تغلَّب نفوذ الأتراك ونجحوا في إقامة دول انفصالية في بعض أقاليم الدولة العباسية. فقامت الدولة الطاهرية في خراسان (٢٠٥ ـ ٢٥٩ هـ/ ٨٢٠ ـ ٨٧٣ م)، وأسس يعقوب بن الليث الصفّار الدولة الصفّارية على أنقاض الدولة الطاهرية (٢٥٤ ـ ٢٩٨ هـ/ ٨٦٧ ـ ٩١١ م)، وأسس السامانيون دولتهم على أنقاض الدولة الصّفارية (٢٦١ ـ ٣٨٩ هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٩٩ م)، وسقطوا في أواخر القرن الرابع الهجري، أي العاشر الميلادي. وحل محلهم الغزنويون وأقاموا الدولة الغزنوية (٣٥١ ـ ٥٨٢ هـ/ ٩٦٢ ـ ١١٣٦ م)، وسيطر البويهيون على فارس والعراق والأهواز وكرمان وأقاموا الدولة البويهية (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ/ ٩٤٦ ـ ١٠٥٥ م)، وقضى الأتراك السلاجقة على الدولة البويهية في العراق، ودخل طغرلبك السلجوقي مدينة بغداد واستقل بها وأسس سلطانه على أنقاض سلطان البويهيين.

أبو العباس السفاح ـ أبو جعفر المنصور

أبو العباس عبد الله السفاح

١٣٢ ـ ١٣٦ هـ/ ٧٥٠ ـ ٧٥٤ م

التعريف بأبي العباس

هو عبد الله بن محمد بن علي العباسي، وكنيته أبو العباس[١]. ولد في عام (١٠٥ هـ/ ٧٢٣ م) بالحميمة من أرض الشراة من البلقاء بالشام، ونشأ فيها[٢]. بويع له بالخلافة في الكوفة يوم الجمعة الثاني عشر من (شهر ربيع الآخر عام ١٣٢ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٤٩ م)[٣].

ويلاحظ وجود تشابه بين اسمي أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور (عبد الله بن محمد بن علي العباسي) مما دفع المؤرخين إلى تلقيب الخليفة السفاح بعبد الله الأصغر[٤]، نظراً لأنه أصغر سناً من أخيه المنصور.

وألقى أبو العباس، على عادة الخلفاء لدى انتخابهم، خطبة في مسجد الكوفة أوضح فيها الهدف الذي من أجله قامت الثورة العباسية، وندَّد بالأمويين الذين وصفهم بمغتصبي الخلافة، ووعد الكوفيين، الذين ساندوا الثورة، بزيادة أعطياتهم، ولم ينسَ أن يذكرهم بأنه: «السفاح المبيح والثائر المبير»[٥].

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٢٨٢.
(٢) البغدادي، الخطيب: تاريخ بغداد جـ ١٠ ص ٤٦ ـ ٤٧ ابن كثير: جـ ١٠ ص ٥٢.
(٣) راجع صفحة ٢٥.
(٤) العبادي: ص ٤١.
(٥) راجع نص الخطبة عند الطبري: جـ ٧ ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦. والراجح أن المقصود بالسفاح =

كان الخليفة أبو العباس مقيماً بالكوفة، ويبدو أنه أدرك وضعها الشاذ بفعل عدم تأييد غالبية سكانها للثورة العباسية، وكانوا من شيعة علي، فانتقل منها إلى مكان قريب عرف بهاشمية الكوفة، غير أنه لم يمكث فيها طويلاً، وانتقل إلى الأنبار، شمالي الكوفة، على نهر الفرات في عام (١٣٤ هـ/ ٧٥١ م) وبنى بجوارها مدينة لنفسه عرفت بهاشمية الأنبار. أقام بها حتى وفاته في عام (١٣٦ هـ/ ٧٥٤ م)[١].

قضى أبو العباس معظم عهده في تثبيت حكمه، فحارب القادة العرب الذين ناصروا الأمويين، ثم تخلَّص من بعض القادة الذين ساندوه في الوصول إلى الحكم بعدما بدرت منهم بوادر انفصالية مثل أبا سلمة الخلاَّل.

كان أبو العباس كريماً، وقوراً، عاقلاً، كثير الحياء، حسن الأخلاق. وهو أسخى الناس، ما وعد عدة فأخرها عن وقتها، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها. ونقش على خاتمه «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن». ومما يؤثر عنه قوله: «إن من أدنياء الناس ووضعائهم من عدّ البخل حزماً، والحلم ذلاً» وقوله: «إذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة، والصبر حسن إلا على ما أوقع الدين، وأوهن السلطان، والأناة محمودة إلا عند مكان الفرصة».

كان أبو العباس يحب مسامرة الرجال ومجالسة العلماء، شجَّع الأدب والغناء، وأجزل العطاء للشعراء والمغنين. وكان يطرب من وراء الستر[٢].

الأوضاع الداخلية في عهد أبي العباس

كان أبو العباس، حين بويع بالخلافة، لا يملك إلا ما ملكه جنده. فجيوشه تستعد للجولة الأخيرة مع الأمويين والأمور كلها بيد القواد والدعاة، فكانت مهمته

= هنا الكريم بدليل أن الكلمة وردت في سياق مدح أهل الكوفة وزيادة أعطياتهم، أي أنها تتفق مع معنى الكرم. فهو كريم معطاء مع أصدقائه وثائر مبير مع أعدائه، والجدير بالذكر أن المعنى اللغوي لكلمة السفاح تحتمل عدة معانٍ منها: السفاك للدماء، الكريم المعطاء الذي يسفح الدنانير، ومنها الفصيح اللسان. راجع ابن منظور: لسان العرب جـ ٢ ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦. راجع فيما يتعلق بهذا الموضوع: العبادي، عبد الحميد: صور وبحوث من التاريخ الإسلامي: جـ ٢ ص ٧٠.

(١) الطبري المصدر نفسه ص ٤٦٤. الدينوري: ص ٢٦٣.

(٢) ابن الطقطقا: ص ١٣٤. السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص ٢٥٨.

شاقة وعسيرة. كان عليه أن يثبّت أقدام العباسيين في الحكم، ويوطّد أركانهم. فرأى أن يستعين بإخوته وأعمامه وأبناء إخوته، ويشركهم في أمره حتى لا يستأثر القواد والدعاة بالأمر دونهم من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه أراد نقل السلطة تدريجياً إلى أيدي أفراد الأسرة العباسية.

فعيّن عمه سليمان بن علي والياً على البصرة وأعمالها، وعمه إسماعيل بن علي على كور الأهواز، وعمه داوود بن علي على الحجاز واليمن بعد أن عزله عن الكوفة، وعمه عبد الله بن علي والياً على حرب مروان الثاني، وأخاه أبا جعفر المنصور لقتال يزيد بن هبيرة[١].

ويبدو أنه حصل تململ من قبل بعض القواد الذين قامت الثورة على أكتافهم، وخشوا أن يقطف غيرهم ثمار جهودهم، مما دفع الخليفة إلى طمأنتهم وإقناعهم بأن مشاركة أهله ليست إلا مشاركة تشريفية. فقد كتب إلى الحسن بن قحطبة حين جعل معه أخاه أبا جعفر: «أن العسكر عسكرك، والقواد قوادك، ولكن أحببت أن يكون أخي حاضراً والمتولي للأمر»[٢].

التفت أبو العباس بعد ذلك إلى تصفية جيوب الأمويين. فبعد أن هزمت قواته بقيادة عمه عبد الله بن علي قوات مروان الثاني على الزاب وطاردته حتى مصر وقتلته هناك؛ نشبت الفتن والاضطرابات الداخلية ضد حكمه في المناطق العربية مثل فلسطين والشام والجزيرة التي كانت مركزاً للنفوذ الأموي، ثم شعرت بأن هذا النفوذ لم يلبث أن زال منها وتحول إلى خراسان[٣]. ثم إن قواد مروان الثاني خشوا على أنفسهم من بني العباس الذين أظهروا قسوة شديدة في معاملة أعدائهم كما طمع بعضهم في إعادة إحياء دولة الخلافة الأموية[٤].

نذكر من هذه الحركات خروج كلٍ من حبيب بن مرّة المرّي في إقليم البثينة بفلسطين والبلقاء وحوران، وخروج أبو الورد بقنّسرين وحركة أسامة بن مسلم

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٤٣٢، ٤٥٠، ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

(٢) الدينوري: ص ٢٦٠.

(٣) العبادي: ص ٤٤.

(٤) الطبري: جـ ٧ ص ٤٤٦.

في الجزيرة[1]. ويلاحظ أن قادة هذه الحركات كانوا يرفعون الأعلام البيضاء، ويسمون أنفسهم بالمبيضة، كدليل على تمردهم على الحكم العباسي الذي اتخذ السواد شعاراً له وسُمّي أتباعه بالمسوِّدة.

هذا وقضى عبد الله بن علي عدة أشهر في عمليات عسكرية مستمرة، قبل أن يتم القضاء على هذه الحركات، وإخضاع مدن الرقة وحران والرها وماردين ودمشق وبيت المقدس.

والتفت أبو العباس إلى معالجة قضية تمرد يزيد بن هبيرة وكان متحصناً في واسط، فأرسل أبو سلمة جيشاً بقيادة الحسن بن قحطبة، حاصره فيها. وجرت مناوشات بين الطرفين لم تسفر عن نتيجة، ممَّا دفع أبا العباس أن يرسل أخاه أبا جعفر ليقود حصار واسط بنفسه. ولما أتى ابنَ هبيرة خبرُ قتل مروان الثاني طلب الصلح، وجرت مفاوضات بين الطرفين أسفرت عن منح ابن هبيرة وأنصاره الأمان. وبعث أبو جعفر بكتاب الأمان إلى الخليفة الذي استشار أبا مسلم في ذلك. وبناء على نصيحة هذا الأخير، أمر أبو العباس أخاه أبا جعفر بقتل ابن هبيرة وعددٍ من أصحابه[2]. وبقتل ابن هبيرة تمت تصفية الجيوب الأموية.

وقام أبو العباس بتصفية المنافس السياسي الذي أراده أن يملك ولا يحكم، وهو أبو سلمة الخلال وزير آل محمد، فاتَّهمه بأنه كان يريد تحويل الخلافة من بني العباس إلى آل علي بن أبي طالب، وقد همَّ أن يفتك به حين بويع بالخلافة لكن ظروف الدولة الناشئة كانت لا تسمح له بذلك، فأقرَّه على منصبه هذا وتسميته تلك.

وحانت الفرصة للسفاح بأن يتخلص من وزيره بعد أن قضى على الحركات المناهضة لحكمه، وثبت أقدامه في الحكم. لكن داوود بن علي نصحه أن يكتب إلى أبي مسلم يشرح له ما كان من أمر أبي سلمة حتى لا يستوحش. فوجَّه أبو مسلم المرّار بن أنس الضبّي ليقتله، وقد كمن له مع أسيد بن عبد الله وقتلاه في (شهر رجب عام ١٣٢ هـ/ شهر شباط عام ٧٥٠ م)[3].

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٤٤٣ ـ ٤٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٥٠ ـ ٤٥٧.

(٣) الجهشياري، محمد بن عبدوس: الوزراء والكتّاب: ص ٩٠.

الأوضاع الخارجية في عهد أبي العباس

جبهة الشرق

في الوقت الذي كانت هذه الأحداث تقع في العراق والشام والجزيرة، كان أبو مسلم الخراساني؛ القائد الأول للثورة العباسية، قد تسلم الحكم عاملاً للخليفة في خراسان والجبال، فقام يُثبِّت أقدام العباسيين في هذه المناطق، وقضى على الثورات المناهضة للحكومة المركزية[١].

وتعرضت بلاد ما وراء النهر، في الوقت نفسه، لخطر كبير من جانب الصينيين. فقد استغل هؤلاء تضعضع أوضاع المسلمين، والفراغ الذي أحدثه سقوط دولة الترك الغربية لبسط سلطانهم على بلاد ما وراء النهر التي اعتاد حكامها السابقون أن يرسلوا بسفارات إلى الصين منذ عهود بعيدة، ليقدموا الولاء للأمبراطور الصيني، فأخذوا يمدون يد العون إلى الحكام المحليين المناوئين للحكم الإسلامي.

والواقع أن الصراع بين الطرفين الإسلامي والصيني، كانت تُحركه دوافع حضارية وتجارية، وكان السؤال المطروح آنذاك: أيهما كانت ستكتب لها الغلبة على تلك البقاع، الحضارة الإسلامية؟ أم الحضارة الصينية؟[٢]

فمن ناحية الدوافع التجارية كان المسلمون يتطلعون إلى بسط سيطرتهم على طرق التجارة العالمية مع الشرق، الهند والصين، وتحجيم الدور الصيني في التجارة العالمية.

ففي عام (١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م) استولى جيش صيني على مدينة سوياب وخرّبها. وفي العام التالي استغل الصينيون وقوع نزاع بين أخشيد فرغانة وملك الشاش، واستنجاد الأول بهم، فهرعوا يبسطون سيطرتهم على المنطقة، وظهروا أمام فرغانة، وهاجموا مدينة الشاش وحاصروا ملكها الذي نزل على حكمهم[٣].

واستطاع القائد المسلم زياد بن صالح، الذي كان قد فرغ لتوه من إخماد ثورة شريك بن شيخ المهري في بخارىٰ، أن يلحق الهزيمة بالجيش الصيني على نهر طراز

---

(١) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٤١. بارتولد: مرجع سابق ص ٣١٤ ـ ٣١٥.
(٢) بارتولد: ص ٣١٦.
(٣) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٤٢.

في (شهر ذي الحجة عام ١٣٣ هـ/ شهر آب عام ٧٥١ م)[١].

هذا وقد حالف التوفيق أبا داوود خالد بن إبراهيم، الذي عينه أبو مسلم حاكماً على بلخ، وذلك في عملياته العسكرية التي نفّذها في نواحي الختل وكش، فهرب حاكم الختل إلى الصين، وقُتل دهقان كش، فخلفه أخوه على العرش[٢].

ثم حدث أن تعرضت الصين إلى مشكلات داخلية، ونشبت فيها حرب أهلية بفعل الصراع على العرش، ممَّا صرف الصينيين عن التدخل في شؤون بلاد ما وراء النهر. وتعد معركة طراز نهاية التدخل الصيني في هذه المنطقة التي نعمت في ظل الحكم العباسي بعهد طويل من الرخاء.

الجبهة البيزنطية

استفادت الدولة البيزنطية من الاضطرابات التي سادت الدولة الإسلامية، نتيجة انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين، ونقل العاصمة من دمشق؛ فهاجمت المناطق الشمالية للدولة الإسلامية، ونجح الأمبراطور قسطنطين الخامس في توسعة حدود بلاده، بعيداً نحو الشرق، عندما أغار على مناطق الثغور الشامية والجزرية واستولى على مدنها وقلاعها[٣].

وقاد الأمبراطور في عام (١٣٣ هـ/ ٧٥١ م) حملة إلى منطقة الحدود مع أرمينيا، واستولى على حصن ثيودو سيبوليس (أرضروم)، ولم يتمكن الجيش العباسي الذي كان يقوده مخلد بن مقاتل بن حكيم من الصمود[٤].

وتابع الأمبراطور اجتياحه للمنطقة، وسيطر على حصن كماخ على نهر الفرات بعد مقاومة، وهاجم الثغور الجزرية ودمَّر تحصينات الفرات واستولى على الحدث وملطية وقلوذية وخرَّب حصن سميساط[٥].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٤٢.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٤٣.
(٣) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ٢ ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦. البلاذري فتوح البلدان: ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.
(٤) تاريخ خليفة بن خياط: المصدر نفسه ص ٤٢٦.
(٥) البلاذري: ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٤١.

ويبدو أن قسطنطين الخامس، هذا، قد هدف من اجتياحه للمنطقة تدمير مراكز الإمدادات وقواعد الانطلاق الإسلامية للحد من اندفاع المسلمين إلى داخل الحدود البيزنطية بفعل أنه أدرك استحالة الدفاع عن هذه المناطق في حال استقر البيزنطيون فيها نظراً لبعدها عن العاصمة. لذلك أمر بهدمها وتخريبها، فهدَّد بذلك نظام الثغور الإسلامي.

والواقع أن بيزنطية قد اطمأنت إلى أن النشاط الإسلامي، رغم كثافته، لن يؤثر على أمنها مثلما كان الحال في عهد دولة الخلافة الأموية. وبالرغم من ذلك فقد أقامت نظاماً دفاعياً ثابتاً بأن جعلت مناطق الحدود المواجهة للمسلمين مناطق عسكرية دائمة تمركزت فيها قوات عسكرية[1].

كان رد الفعل الإسلامي محدوداً في بادىء الأمر، ثم أخذ يقوى تدريجياً، وظهرت حركة الاستجابة بالرد على الهجمات البيزنطية مع اقتراب استقرار أوضاع الخلافة، فاستؤنفت حركة الصوائف والشواتي[2].

ففي عام (١٣٤ هـ/ ٧٥٢ م) أرسل أبو العباس صائفتين إلى ملطية، الأولى بقيادة عمّيه صالح وعيسى ابني علي فخربا سورها، والثانية بقيادة محمد بن النصر بن بريم الحميري الذي دخل حصن طوانة[3]، كما وجَّه، في نهاية هذا العام، غارة بحرية إلى صقلية وسردينيا بقيادة عبد الله بن حبيب الفهري[4].

ويبدو أن أبا العباس هدف إلى بعثرة قوة بيزنطية وتشتيتها لتخفيف الضغط العسكري عن الجبهات العسكرية.

وحرص الخليفة على استعادة ما استولى عليه البيزنطيون مثل أرضروم وترميم ما خرَّبوه مثل ملطية، كما برهن وصول البحرية الإسلامية إلى الجزر، على استمرار النشاط البحري، فكلَّف واليه على الشام، وهو عمه عبد الله بن علي في عام (١٣٦ هـ/ ٧٥٣ م)، بتجهيز حملة إلى آسيا الصغرى. تجمعت الحملة في دابق شمالي

---

(١) عبد الله، وديع فتحي: العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي ص ١٤٥.
(٢) علي، محمد كرد: خطط الشام. جـ ٥ ص ١٦.
(٣) تاريخ خليفة بن خياط: ص ٤٢٦.
(٤) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٤٥.

حلب استعداداً للانطلاق إلا أن وفاة الخليفة، في تلك السنة، جعلت عبد الله بن علي يحجم عن قيادتها، وأظهر عن مطامعه في السيطرة على الخلافة.

وبشكل عام، يمكن وصف المناوشات العسكرية بين الطرفين في ذلك الوقت بحرب الحدود[١].

الوزارة في عهد أبي العباس

استحدث منصب الوزير مباشرة بعد انتصار الجيوش العباسية على الجيوش الأموية وقبل مبايعة أبي العباس السفاح بالخلافة، وهذا المنصب هو نظام فارسي قديم[٢]. ويبدو أن أبا العباس حين أقرَّ نظام الوزارة، راعى تطور الدولة واتجاهها نحو المركزية، وتوزيع السلطات. وقد تم ذلك بتحريض الفرس، وتأثير الخراسانيين. إذ إنهم دعوا أبا سلمة الخلال «وزير آل محمد» وأقره أبو العباس.

لكن سلطات الوزير لم تتحدد بصورة واضحة في عهد أبي سلمة، ومع أنه سُمِّي وزيراً إلا أنه لم يكن يتمتع بصلاحيات أو سلطات كاملة في جميع الدواوين، فلم يكن ديوان الخراج وديوان الجند داخلين في سلطته. وكثيراً ما وقع التصادم بين سلطة الخليفة وسلطة الوزير، بفعل عدم تحديد صلاحيات الثاني، في حين كانت صلاحيات الأول محددة بشكل واضح. وكان الوزير يرغب في السيطرة على الجهاز الإداري كله، وينفذ جميع الصلاحيات. وكانت سلطة الخليفة هي التي تثبت أمام محاولات الوزير[٣].

ثم أخذ هذا النظام يتطور حتى استقر وتوضَّحت معالمه في العصر العباسي الأول، فجعلت للوزارة، اختصاصات معينة وقواعد ثابتة لعل أهمها الإشراف على الشؤون المالية. فالوزير هو المختص بأمور الدخل والخرج، يتولى ديوان الخراج وديوان النفقات، ويشرف على الضرائب، ويجمع في شخصه السلطتين المدنية والعسكرية، بالإضافة إلى الواجبات العامة من نصح الخليفة ومساعدته، وينوب عنه في حكم البلاد، أي أنه كان بمثابة الساعد الأيمن للخليفة[٤].

---

(١) Ostrogorsky: op - cit P 167

(٢) أمين، أحمد: ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٦٥. الصالح، صبحي: النظم الإسلامية ص ٢٩٦.

(٣) الصالح: المرجع نفسه ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٤) راجع فيما يتعلق باختصاصات الوزير العباسي: ابن خلدون، المقدمة جـ ٢ ص ٧٧٦ ـ ٧٧٨.

والوزارة في عهد العباسيين على نوعين:

- وزارة تنفيذ.

- وزارة تفويض.

فوزارة التنفيذ تنحصر في تنفيذ أوامر الخليفة، ولا يتصرف فيها الوزير تصرفاً شخصياً مستقلاً وإنما الوزير في هذه الحال همزة الوصل الوحيدة بين الإمام والشعب[1].

أما وزارة التفويض فتقوم على تصرف الوزير المطلق في شؤون الدولة، بعد أن يكون الخليفة قد فوَّض إليه ذلك، ويبقى للخليفة حق التصرف في ولاية العهد، وعزل من لا يرضى عنهم ممن يوليهم الوزير بعض الأعمال[2].

وعندما ضعفت سلطة الخلفاء العباسيين، تحول النفوذ من الخلافة إلى الوزارة، فارتفع شأن الوزراء، وأضحت وزارة تفويض، بعد أن كانت وزارة تنفيذ. لكن حدث في فترة قوة الدولة أن فوَّض الخلفاء أمور الدولة لوزرائهم، ومن أشهر وزراء التفويض في العصر العباسي الأول آل برمك.

ويُعدُّ منصب الوزارة، كما تبلور في العصر العباسي الأول، ذا أهمية كبيرة وخطيرة في الوقت نفسه. فمن حيث أهميته، فهو أهم منصب في الدولة العباسية بعد منصب الخلافة، ومن حيث خطره فقد ترك الوزراء بصمات واضحة في كل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والإدارية والفكرية، واستغل بعضهم هذا المنصب لخدمة أغراض سياسية إقليمية معارضة لسياسة الدولة العباسية، خاصة إذا علمنا أن غالبية الوزراء، الذين تولوا منصب الوزارة في العصر العباسي الأول، كانوا من الفرس.

استوزر أبو العباس، بعد أبي سلمة، خالد بن برمك وقد رفض أن يُسمى وزيراً خشية أن يصيبه ما أصاب سلفه، مع أنه خلفه في مهام منصبه بالإضافة إلى جميع المهمات الأخرى التي كان يقوم بها وأهمها الإشراف على ديوان الخراج وديوان الجند بالإضافة إلى الغنائم[3].

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ص١٥ـ١٦. يحدد الماوردي شروط وأوصاف كل من وزير التنفيذ ووزير التفويض.

(٣) ابن الطقطقا: ص ١٥٦.

ولاية العهد ـ وفاة السفاح

عهد السفاح في عام (١٣٦ هـ/ ٧٥٤ م) لأخيه أبي جعفر بالخلافة من بعده ثم عيسى بن موسى بن محمد وكتب العهد بذلك وأعطاه إلى عيسى بن موسى.

أصيب السفاح بالجدري وهو بالأنبار، وتوفي في الثالث عشر من (شهر ذي الحجة عام ١٣٦ هـ/ شهر حزيران عام ٧٥٤ م) ودفن في قصره بالأنبار[١].

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٤٧٠ ـ ٤٧١.

عبد الله أبو جعفر المنصور

١٣٦ ـ ١٥٨ هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م

التعريف بأبي جعفر

هو عبد الله بن محمد بن علي العباسي، أبو جعفر المنصور. ولد في الحميمة في عام ٩٥ هـ وأمه أم ولد تدعى سلامة. ترعرع في وسط المجتمع الهاشمي. وطلب العلم، وهو شاب، من مظانّه وتفقه في الدين، ونال قسطاً من علم الحديث، فنشأ أديباً، فصيحاً، ملمّاً بسير الملوك[١].

انتقل أبو جعفر مع أخيه وأهله من الحميمة إلى الكوفة. ولما أفضت الخلافة إلى أخيه أبي العباس، كان ساعده الأشد في تدبير أمور الخلافة. فوَلّاه الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان، ووجهه إلى خراسان لأخذ البيعة له، كما عهد إليه من بعده.

توفي السفاح، وأبو جعفر في الحجاز أميراً على الحج، فأخذ له البيعة ابن أخيه عيسى بن موسى، في الأنبار، وكتب إليه بذلك.

اتصف المنصور بالشدة والبأس واليقظة والحزم والصلاح والاهتمام بمصالح الرعية. كره سفك الدماء إلاّ بالحق، وعرف بالثبات عند الشدائد، ولا شك بأن هذه الصفة كانت من بين أبرز الصفات التي كفلت له النجاح.

الأوضاع الداخلية في عهد المنصور

عصيان عبد الله بن علي

تولى أبو جعفر المنصور الخلافة، ولم تكن قد توطدت دعائمها بعد. وقد خشي

---

(١) ابن كثير: جـ ١٠ ص ١٢١ ـ ١٢٢.

من منافسة عمه عبد الله بن علي الذي كان يطلب الخلافة، كما انتابه الخوف من تعاظم نفوذ أبي مسلم الخراساني، ومن خروج بني عمه آل علي بن أبي طالب على حكمه.

فكيف واجه المنصُور هذه المشاكل الثلاث؟

الواضح أن الخليفة كان يجمع الجرأة وبُعد الهمة والمكر والدهاء. فعزم على ضرب أعدائه بعضهم ببعض، حتى تخلو له الساحة السياسية.

كان لعبد الله بن علي رؤية خاصة من مشكلة الحكم، فهو بالإضافة إلى طمعه بالخلافة، فإنه انزعج من ابني أخيه أبي العباس وأبي جعفر بفعل ميلهم الشديد للفرس.

وكان أبو جعفر على حق حين خشي من طموحات عمه الذي خرج غازياً البيزنطيين في عهد أبي العباس على رأس جيش ضم عدداً كبيراً من العرب. ولما وصل إلى دلوك، بنواحي حلب، علم بوفاة السفاح وبيعة المنصور، فتوقف عن الزحف، ورحل إلى حران حيث اجتمع بأركان حربه، وتقرر بالنتيجة ترشيح نفسه للخلافة. فبايعه الجند، ومن ثم راح يزحف متجهاً نحو الجزيرة[١].

وهكذا استخدم عبد الله هذا الجيش الذي أُعِدَّ أساساً لغزو البيزنطيين، لتحقيق أطماعه في الخلافة، مدّعياً أن أبا العباس أقامه ولياً لعهده حينما أرسله لقتال مروان الثاني[٢].

تصرف المنصور تجاه هذا الخطر تصرفاً حكيماً، دلَّ على أنه لا يحكِّم العواطف في القضايا الأساسية، فندب أبا مسلم لقتاله رغم حقده عليه، مظهراً بذلك براعة سياسية، لضرب أعدائه بعضهم ببعض، بالإضافة إلى أنه كان يأمل باستقطاب الخراسانيين في جيش عمه عن طريق حاكم خراسان الذي أبدى استعداداً للتصدي لحركة التمرد[٣].

وتمكّن أبو مسلم، بدهائه السياسي والعسكري، من التغلب على عبد الله في معركة جرت بينهما قرب نصيبين في منطقة الجزيرة[٤]. وفرَّ عبد الله بعد هزيمته إلى البصرة ملتجئاً إلى أخيه سليمان بن علي، وظل متوارياً عنده، إلى أن علم المنصور

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٤٧٤.
(٢) المسعودي: جـ ٣ ص ٢٨٩.
(٣) الطبري: جـ ٧ ص ٤٧٥.
(٤) المصدر نفسه: ص ٤٧٥ ـ ٤٧٨.

بذلك، فأرسل يطلبه، وأعطاه من الأمان ما وثق به، ولما جاءه قبض عليه وسجنه، وذلك في عام (١٣٩ هـ/ ٧٥٧ م) وظل مسجوناً حتى عام (١٤٧ هـ/ ٧٦١ م) حين قتله المنصور[١].

نهاية أبي مسلم الخراساني

ساهم الفرس الخراسانيون بدور بارز في قيام دولة الخلافة العباسية، وعلى رأسهم أبي مسلم الخراساني، آملين تحقيق تطلعاتهم التي يمكن تلخيصها بما يلي:

أ ـ إيلاء السلطة الجديدة نظرة عطف لقضاياهم بعد الظلم الذي تعرضوا له إبان الحكم الأموي.

ب ـ الرغبة في التخلص من الحكم الآنف الذكر الذي أعطى العنصر العربي ميِّزة على ما عداه، تجلّت في ميادين الحياة كافة.

ج ـ إعادة مجدهم الغابر، وإحياء سلطانهم الفارسي المندثر (كسرى انوشروان)[٢].

وحدَّد العباسيون سياستهم تجاه هذه العناصر الإيرانية المتقدمة، في المجالين السياسي والعسكري، من منطلقين:

الأول: المشاركة والموازنة في إطار الطاعة لبني العباس.

الثاني: القمع إذا حصل خروج على هذا الولاء[٣].

وتعطينا هذه السياسة دوافع لأحداث كبيرة حفل بها العصر العباسي الأول.

وحينما اشتد ساعد دولة الخلافة العباسية، وتوضحت سياستها، لاحظ هؤلاء أن الدولة الجديدة لم تحقق تطلعاتهم بالشكل الذي يريدونه، ورأوا في إحجام العباسيين عن تنفيذ الوعود التي بذلوها، خلال فترة التحضير للثورة، تراجعاً لا يمكن الاطمئنان إليه، يضاف إلى ذلك، عدم اقتناعهم بالنهج الذي اختطه العباسيون والذي ارتكز على الإسلام والعروبة، نظراً لوجود أهداف أبعد وأعمق ومصالح أوسع ترتكز

---

(١) المصدر السابق: جـ٨ ص ٧ ـ ٩. اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٠٢.
(٢) العمرو: ص ٣٠٧.
(٣) محمود والشريف: ص ١٠١.

على إحياء الإرث الفارسي القديم، وفتح المجال لانطلاق الآراء المجوسية[1].

لذلك تغير موقفهم من النظام الجديد، وقاموا بحركات تمردية بهدف الإطاحة بالدولة. وكانت حركة أبي مسلم الخراساني فاتحة هذه الحركات المعادية؛ فهي صورة صادقة من المواجهة بين القوة الخراسانية المعتدة بقوتها والمتطلعة إلى النفوذ والسلطان، وبين المركزية في سلطان الخلافة[2].

وفي تحديد ماهية حركة أبي مسلم، يتبين أن هذا الرجل كان يشعر بأنه المؤسس الحقيقي لدولة الخلافة العباسية. وأخذته العزة حين رأى التفاف الفرس حوله يأتمرون بأمره، ويرون فيه زعيماً قومياً. وراودته أحلام طموحات شخصية، من تفرد بحكم خراسان وبلاد إيران كلها، ونزعات استقلالية، أو تحقيق اللامركزية في الممارسة السياسية والإدارية. وتدل تصرفاته، بعد نجاح الثورة العباسية وعلاقته بالخلافة منذ عهد الخليفة الأول، دلالة واضحة على هذا الاتجاه.

فقد ثقلت وطأته على أبي العباس، وكثر خلافه له، وردّه لأمره[3]. وكان أبو جعفر شديد الحساسية تجاه طموحاته، فحثَّ أخاه على قتله، لكن السفاح لم يُبد ميلاً جدِّياً لذلك، بفعل بلائه في خدمة الدعوة العباسية، بالإضافة إلى كثرة أتباعه الذين يؤثرونه على دينهم ودنياهم، وقد يصبحون مصدر قلق للدولة[4].

أما علاقة أبي مسلم بأبي جعفر، فقد كانت سيئة جداً، فقد حدثت أحداث أدَّت إلى تباعد الرجلين منها:

- أراد أبو مسلم أن يحج في عام ١٣٦ هـ، وكان يطمع بإمارة الحج، إلا أن الخليفة أبا العباس السفاح ولاَّها أبا جعفر، مما دفع أبا مسلم إلى الغضب[5].

- يبدو أن أبا مسلم كان حريصاً على أن يُشعر أبا جعفر بقيمته، فأخذ يحط من هيبته بإنفاقه الأموال الكثيرة في إصلاح الطرق، وفي الترفيه عن الأعراب، وبتقدمه عليه في الطريق.

---

(١) عمر: ص ٩٠.

(٢) محمود والشريف: ص ١٠٢.

(٣) الجهشياري: ص ٩٣.

(٤) ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٤٦.

(٥) الطبري: جـ ٧ ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

ـ ولما مات السفاح، وتولى أبو جعفر الخلافة، تباطأ في بيعته. وكانا عائدين من الحج، فكتب إليه يعزيه بوفاة أخيه دون أن يهنئه بالخلافة، أو يبعث إليه بالبيعة أو يتريث في طريقه حتى يلحق به، متجنباً لقاءه مما أدخل الروع والقلق في نفسه[(١)].

ولما تولى المنصور الخلافة، قرر التخلص منه، فنهج معه أسلوباً سياسياً قائماً على الأسس التالية:

- إبعاده عن منطقة نفوذه في خراسان حتى لا يؤلب عليه أهلها، ويستقل بحكمها.
- أن يلقاه وحيداً، مجرداً من النفوذ والسلطان.
- تلطيف الأجواء بينهما حتى يزيل الريبة من قلبه.
- جعله قريباً من مركز الخلافة حتى تسهل مراقبته.

وانفجرت الأزمة بين الرجلين بعد انتصار أبي مسلم على عبد الله بن علي، فقد حاز على أمواله وخزائنه، فأراد المنصور أن يشعره بأنه أحد عماله، فأرسل إليه رسولاً ليحصي الغنائم مما أزعجه وأغضبه وقال معلّقاً على ذلك: «أمين على الدماء، خائن في الأموال». ثم بعث إليه المنصور أن احتفظ بما في يدك. فصعب ذلك على أبي مسلم ومال إلى خلعه[(٢)].

وازداد استعلاء أبي مسلم بعد ذلك، لدرجة أنه كان يأتيه الكتاب من الخليفة، فيقرأه ثم يلوي شدقه على سبيل السخرية منه[(٣)].

وكتب المنصور إليه يهنئه بالنصر ويبلغه بتوليته الشام ومصر، لكن أبا مسلم كان من الدهاء بحيث لم يُخدع بمثل هذه المناورة التي تهدف إلى فصله عن جنوده من أهل خراسان، وفطن لغرض المنصور، وعلّق عليه بغضب قائلاً: «هو يوليني الشام ومصر، وخراسان لي»، وقرر العودة إلى خراسان مخالفاً بذلك أوامر الخليفة[(٤)]. وقد خشي هذا الأخير، من عودته بفعل أنه سيعتصم بشيعته، ويصبح قادراً على تحدي السلطة المركزية، فيصعب عند ذلك إخضاعه أو التغلب عليه.

---

(١) المصدر السابق: جـ ٧ ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٠٣. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٥٠.

(٣) الطبري: جـ ٧ ص ٤٧١.

(٤) المصدر نفسه: ص ٤٨٢.

نتيجة لهذا التطور في المواقف، لجأ المنصور إلى أسلوب الدهاء للإيقاع بعدوه، فتوجه إلى المدائن، وكتب إليه يدعوه لزيارته، وهو في طريقه إلى خراسان، لأمر مهم. لكن أبا مسلم أدرك مرامي الخليفة، وردَّ عليه برسالة عبَّر فيها عما يجيش في صدره من حذر وحقد[1].

لم ييأس أبو جعفر من الإيقاع بخصمه. ولجأ هذه المرة إلى أسلوب الترغيب والتهديد. ونجح رسوله إليه، وهو أبو حميد المروزي، في التأثير عليه، وانتزع موافقته، بالرغم من معارضة أركان حربه[2].

وهكذا تحقق مثول أبي مسلم أمام المنصور بعد عدة محاولات مزج فيها الخليفة السياسة بالتهديد.

ودارت بين الرجلين محاورة طريفة كانت أقرب إلى المحاكمة، وهي تكشف عن اعتداد أبي مسلم بنفسه، وبالجهود التي بذلها في خدمة بني العباس، وتنم عن دهاء المنصور، وخوفه من قيام القوة الخراسانية الفارسية بالانفصال عن السلطة المركزية، ذلك أن هذا الرجل بدأ يشكل خطراً يهدد أمن الدولة ووحدتها، كما تدل المحاورة على عداوة قديمة بينهما، إلا أنها تتضمن، في الوقت نفسه، اتهاماً خطيراً لأبي مسلم بمحاولة الوصول إلى الخلافة عن طريق[3]:

- تجاوز العلاقات الاجتماعية، حين خطب لنفسه آمنة بنت علي، عمة الخليفة[4].

- وضع نفسه في المكانة الأولى في الدولة، حين كتب إلى أبي جعفر بادئاً بنفسه[5].

---

(١) راجع نص الرسالة عند الطبري. جـ ٧ ص ٤٨٣.
(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥. اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٠٣.
(٣) العمرو: ص ٣٢٢.
(٤) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٠٤. المعروف أن البيت العباسي احتل مكانة متميزة حتى عن البيوت العربية الأخرى. واعتبر العباسيون أن زواج العباسية من غير عباسي يعتبر زواجاً غير متكافىء، لذلك حرصوا على عدم تزويج بناتهم من أحد خارج أبناء بيتهم.
(٥) المصدر نفسه.

ـ ادّعاء النسب العباسي، حين زعم أنه ابن سليط بن عبد الله بن عباس[1]، أي أنه جعل لنفسه مكانة مساوية لمكانة والد المنصور محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

أما التهم الأخرى التي وجهت إليه هي:

ـ قتله لسليمان بن كثير نقيب النقباء في خراسان.

ـ قتله لعدد من رؤساء القبائل اليمنية أمثال علي بن جديع الكرماني وأخيه عثمان.

ـ قراره بالسير إلى خراسان دون استئذان الخليفة أو أخذ موافقته.

وبعد أن انتهى المنصور من مواجهة خصمه بالتهم المنسوبة إليه، لم يكن لأبي مسلم جواب إلا أن يذكِّر الخليفة بخدماته في سبيل الدعوة العباسية. وقبل أن تضربه السيوف، استنجد بالخليفة وأخذ يعتذر أمامه عما بدر منه، لكن محاولته هذه لم تغنه عن القتل في اليوم الخامس والعشرين من (شهر شعبان عام ١٣٧ هـ/ شهر شباط عام ٧٥٥ م)[2].

وهكذا تخلص المنصور من هذا المنافس الخطر الذي طالما أقضَّ مضجعه مدفوعاً بعوامل سياسية وشخصية. وحينما أبدى ابن أخيه عيسى بن موسى احتجاجاً على طريقة القتل قال له المنصور: «والله ليس لك على وجه الأرض عدو أعدى منه، وهل كان لكم ملك في حياته؟»[3] وعندما علم جعفر بن حنظلة بقتل أبي مسلم قال للخليفة: «يا أمير المؤمنين عُدَّ من هذا اليوم خلافتك»[4]. وإن دلَّ ذلك على شيء، فإنه يدل على عظمة شأن أبي مسلم وقوة سلطانه.

ذيول مقتل أبي مسلم

حركة سنباذ

نجح أبو جعفر المنصور في القضاء على أبي مسلم، إلا أن ذكراه بقيت بين

---

(١) المسعودي مروج الذهب: جـ ٣ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢. ابن الأثير جـ ٤ ص ٣٥٤.

(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٤٩٠ ـ ٤٩١.

(٣) ابن الطقطقا: ص ١٧١.

(٤) الطبري: جـ ٧ ص ٤٩٢.

الفرس في خراسان والترك في بلاد ما وراء النهر. وظهرت في خراسان بعد مقتله حركات دينية سياسية وقومية غريبة عن الإسلام، كان أصحابها يظهرون الإسلام ويبطنون أهدافهم الدينية المجوسية، والسياسية الهدامة، والعنصرية الفارسية، واتخذوا من أبي مسلم رمزاً ووسيلة للتعبير عن معارضتهم للسلطة العباسية، والتنفيس عما في نفوسهم، ثم منقذاً منتظراً لتحقيق آمالهم وأهدافهم التي لم يحققها العباسيون[١].

شكّلت حركة سنباذ[٢] أول رد فعل لمقتل الزعيم الفارسي، وقد خرج غضباً لقتله وطلباً للأخذ بثأره. التف حوله الأتباع، وغلب على نيسابور وقومس والري وتسمى باسم «فيروز أصبهذ» واستولى على خزائن أبي مسلم وأعلن أنه سوف يهاجم مكة ويهدم الكعبة انتقاماً[٣].

والواقع أن هذه الحركة اتسمت بثلاثة دوافع: **سياسية، عقدية، وعنصرية**.

فمن حيث الدافع السياسي، فقد عزم هذا الرجل على الأخذ بثأر أبي مسلم من قاتله الخليفة العباسي المنصور، فكانت انتفاضته موجهة ضد هذا الخليفة، وضد النظام العباسي، وما يمثله من اتجاه سياسي نحو الحد من نفوذ الخراسانية.

ومن حيث الدافع العقدي، فقد اشتقت هذه الحركة مبادئها من الخرّمية والمزدكية القديمة. واعتقد أتباعها بإمامة أبي مسلم وأزليته وأنه لم يمت[٤]. والحقيقة أنها حركة مجوسية موجهة ضد المسلمين بدليل انتحاله للاسم الفارسي «فيروز أصبهذ»[٥]، وإظهاره العزم على هدم الكعبة.

---

(١) عمر: ص ٢٢١.

(٢) اتخذت هذه الحركة اسم الرجل الذي تزعمها وهو سنباذ. كان هذا الرجل مجوسياً من إحدى قرى نيسابور يقال لها أهروانة. راجع ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٥٧.

(٣) الطبري: جـ ٧ ص ٤٩٥.

(٤) المصدر نفسه. المسعودي: جـ ٣ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤. ابن الأثير جـ ٤ ص ٣٥٧.

(٥) فيروز اسم من الأسماء التي سبق أن أطلقت على العديد من الرجال البارزين في تاريخ الأمبراطورية الفارسية. أما أصبهذ، فهو اللقب الذي كان يُمنح لحكام بعض المناطق في هذه الأمبراطورية.
راجع: العمرو. مرجع سابق ص ٣٢٩.

أما من حيث الدافع العنصري، فقد تطلع سنباذ إلى إعادة إحياء الدولة الفارسية، وتقوية العنصر الفارسي ضد الدولة العربية، بالرغم من أن العباسيين خالفوا الأمويين في سياستهم تجاه الموالي، إلا أنهم (الفرس) اعتبروا دولة هؤلاء استمراراً للدولة الأموية باعتبارهم ممثلين للعنصر العربي.

وعندما تفاقم أمر سنباذ أرسل إليه أبو جعفر جيشاً بقيادة جهور بن مرّار العجلي اصطدم به بين همذان والري وقضى عليه. وهكذا انتهت هذه الحركة في عام (١٣٧ هـ/ ٧٥٥ م) بعد سبعين يوماً من قيامها[١].

حركات أخرى

لم يختفِ أنصار أبي مسلم تماماً بعد القضاء على حركة سنباذ. والحقيقة أن الخليفة العباسي، وإن نجح في القضاء على هذه الحركة، إلا أنه لم يتمكن من القضاء على الأفكار التي دفعت سنباذ إلى الانتفاضة.

لذلك، شهدت بلاد فارس وما وراء النهر قيام عدة حركات مناهضة للحكم العباسي، اقترنت باسم أبي مسلم على نحو أو آخر، والتزمت بالأهداف نفسها، من حيث إنها تُعدُّ خارجة على الدين الإسلامي والدولة العباسية. وكانت السمة البارزة والمميزة لأنصارها عند خروجهم هي ارتداء البياض، وحمل الأعلام البيضاء، لذلك أطلق على هذه الجماعات اسم «المبيضة»[٢].

من هذه الحركات:

الحركة الراوندية التي قامت في عام (١٤١ هـ/ ٧٥٨ م).

وحركة أستاذسيس التي انطلقت من خراسان في عام (١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م).

وقد جهد المنصور في القضاء عليها، فحاربها دون هوادة، ونجح في ذلك.

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٤٩٥. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٣٥٧.

(٢) بارتولد: مرجع سابق ص ٣١٧.

العلاقة مع الطالبيين

خروج محمد النفس الزكية:

لم ينسَ الطالبيون حقهم في الخلافة منذ مقتل الحسين في كربلاء. فإنهم ما برحوا، في كل أدوار حياتهم، يتذرعون إلى نيل حقهم بكل وسيلة، فإن وجدوا الفرصة سانحة اغتنموها، وإذا آنسوا من أنفسهم ضعفاً ركنوا إلى الهدوء. ولما قامت الدعوة العباسية انخرط بعض الشيعة فيها، ظناً منهم بأنها طالبية، في حين وقف بعضهم الآخر على الحياد، تاركين الأمور تجري في مجراها الطبيعي، على الرغم من تأييدهم لفكرة الثورة على الأمويين.

ويبدو أن العلاقة بين العباسيين والطالبيين، أثناء فترة الدعوة العباسية، كانت حسنة، وعندما انتهت الثورة، بانتقال الخلافة إلى آل العباس، اعتبر الطالبيون، خاصة الفرع الحسني، أن العباسيين خدعوهم، واستأثروا بالخلافة مع أنهم أحق بها. ولم يكن من اليسير أن يتحملوا كل ما تحملوه من مضايقات الأمويين لتقوم بعد ذلك دعوة باسمهم تنزع حقهم، لذلك ناصبوهم العداء.

وحاول العباسيون، من جانبهم، في مستهل حياتهم السياسية، أن يتعاونوا مع الطالبيين لإعطاء دولتهم الناشئة الفرصة لتثبيت أقدامها، ثم بدأ الفريقان في التباعد، شيئاً فشيئاً، حين أعلن السفاح في خطبة له في الكوفة أن الخلافة عباسية، وستبقى عباسية، وأنه ليس لأحد أي حق فيها، قاصداً بذلك الطالبيين(١). إلا أن العلاقة بين الطرفين اتسمت بالهدوء والمسالمة، ثم تبدلت بعد ذلك في عهد المنصور، فمالت نحو التأزم ثم الاصطدام. ذلك أن هذا الخليفة، وقد شعر أن المعارضة الطالبية أضحت خصماً عنيداً، راح يهدد كل من يخرج على الدولة.

والواقع أن أول الخارجين من الطالبيين، على حكم العباسيين، كان محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية، وأخوه إبراهيم، وهما من الفرع الحسني، في حين ركن الإمام جعفر الصادق، وهو من الفرع الحسيني، إلى المهادنة، واستطاع أن يقنع أتباعه بأن الظروف غير مناسبة لإقامة الخلافة الطالبية.

ويبدو أن محمداً هذا كان يدعو إلى نفسه، ويتطلع إلى الخلافة قبل وصول

---

(١) راجع نص الخطبة عند الطبري: جـ ٧ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٦.

العباسيين إلى الحكم، وأضحى له شيعة يدعون له في الحجاز والعراق وخراسان، وراح يتهيأ لليوم الموعود. إلا أنه أخطأ في تقديراته حين ظن أن الدعوة التي انتشرت في خراسان، والتي رفعت شعار الرضا من آل البيت، ليست إلا دعوة للطالبيين، وهو مرشحهم للخلافة[1].

ولما تسلم العباسيون السلطة، لم يرضَ عن ذلك، وامتنع عن مبايعة الخليفة السفاح، وحاول الخروج على حكمه، فمنعه والده لما للخليفة عليه من الفضائل[2].

ولما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة، امتنع الأخوان محمد وإبراهيم عن مبايعته، وأقاما في الحجاز في مكان سري[3]، مما أزعجه وأقضَّ مضجعه. لذلك جدَّ في البحث عنهما حتى اكتشف مكانهما.

واعتقد محمد النفس الزكية آنذاك، أن ظروف خروجه باتت مؤاتية بفعل عدة عوامل لعل أهمها:

- تضييق العباسيين عليه.
- قيام المنصور بصب جام عذابه على أسرته بهدف الضغط عليهم لتسليمه مع أخيه.
- كما وصلته رسائل تأييد من أمراء الأقاليم وكبار قادة المنصور، يحثونه على الخروج[4].
- اعتراف كثير من الناس بإمامته، خاصة أهل الحجاز.
- إلحاح أصحابه عليه بالخروج بعدما سئموا الانتظار.

---

(١) يبدو أن محمداً استند إلى مقررات المؤتمر الذي عقد بالأبواء، في أواخر عهد الدولة الأموية، الذي دعا إليه والده عبد الله بن الحسن، وحضره وجوه الطالبيين والعباسيين، وكان الهدف منه ترشيح النفس الزكية للخلافة، راجع حول هذا المؤتمر: ابن الأثير، جـ ٤ ص ٣٧٠. ابن الطقطقا: ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين ص ١٦٥.

(٣) ابن الأثير: جـ ٤ ـ ص ٣٧٠.

(٤) مع الملاحظة بأنها كانت رسائل تضليل من قادة المنصور وبإيعاز منه بهدف التعجيل من ظهوره. راجع: المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٣.

ـ تأييد والده له بالخروج.
ـ إفتاء الإمام مالك بجواز بيعته، ونقض بيعة المنصور.
ـ اعتقاده أنه أضحى أقوى من المنصور[١].

لذلك أعلن دعوته وظهر في المدينة في مستهل (شهر رجب عام ١٤٥ هـ/ شهر آب عام ٧٦٢ م) وتلقب بأمير المؤمنين[٢]، في حين ذهب أخوه إبراهيم إلى البصرة ليرفع لواء الانتفاضة فيها[٣]، وبدأ أنصار الطالبيين يرتدون البياض.

وظهر ما كان خافياً على المنصور، فعرف أن المدينة هي قاعدة محمد النفس الزكية ومنطلقه، فركَّز اهتمامه على الحجاز لمنع انتشار دعوته، ثم لجأ إلى المناورة السياسية، فدعاه إلى حل الخلافات بينهما سلمياً، ودخل من أجل ذلك في سلسلة من المراسلات معه[٤]، واتخذ في الوقت نفسه التدابير الضرورية لعزل الحجاز عن باقي الأمصار، لقطع الإمدادات عنه، وصد الناس عن دعوته، ثم ارتحل إلى الكوفة، وهي مهد الشيعة، فأحكم قبضته عليها[٥]، كما نجح في دفع الخراسانيين عن مساندته[٦].

وجاءت الخطوة الحاسمة للقضاء على حركته، على يد الفرق العسكرية، وسرعان ما وجد محمد نفسه يواجه الكثير من المتاعب بفعل عدة عوامل أهمها:
ـ إحجام معظم أهل المدينة عن مساعدته[٧].

ـ لقد أخطأ في تقدير خروجه، فقد كان متفقاً مع أخيه إبراهيم أن يخرج في البصرة في اليوم الذي يخرج هو فيه في المدينة، لكن أخاه لم يخرج في اليوم المحدد لمرض ألَّم به، وأن محمداً خرج قبل اليوم المحدد نتيجة الضغوط عليه، مما أفقده عنصر التنسيق الضروري للنجاح، وأعطى المنصور فرصة طيبة استغلها لضرب الأخوين كل على حدة.

---

(١) المسعودي: جـ ٣ ص ٢٥٣. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣.
(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣١٥.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) تجد نص الرسائل المتبادلة عند الطبري جـ ٧ ص ٥٦٦ ـ ٥٧٢.
(٥) المصدر نفسه: ص ٥٦٥.
(٦) المصدر نفسه: ص ٥٤٧.
(٧) المصدر نفسه ص ٥٨٢ ـ ٥٨٣.

ـ لقد تردَّد في مواجهة خصمه.

وأخيراً حدثت المعركة الفاصلة بين الطرفين في صبيحة اثنتي عشرة ليلة من شهر رمضان، وانتهت بانتصار الجيش العباسي، ومقتل محمد النفس الزكية عصر يوم الإثنين في الرابع عشر من الشهر المذكور. وأمَّن عيسى بن موسى، قائد الجيش العباسي الذي تولى المهمة، أهلَ المدينة، إلا أنه صادر ممتلكات بني الحسن بن علي[1].

وهكذا خُتم أول فصل من فصول هذه المأساة، ولم يبقَ أمام المنصور إلا القضاء على حركة إبراهيم في البصرة.

خروج إبراهيم بن عبد الله:

استقر إبراهيم بن عبد الله في البصرة، بعد أن ترك الحجاز، حيث وجد فيها الأرضية الصالحة لنمو وانتشار الأفكار الموالية للطالبيين. فانضوت الزيدية والمعتزلة تحت لوائه، والتف حوله الضعفاء، والطبقات الفقيرة والمحرومة، أملاً في إنقاذهم مما يعانونه من فاقة، وأيده الأمويون فيها، وساندته العثمانية، لما له من صلة النسب بعثمان بن عفان، وشدّ أزره فقهاء البصرة[2].

وتمكن بواسطة هؤلاء جميعاً من أن يسيطر، بسهولة، على البصرة، ودانت له الأهواز، وفارس، والمدائن[3] أما الكوفة المتوثبة للتخلص من الحكم العباسي، فقد أحكم المنصور قبضته عليها مما حرمه من مساعدة أبنائها[4].

ونمت حركة إبراهيم، وتوافدت الجموع على البصرة لتبايعه، فقويت شوكته، وشعر بأن الفرصة أضحت سانحة للاصطدام بالخليفة. ولما جاءته الأخبار بقتل أخيه دعا إلى نفسه بالخلافة، وتسمى بأمير المؤمنين وبايعه أتباعه على ذلك[5].

الواقع أن هذه الحركة تعتبر من أشد الحركات التي واجهت المنصور، بفعل أن

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٥٩٦. الأصفهاني: ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٢) المسند، عبد الله بن علي: العلويون في الحجاز ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(٣) ابن كثير: جـ ١٠ ص ٩٢.

(٤) الطبري: جـ ٧ ص ٦٤١.

(٥) ابن كثير: جـ ١٠ ص ٩١. ابن الطقطقا: ص ١٦٧.

سيطرة إبراهيم على مناطق واسعة وغنية أثَّرت تأثيراً سلبياً على قدرات الدولة، وخشيها الخليفة، فحاول الهرب من الكوفة ليلحق بابنه المهدي في الري، كما حاول مراسلة إبراهيم بشأن عقد صلح بينهما[١].

وأخيراً وقعت المواجهة المسلحة بين الطرفين في باخمرا، وهي قرية قريبة من الكوفة، في (شهر ذي القعدة عام ١٤٥ هـ/ شهر كانون الثاني عام ٧٦٣ م)، وكادت الهزيمة تلحق بالجيش العباسي الذي قاده عيسى بن موسى وبدا النصر قاب قوسين أو أدنى من العلويين، لولا أن تغير وجه المعركة فجأة عندما أُصيب إبراهيم بسهم في عنقه أودى بحياته، فاضطرب نظام جيشه، وشنَّ الجيش العباسي هجوماً مضاداً كفل له النصر[٢].

الأوضاع في المغرب

استولى عبد الرحمن بن حبيب، وهو أحد الزعماء العرب البارزين، على السلطة في إفريقية (المغرب الأدنى) في ظل الفوضى التي ضربت العالم الإسلامي أثناء الصراع على السلطة بين الأمويين والعباسيين، ودخل القيروان، متطلعاً إلى إقامة دولة مستقلة[٣].

ويبدو أن عبد الرحمن هذا لم يكن رجل دولة، وبدا من خلال تصرفاته السياسية أنه يفتقر إلى فن الحكم، فذهب ضحية جشعه وأنانيته، فقد اغتيل في عام (١٣٧ هـ/ ٧٥٤ م) في ظل فوضى الصراع على السلطة[٤].

في هذه الأثناء، برز الخوارج على مسرح الحياة السياسية في إفريقية، وكانوا متربصين بالبلاد يحاولون انتزاعها، ونجحوا في استقطاب بعض قبائل البربر[٥] الذين تأثروا بآرائهم، وتأسيس دول لهم فيها.

---

(١) المسند: ص ١٧٢.
(٢) الطبري: جـ ٧ ص ٦٤٦ ـ ٦٤٧.
(٣) ابن عذارى: جـ ١ ص ٦٥. مؤنس، حسين: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي: جـ ١ ص ١٦٤.
(٤) مؤنس: المرجع نفسه. ص ١٦٦.
(٥) يلاحظ أن غالبية البربر، الذين اشتركوا في حركات الخوارج، كانوا زناتيين أي من البدو البتر. مؤنس: جـ ١ ص ١٦٥.

وشهد المغرب، آنذاك، ظهور إمارتين خارجيتين قامتا على أكتاف البربر برئاسة زعماء من العرب، واستقلتا استقلالاً يكاد يكون تاماً.

أما الإمارة الأولى فهي إمارة سجلماسة. وهي دولة بني مدرار أو بني واصول الصفرية[1] وتدين بالمذهب الصفري. نشأت في عام (١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م) في جنوبي المغرب الأقصى في المنطقة شبه الصحراوية التي تضم السهوب والواحات القائمة في الجنوب من جبال الأطلس وعلى أكتاف الصحراء من ناحية الشمال.

تُعدّ هذه الإمارة من أبرز إمارات الخوارج المستقلة التي تأسست في عهد الخليفة المنصور، وعمَّرت مائة وأربعين عاماً. اشتهرت بغناها وبموقعها التجاري الهام كما شكلت سوقاً كبيراً تتم فيه مقايضة السلع الواصلة إليها من الجنوب والغرب، لتنقل إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، أو من هذا الحوض إلى قلب إفريقية.

أما الإمارة الثانية، فهي الإمارة الإباضية، نسبة إلى عبد الله بن إباض المري، قامت في المغرب الأوسط عام (١٤٤ هـ/ ٧٦١ م). أسسها رجل فارسي، على الغالب، هو عبد الرحمن بن رستم، وقد حمل لقب الإمام. كانت عاصمة هذه الإمارة مدينة تاهرت التي بناها المؤسس في عام (١٥٠ هـ/ ٧٦٣ م)، وقدر لخلفائه أن يحكموا أكثر من مائة وثلاثين عاماً، وكانوا أشد الخوارج تعصباً. وقام مجتمع هذه الإمارة على أساس المساواة الكاملة بين الناس والحياة الخلقية المتطهرة، لهذا وجد البربر أن مذهب الخوارج يناسب وضعهم الاجتماعي والسياسي فاتخذوه عنواناً للمعارضة العنصرية.

ويبدو أن الخلاف قد أخذ يدب بين الجماعتين الخارجيتين الصفرية والإباضية، بفعل اختلاف الأفكار الدينية.

وأضحت إفريقية تحت رحمة الخوارج تتبادل فيها السلطان عليها جماعة بعد جماعة مما دفع أهلها للاستغاثة بالخلافة العباسية.

لم يقف المنصور أمام هذه الحركات المناهضة مكتوف اليدين، فأرسل

(١) أسس هذه الإمارة رجل سوداني يدعى عيسى بن يزيد المكناس الصفري. أما تسميتها ببني مدرار أو بني واصول فنسبة إلى اسم ثالث أمرائها وهو أبو القاسم سمعون بن واصول الملقب بمدرار.

الحملات العسكرية إلى المغرب لإعادة بسط سيطرة الدولة عليه.

وتمكنت إحدى هذه الحملات، بقيادة يزيد بن حاتم بن قبيصة، من الانتصار على الخوارج الإباضية في عام (١٥٥ هـ/ ٧٧٢ م). ونعمت القيروان، بعد أن استعادتها الجيوش العباسية بفترة طويلة من الهدوء والاستقرار في ظل حكم أهل السنة.

وهكذا تمكن المنصور من استعادة ولاية إفريقية، إلا أن نفوذه لم يتجاوزها إلى داخل المغرب.

إحياء دولة الخلافة الأموية في الأندلس

كانت الأندلس الولاية الأشد تأثراً بانتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين. فقد عانت من فوضى الصراعات العنصرية والإقليمية خلال مرحلة غياب السلطة المركزية التي استمرت بين عامي (١٢٤ ـ ١٣٨ هـ/ ٧٤٢ ـ ٧٥٦ م)، ونشبت الحروب الداخلية، بين القيسيين واليمنيين، وهزمت المضرية، اليمنية في شقندة، الواقعة أمام قرطبة في عام (١٣٠ هـ/ ٧٤٨ م)[١].

وسقطت أثناء ذلك دولة الخلافة الأموية على أيدي العباسيين في عام (١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م)، وأخذ الولاة العباسيون يتتبعون الأمويين ويقتلونهم. إلا أن أميراً أموياً استطاع النجاة من مطاردة هؤلاء، هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، فيمّم وجهه شطر المغرب.

اتصف عبد الرحمن بالطموح، فعزم على تأسيس دولة له في المغرب، إلا أنه اصطدم بمعارضة والي إفريقية عبد الرحمن بن حبيب الفهري، فاتجهت أنظاره نحو الأندلس التي كانت أوضاعها مضطربة حيث وجد في هذا الإقليم الفرصة الأكثر منالاً من المغرب، ونجح خادمه بدر، الذي أرسله إلى هناك لدراسة الموقف، من تكوين نواة لقاعدة أموية اعتمدت على اليمنية.

والواقع أن اليمنيين، الذين يرتبطون عضوياً بالأسرة المروانية، رحبوا بتأييد الأمير الأموي للتحرر من قيود القيسيين الثقيلة، والأخذ بثأر قتلاهم في وقعة شقندة.

---

(١) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة: ص ٥٩.

وبات أنصار الأمير الأموي يمتلكون من المعطيات ما شجعهم على دعوته، فعبر المضيق في (شهر ربيع الثاني عام ١٣٨ هـ/ شهر أيلول عام ٧٥٥ م)، ونزل ضيفاً على أبي عثمان في حصن طرشة[(١)]

كان حاكم الأندلس آنذاك يوسف بن عبد الرحمن الفهري، لكن السلطة الفعلية كانت في يد الزعيم القيسي الصميل بن حاتم. وقد أدرك الزعيمان مدى الخطر الذي يشكله عبور الأمير الأموي على أوضاعهما، خاصة وأنه حاز على ثقة فئة كبيرة من المجتمع الأندلسي، لذلك قررا التصدي له لإرغامه إما على العودة أو الخضوع لهما.

أما عبد الرحمن، فقد استعد، من جهته، للوقوف في وجهيهما. فغادر حصنَ طرشة إلى أرشذونة، التي أعلنت، تأييدها له[(٢)] ثم دخل أشبيلية، وبايعه أهلها[(٣)]، وانضمت إليه الفرق العسكرية التي كانت قد جاءت من دمشق وحمص والأردن، وغادر بعد ذلك أشبيلية باتجاه قرطبة، والتقى بقوات الصميل والفهري عند المسارة في (شهر ذي الحجة عام ١٣٨ هـ/ شهر أيار عام ٧٥٦ م) وانتصر عليها، ودخل قرطبة حيث صلى بالناس صلاة الجمعة في مسجدها الكبير، وخطب فيهم معلناً قيام دولته الجديدة، واضطر كل من الصميل والفهري للفرار[(٤)].

وهكذا استطاع هذا الأمير الأموي الطريد، أن يُحيي، من جديد، دولة الخلافة الأموية التي سقطت في الشرق، وأن يجعل من الأندلس دولة مستقلة، وأول ولاية اقتطعت من دولة الخلافة العباسية.

واجهت عبد الرحمن الداخل[(٥)]، في بداية حكمه مشكلتان. تمثلت الأولى بقيام حركات ارتدادية من جانب الصميل والفهري، وقد أخمدها، وانتهت بمقتل الزعيمين المذكورين[(٦)].

---

(١) ابن عذارى أبو محمد عبد الله محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. جـ ٢ ص ٤٦.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٨٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٨٦.

(٤) المصدر نفسه: ٨٩ ـ ٩٠.

(٥) لقب الأمير عبد الرحمن بـ «الداخل» أي الداخل إلى الأندلس.

(٦) Provençal - Levi: Histoire de L'Espgne Musulmane. Tom I P 108

وتمثلت المشكلة الثانية بمحاولات الخلافة العباسية القضاء على الدولة الناشئة واستعادة سيادتها على الأندلس بعد أن ساءها أن يقتطع الأمويون جزءاً من دولة الخلافة الإسلامية.

والواقع أن أبا جعفر المنصور استغل الأوضاع القلقة التي كان عبد الرحمن الداخل لا يزال يعاني منها، واتصل سراً بأحد الزعماء العرب ويدعى العلاء بن المغيث الجذامي فحثه على التخلص من خصمه ووعده بإمارة البلاد، وبعث له بلواء الدولة العباسية، وبسجل تعيينه على الأندلس[١].

وأخذ العلاء يدعو الناس سراً إلى طاعة الخليفة المنصور، واستغل في عام (١٤٦ هـ/ ٧٦٣ م) التقلبات السياسية لحركات الفئات العنصرية مركّزاً على اليمنية الذين بدأوا يتململون من حكم الداخل بعد أن استأثر بالسلطة دونهم وخذلهم في تحقيق ما كانوا يطمحون إليه من السيادة لقاء ما قدموه من مساعدة في صراعه ضد المضرية. ولم يقبل عبد الرحمن من جانبه أن يكون أداة طيعة في أيدي هؤلاء، فانحاز إلى جانب القيسية مما أثار غضبهم ودفعهم إلى الانضمام إلى حركة العلاء، كما انضم إلى هذه الحركة، الفهريون من القيسيين بفعل العداء المستحكم بينهما.

وبعد نحو عام من الاتصالات والتحضيرات، أعلن العلاء ثورته على النظام الأموي في عام (١٤٧ هـ/ ٧٦٤ م)، ورفع أعلام العباسيين السوداء، لكن الأمير الأموي تمكن من القضاء على ثورته وقتله مع عدد من رجاله وبعث برؤوسهم إلى المنصور[٢]، الذي أدرك أنه أمام أمير قوي ربما يفوقه دهاء وعناداً. وكان فشل هذه المحاولة كافياً لإقناعه بالعدول عن مشروع استعادة الأندلس، ولم يمنعه عداؤه لعبد الرحمن من الإعجاب به ولقبه بـ «صقر قريش»[٣].

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٥٣ .Provençal: op cit
(٢) أخبار مجموعة: ص ١٠٣.
(٣) ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الإسلام من ملوك الإسلام. ص ٩ ـ ١٠.

الأوضاع الخارجية في عهد المنصور

العلاقة مع البيزنطيين

اتَّسمت الحروب بين المسلمين والبيزنطيين في عهد المنصور بالمهادنة إذ لم تتعدَّ المناوشات الحدودية المحدودة، وذلك يعود إلى اهتمام العباسيين بتدعيم مركزهم الداخلي. بالمقابل، كان اهتمام الأمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس منصباً على التجهيز لحرب البلغار في البلقان من جهة، ومشكلة عبادة الأيقونات من جهة أخرى.

حيال هذا الواقع، كان الخليفة العباسي يتطلع إلى إعادة بناء ما تهدم من حصون وثغور، مستغلاً الهدوء النسبي المتوقع.

والواضح أن المنصور اتبع، تجاه الدولة البيزنطية، السياسة التي تتفق مع الوضع الهجومي الذي نفَّذه الأمبراطور البيزنطي، وهي محاولة إيقاف الهجوم عن طريق إعادة تحصين الثغور، وترميم المخربة منها وإعادة بناء المهدمة ثم تنظيم وسائل الدفاع عنها. والجدير بالذكر أن مناطق الثغور كانت تنقسم إلى قسمين:

الأولى: منطقة الثغور الجزرية، وهي التي خصصت للدفاع عن الجزيرة، أي شمالي العراق، ومن أهم حصونها ملطية، المصيصة ومرعش.

الثانية: منطقة الثغور الشامية، وتقع غربي الثغور الجزرية، وقد خصِّصت للدفاع عن بلاد الشام، ومن أهم حصونها طرسوس وأذنة وعين زربة.

لقد حصَّن المنصور هذه المناطق وخصَّصها بحكم إداري مستقل، وحشد فيها آلاف المقاتلين والمرابطين، ومنحهم الإقطاعات والمزارع، وبنى لهم البيوت والاصطبلات، وأنفق عليهم الأموال، ووضع لهم نظاماً عسكرياً ينفذونه.

هذا وقد امتازت منطقة الثغور الشامية بأن الحملات التي كانت تخرج منها برية وبحرية في آن واحد[1]. وقد أدَّت أساطيل مصر والشام دوراً مشتركاً هاماً انطلاقاً من هذه المنطقة.

وبهذا النظام الثغري، استطاع المنصور أن يضع حداً لمطامع البيزنطيين.

---

(١) البلاذري: ص ٢٦٢.

وشهدت مناطق الحدود في عهده مناوشات تراوحت بين الكرّ والفرّ من كلا الجانبين، كانت تخف حيناً، وتنشط أحياناً، متأثرة بالأوضاع الداخلية لكليهما.

ففي عام (١٣٣ هـ/ ٧٥٠ م) تعرَّضت ملطية لهجوم بيزنطي عنيف بقيادة الأمبراطور، الذي تمكَّن من دخولها، فقهر أهلها وهدم سورها[١]. ولما كانت هذه المدينة ذات أهمية استراتيجية، فقد استعادها الخليفة ورمَّمها وشحنها بالمقاتلة[٢]، كما رمَّم قلوذية وشحنها بالمرابطين، وبنى المصيصة، ورمم مرعش[٣].

ونفَّذ البيزنطيون عدة غارات على مناطق الحدود في أوقات متقاربة أو متباعدة، وردَّ المسلمون بإرسال الصوائف، التي استمرت طيلة عهد المنصور، واصطدمت آخر صائفة في عام (١٥٨ هـ/ ٧٧٥ م)، بقيادة معيوف بن يحيى، بجيش بيزنطي في المنطقة الواقعة بين الحدث ونهر جيحان[٤].

بناء مدينة بغداد

كان من بين أهم الأعمال التي قام بها الخليفة أبو جعفر المنصور وتركت أثرها في مستقبل دولة الخلافة العباسية؛ بناؤه مدينة بغداد. والواقع أن تاريخ هذه المدينة، باعتبارها قاعدة من القواعد الإسلامية، يسير جنباً إلى جنب مع قيام دولة الخلافة العباسية وسقوطها. وقد ظل العباسيون، قبل ذلك، ثلاثة عشر عاماً، منذ وصولهم إلى الحكم، دون عاصمة لملكهم حتى بنوا بغداد.

لقد أدرك المنصور المخاطر التي أحاطت بدولته الناشئة، والتي تهدف إلى تقويض حكم الأسرة العباسية، لذا عمد إلى البحث عن مكان يكون ملائماً لعاصمة جديدة تكون تعبيراً عن سيادة أسرته، فاختار موضعاً عند التقاء نهر الصراة بنهر دجلة حيث توجد بغداد البوابة التاريخية التي تؤدي إلى مدن الشرق.

---

(١) البلاذري: ص ٢٦٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤. تاريخ خليفة بن خياط: جـ ٢ ص ٤٤٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٢٧، ٢٦٥. اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٨٢.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ٢ ص ٤٥٨. الطبري: جـ ٨ ص ٥٧. Theophanes: Chronographia. pp 897 - 900

هذا وكانت لدى المنصور من الدوافع السياسية والعسكرية والاقتصادية والمناخية ما جعله يقدم على بنائها.

فمن حيث الدوافع السياسية، فقد تعذر على العباسيين اتخاذ دمشق عاصمة لهم، نظراً لما تكنُّه من إخلاص لبني أمية. فقد كانت هذه المدينة عربية في طابعها وبيئتها وبعيدة عن بلاد فارس مصدر قوة العباسيين، فكانت لهم مصلحة خاصة في نقل حاضرتهم ناحية الشرق. كذلك، لم يستقر العباسيون في الكوفة أو البصرة، وهما المدينتان الكبيرتان، اللتان كانتا موجودتين منذ الفتح الإسلامي للعراق. وبدهي أن هذا لم يأت عفوياً، فقد كان أهل الكوفة ميالين إلى الثورات، وغلب عليهم التشيع لعلي بن أبي طالب وأبنائه. أما البصرة فكانت لا تصلح حاضرة للدولة بفعل موقعها القاصي في الجنوب.

أما بغداد فكانت مؤسسة جديدة خالصة للعباسيين، وتقع على مقربة من بلاد فارس، وجاء بناؤها متوافقاً مع رغبة العباسيين في الاحتفاظ بالسلطة، والتخلص من الطالبيين، والانتقال إلى مرحلة الحكم العباسي الصرف[1]، واعتماد سياسة تهدف إلى إقامة تحالفات جديدة في مجتمع فئات عنصرية قومية ذات ثقافات مختلفة، في وقت كان فيه المجتمع الإسلامي يمر في مرحلة التحول من التنظيم القبلي إلى التنظيم السكني باتجاه قيام مجتمع متماسك تتوفر فيه شروط الاستقرار السياسي والاجتماعي[2].

أما من حيث الدوافع العسكرية، فقد كان مركز دمشق النائي نحو الغرب لا يلائم دولة تمتد أراضيها من البحر الأبيض المتوسط إلى نهر السند. ولم يكن من الجائز أن يقيم العباسيون عاصمة لدولتهم وراء جبال فارس، إذ إنها ستكون بعيدة عن سائر الأمصار. يضاف إلى ذلك أن إقليم العراق كان حلقة الاتصال بين الشرق والغرب، فأصبح بذلك واسطة العقد بين العنصرين الرئيسيين اللذين تألفت منهما الجماعة الإسلامية[3].

---

(١) مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية. ص ١٦٥.

(٢) فاروق عمر: طبيعة الدعوة العباسية. ص ٢٧.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٤ ص ٦.

ويمتاز موقع بغداد بحصانته من الناحية العسكرية، إذ لا يمكن الوصول إليه إلا على قنطرة أو جسر، فإذا قُطعت الجسور وخُرِّبت القناطر لا يصل إليه العدو. وشكّل نهرا دجلة والفرات سوراً وخندقاً طبيعيين، كما يمتاز هذا الموقع ببعده عن مناطق الحدود البيزنطية مما يجعله آمناً وبعيداً عن غارات البيزنطيين[١].

هذا وقد تطورت الوظيفة العسكرية للمدن الإسلامية من حيث كونها معسكراً تنطلق منه الحملات العسكرية للتوسع، خاصة وأن المسلمين أقاموا، في بداية الفتوحات، في معسكرات خارج المدن، إلى معسكر للجند بعد تمصيره بحيث يكون الدفاع عنه أسهل من الدفاع عن المعسكر المكشوف.

وتبدو المظاهر العسكرية جلية في أسلوب بناء بغداد وطريقة تحصينها. فقد أحيطت بسورين وخنادق يحيط بها خندق خارجي عرضه ستة أمتار تجري فيه المياه بهدف إحاطة المدينة بالمياه من كافة جوانبها حتى تكون جزيرة. وجُهزت أبواب المدينة الأربعة بدهاليز كبار تنحرف عن الأبواب الخارجية. وبهذا الطراز الهندسي اكتسبت المدينة قدرة دفاعية. فحين يحاول الأعداء الدخول إليها يضطرون إلى الانحراف نحو اليسار للدخول من مدخل ثانٍ مما يجعل جوانبهم اليمنى مكشوفة وعرضة للسهام الموجهة إليهم[٢]. يضاف إلى ذلك، أن إمكانات الوظيفة العسكرية

---

(١) حاول الأمبراطور البيزنطي زمسكيس، في عام ٩٧٤ م، الوصول إلى بغداد لإسقاط الخلافة العباسية. وقد شجعه على ذلك ضعف الحكم الإسلامي في ظل حكم الخليفة العباسي المطيع. فهاجم منطقة الجزيرة واستولى عليها وبلغ أطراف إمارة الموصل، ولم يعد يفصل بينه وبين بغداد مسافة طويلة، إذ كان بوسع الجيش البيزنطي الهبوط من آمد على امتداد نهر دجلة إلى بغداد. ومع ذلك لم يتحقق هذا الغرض لأسباب لا زالت مجهولة. وربما كان للمجاعة والجفاف التي تعرض لها الجيش البيزنطي أثناء الزحف، والمساحات الشاسعة من الرمال، ما دفعه إلى العودة والتوقف عن تحقيق هدفه.
راجع بشأن هذه الحملة:
Schlumberger: L'Epopeé Byzantine à la Fin du Dixiéme siècle. Tom Ipp 258 - 260

(٢) طاهر العميد: المظاهر العسكرية في بناء بغداد المدورة. مجلة كلية الآداب، بغداد ١٩٦٩، العدد ١٢، ص ٣٠٣ _ ٣١١.

تتأثر بحجم المدينة ويقتضي بالتالي إقامة توازن بين مساحة المدينة، وعدد المدافعين عنها، وهذا يفسر بناء بغداد على شكل دائري إذ تقل مساحة هذا الشكل عن مساحة الشكل المربع في الأرض الواحدة[1]، كما يجعل وجود مركز في المدينة على مسافات متساوية من أجزاء الدائرة، وكان ذلك تعبيراً عن حرص المنصور على المساواة بين موظفيه[2]، كما يعّرض كل أجزائها للشمس والهواء.

ومن حيث الدوافع الاقتصادية، فإن العباسيين لم يستقروا في مكة أو في المدينة، لأن الحجاز كان قطراً فقيراً لا يتناسب مع مكانة الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، والآخذة في التوسع والازدهار.

ويمتاز موقع بغداد، في وادي الرافدين على الضفة الغربية لنهر دجلة في أعلى المكان الذي يلتقي فيه هذا النهر بنهر الصراة، بأنه صلة الوصل بين بلاد الشام وبلاد فارس، كما يمتاز بأهميته الاقتصادية كمركز تجاري لوقوعه على الطرق والممرات المائية والبرية والبحرية المتصلة ببقية أنحاء الدولة حيث ترد إليه المؤن من الشام والجزيرة ومصر والهند والسند والبصرة وواسط وأرمينيا وأذربيجان، عن طريق دجلة والفرات وفروعهما، وتتوافر فيه سبل المعيشة وطيب الهواء، وجودة الغذاء، كما كانت المنطقة مزدهرة زراعياً ومرتبطة بأقنية للري منظمة تنظيماً دقيقاً.

ومن حيث الدوافع المناخية، فقد بعث المنصور رواداً يختارون له مكاناً مناسباً يبني فيه حاضرته، فوقع اختيارهم على مكان قريب من بارمّا جنوبي الموصل. فخرج إليه في جماعة من رجاله وبات فيه ليلته. ولما أصبح سأل رجاله عن رأيهم فيه، فذكروا له طيب هوائه وجودة غذائه. لكن الخليفة لاحظ أنه يفتقر إلى مرفق للرعية، وذكر لهم موضعاً آخر كان قد مرَّ فيه وهو في طريقه إلى هذا المكان، فرجع مع رجاله وأقاموا فيه يوماً وليلة وكان الفصل صيفاً، فأعجبه هواؤه، ووجد فيه المكان الذي يفي بأغراضه[3]. وأحب المنصور أن يقف على آراء أهل تلك الناحية، فدعاهم وسألهم

---

(١) سامح، كمال الدين: العمارة في صدر الإسلام. ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) الخطيب: جـ ١ ص ٧٢.

(٣) الحموي، ياقوت: معجم البلدان: جـ ١ ص ٤٥٨.

عنه، وكيف هو في الحر والبرد والأمطار وغيرها، فأخبره كل واحد بما عنده من العلم، كما سأل أحد الدهاقين، وكان صاحب مزرعة فيه فحسن له النزول فيه لوقوعه بين أربعة نواحٍ وورود المؤن إليه من الأقاليم المجاورة، كما علم المنصور، من رهبان الأديرة الموجودة فيه، أن الموقع معتدل الحرارة بشكل عام[1].

ويتميز موقع بغداد بمميزات مناخية منها قلة الرطوبة رغم الجفاف والحرارة المرتفعة، وهو ما يجعل مناخها أفضل من مناخ المدن الساحلية في المنطقة حيث درجة الحرارة معتدلة إلا أنها مشبعة بالرطوبة.

كان في موضع بغداد، قبل الإسلام، قصر ساساني وجسر من البواخر على دجلة،[2] وقرى نصرانية صغيرة متناثرة على الضفة الغربية للنهر حولها أديرة للنصارى النسطوريين[3]. والراجح أنه كانت هناك محلة تقام فيها أسواق موسمية يجتمع فيها التجار[4]. وقد وجدت نقوش أشورية تفيد ذلك[5]، كما وجدت قطع من الآجر نقش عليها اسم بختنصر الثاني[6].

ويروي المصنفون[7] أن المنصور لم يشيِّد مدينته في منطقة خالية من السكان، بل إن بغداد قامت في منطقة عامرة بالقرى، وذكروا بياناً بأسماء قرى نصرانية أصلها ساساني أخذت تندمج تدريجياً في الأماكن التي شملتها العاصمة العباسية، وكانت بغداد أهم هذه القرى. والراجح أنها كانت تشمل المدينة المدورة التي بناها المنصور وأضحت، فيما بعد، نواة الحاضرة العباسية الجديدة، بل إن بغداد أخذت اسمها الشائع منها[8].

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٦١٦ ـ ٦١٧.
(٢) الخازن، وليم: الحضارة العباسية. ص ٤١.
(٣) الطبري: جـ ٧ ص ٦١٦ ـ ٦١٧.
(٤) الخطيب البغدادي: جـ ١ ص ٢٥ ـ ٢٦.
(٥) العبادي: مرجع سابق: ص ٥٥.
(٦) Encycl Britanica II p 234
(٧) باستثناء الاصطخري الذي ذكر أنها مدينة محدثة في الإسلام لم تكن بها عمارة. راجع مسالك الممالك: ص ٥٨.
(٨) دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٤ ص ٥.

إن اسم بغداد مشتق، على الأرجح، من صيغة فارسية مركبة من كلمتين هما باغ وداد، وتعني عطية الله. وذكر المؤرخون والجغرافيون العرب عدة اشتقاقات لهذا الاسم[١]، وسماها المنصور مدينة السلام تيمناً بجنة الخلد أو لأن وادي دجلة كان يقال له وادي السلام[٢]، وكان هذا هو الاسم الرسمي الذي يذكر في الوثائق وعلى المسكوكات والأوزان[٣].

شرع المنصور في بناء عاصمته في عام (١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م)، واستخدم ألوفاً كثيرة من العمال بالإضافة إلى الاختصاصيين من صناع ونجارين وحدادين وحفارين استقدمهم من الأمصار، وأشرف على البناء عدد من المهندسين الذين عملوا في بناء المدينة[٤]، وقد استغرق بناؤها أربعة أعوام تقريباً، انتهى في عام (١٤٩ هـ/ ٧٦٦ م).

ويُعتبر المخطط الذي نفَّذه المنصور مبتكراً، فقد جعل المدينة مستديرة تحيط بها أسوار مزدوجة تؤلف حلقتين متتابعتين، وهذا اتجاه جديد في فن بناء المدن الإسلامية[٥]، ويبدو أنه قد تأثر ببناء بعض المدن الفارسية القديمة مثل همذان.

شُيِّدت مدينة بغداد على شكل حصن كبير، وتألفت من ثلاثة عناصر معمارية هي: التحصينات، الأسوار الخارجية، ثم المنطقة السكنية الداخلية. وضمّ وسط المدينة قصر الخليفة والجامع وقصور أولاده ودواوين الحكومة[٦]. ولم يكن يسمح لأحد بركوب الخيل أو غيرها من الدواب داخل المدينة الداخلية إلا للخليفة، وإن من يريد القصر عليه الترجل عند مداخل المدينة الداخلية ويسير على الأقدام باستثناء المهدي وداوود بن علي، عم المنصور، الذي سُمح له بأن يُحمل في محفّة نظراً لمرضه[٧].

ولما فرغ المنصور من بناء بغداد أقطع أهل بيته وأعيان دولته قطائع من الأرض

---

(١) الحموي: جـ ١ ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧.
(٢) الخطيب البغدادي: جـ ١ ص ٥٨ ـ ٦٢.
(٣) دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٤ ص ٣.
(٤) الخطيب البغدادي: جـ ١ ص ٦٦ ـ ٦٧.
(٥) العبادي: ص ٥٦.
(٦) سعد، فهمي: العامة في بغداد، ص ٢٧.
(٧) الخطيب البغدادي: جـ ١، ص ٧٧.

بجوار الأبواب خارج مدينته، ومنح جنوده الأرباض ليبنوا عليها دورهم[1]، وذلك رغبة في تخفيف الضغط عن المدينة من جهة، ومكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة من جهة أخرى. وسرعان ما عمرت القطائع وازدحمت بالسكان، وأضحت كل قطيعة تعرف باسم الرجل أو الطائفة التي تسكنها.

ويظهر الأثر الفارسي في تخطيط المدينة، إذ فُصل الخليفة عن الرعية وجعل له مقامٌ سامٍ يصعب الوصول إليه، كما أن ضخامة القصر والإيوان تظهر روعة الملك، ثم إن فكرة الاستدارة، وحصر بيوت السكان في أحياء منفصلة، يمكن غلقها ليلاً وحراستها بصورة دقيقة؛ يشير إلى السلطة المطلقة المتأثرة بالفرس والتي تتعارض مع سماحة الإسلام وما عُرف عن الأمويين[2].

وبنى المنصور، في عام (١٥١ هـ/ ٧٦٨ م)، مدينة الرصافة أو بغداد الشرقية لابنه المهدي على الجانب الشرقي من دجلة مقابل مدينة بغداد الغربية وقد عرفت باسم «عسكر المهدي»[3]. وتعود الأسباب الاستراتيجية لتبرز من جديد في بنائها حيث وضع المهدي جنده فيها ليكون من في خارج مدينة المنصور عوناً في قمع الاضطرابات التي قد تنشب داخلها[4]. ويبدو أن الخليفة أدرك أنه لن يكون آمناً كل الأمن على نفسه بإقامته في بغداد. وجهزت الرصافة بسور وميدان وبستان وأجري عليها الماء وربط بين المدينتين بثلاثة جسور على نهر دجلة، ومنح القواد فيها القطائع[5]. وسرعان ما عمرت الرصافة حتى قاربت بغداد في الاتساع، وانتهى بناء الرصافة في عام (١٥٩ هـ/ ٧٧٦ م) في عهد الخليفة المهدي.

ولاية العهد ـ وفاة المنصور

من الأحداث المؤثرة التي وقعت في عهد المنصور خلعه لابن أخيه عيسى بن

---

(١) البلاذري: ص ٤١٤ ـ ٤١٥.
(٢) الدوري، عبد العزيز: العصر العباسي الأول: ص ٧٧.
(٣) البلاذري: ص ٤١٤.
(٤) سعد: مرجع سابق: ص ٣١.
(٥) الخطيب البغدادي: جـ ١ ص ٨٢.

موسى من ولاية العهد، وأخذه البيعة لابنه المهدي، بالرغم من أن هذا الأول كان قد أنقذ له ملكه أكثر من مرة. ويبدو أن الخليفة فكَّر في خلع ابن أخيه في بداية عهده. فيذكر الطبري أنه أوفد عيسى بن موسى لمحاربة العلويين وفي نيته أن يتخلص إما من ولي عهده، ليحوِّل الخلافة إلى ابنه المهدي، أو من محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم. وقال: «. . . لا أبالي أيهما قتل صاحبه»[١].

لكن كبار رجال الدولة كانوا قد أقسموا في حياة السفاح على بيعة عيسى بن موسى، ولم يكن من السهل عليهم نقضها، ولم يكن ثمة مناص لتحللهم منها إلا بحمل عيسى بن موسى على الانسحاب طوعاً والتخلي عن ولاية العهد، ويبدو أنه لم يكن راغباً في ذلك مما دفع المنصور إلى استعمال وسائل الترغيب والترهيب التي أدت بدورها إلى اضطراره إلى خلع نفسه ومبايعة المهدي في عام (١٤٧ هـ/ ٧٦٤ م)[٢]. وأضحت ولاية العهد للمهدي أولاً ثم لعيسى بن موسى من بعده.

وأسرع المنصور فحمل الناس على بيعة المهدي، وأوصاه بوصية تكشف عن السياسة الرشيدة التي يجب عليه تطبيقها تجاه رعيته، فحثَّه على الرأفة بهم والسهر على راحتهم، وبسط العدل بينهم، والتقرب إلى الله بحسن السيرة، وإجلال أهل العلم والدين، وعمارة الأرض لتخفيف الخراج، ونشر الإسلام، والجهاد في سبيل إعلاء كلمته[٣].

توفي المنصور ليلة السبت (لست مضين من ذي الحجة عام ١٥٨ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٧٥ م) وكان يشكو من عسر الهضم، فخرج لأداء فريضة الحج، وعانى، أثناء الطريق، من الآلام الموجعة، ولم يكد يصل إلى بئر ميمون، على بُعد ستة أيام من مكة، حتى توفي عند السحر في خيمته[٤].

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٥٧٧.

(٢) ابن الطقطقا: ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٣) راجع نص الوصية عند الطبري: جـ ٨ ـ ص ١٠٢ ـ ١٠٧.

(٤) المصدر نفسه: ص ٦٠.

محمد المهدي ـ محمد موسى الهادي

أبو عبد الله محمد المهدي

١٥٨ ـ ١٦٩ هـ/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥ م

التعريف بالمهدي

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، أبو عبد الله المهدي. ولد بالحميمة من أرض الشراة في عام (١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م)، وأمه أروى بنت منصور الحميرية[١].

نشأ في بيت الخلافة، وعني المنصور بتثقيفه، فعهد به إلى المفضل الضبّي، فمال إلى العلم والأدب. ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره، اهتم بإعداده لمنصب الخلافة بتدريبه على الحرب والإدارة، فأرسله في عدة مهمات عسكرية، كما عينه في عدد من المناصب الإدارية، وعينه في عام (١٤٧ هـ/ ٧٦٤ م) ولياً لعهده.

تزوج المهدي من ريطة بنت السفاح. اتصف بالكرم واللين والفطنة، «لا يدخله غفلة عند مخوفة، ولا يتكل في الأمور على غير ثقة، وصولاً لأرحامه، براً بأهله. ليّن الجانب، شديداً على أهل الإلحاد والزندقة، وكان يجلس للمظالم»[٢].

بويع له بالخلافة بعد وفاة المنصور، وكان في الثالثة والثلاثين من عمره[٣].

---

(١) ابن كثير: جـ ١٠ ص ١٥١.

(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف: ص ٢٩٧. ابن الطقطقا: ص ١٧٩.

(٣) الطبري: جـ ٨ ص ١١٠ ـ ١١٤.

الأوضاع الداخلية في عهد المهدي

إصلاحات المهدي

تعتبر خلافة المهدي، التي استمرت زهاء عشرة أعوام، فترة انتقال بين عهد الشدة والقمع الذي ساد عهد من سبقه من خلفاء بني العباس، وعهد الاعتدال واللين الذي امتازت به أيامه وأيام من أتى بعده. وكان الناس، كما وصفهم المنصور في وصيته لابنه، ثلاثة أصناف: «فقيراً لا يرجو إلاَّ غناك، وخائفاً لا يرجو إلا أمنك، ومسجوناً لا يرجو الفرج إلا منك، فإذا وُلِّيتَ فأذقهم طعم الرفاهية، لا تمدد لهم كل المد»[1]. لذلك كان من الضروري أن ينتهج سياسة ليِّنة تداوي الجراح والنفوس، وتجمع شمل الأمة. وامتاز عهده بالهدوء الداخلي، ممّا أفسح المجال للقيام بتنفيذ مشروعات إصلاحية.

استهل المهدي خلافته باسترضاء الناس؛ فرد الأموال التي صودرت في عهد أبيه إلى أصحابها، ثم أمر بإطلاق سراح المسجونين السياسيين، لا سيما العلويين منهم، وأعاد لهم أرزاقهم وصلاتهم، كما ساعد استيزاره ليعقوب بن داوود على زيادة التفاهم معهم[2].

وحاول استرضاء أهل الحجاز عندما حج عام (١٦٠ هـ/ ٧٧٧ م)، وكان المنصور قد عاملهم بشدة بفعل مساندتهم لحركة محمد النفس الزكية، فوزع عليهم أموالاً طائلة، وسمح بإعادة الغلال والحبوب الواردة إليهم من الشام ومصر، بعد أن كان المنصور قد قطعها عقب حركة محمد النفس الزكية، وضم إلى حرسه الخاص عدداً من الجنود الحجازيين، ووسع المسجد الحرام، كما وسع مسجد الرسول في المدينة[3].

وعمل على اكتساب مودة أهل الشام، فزار دمشق وبيت المقدس وحاول تسوية الخلافات القبلية المختلفة في بادية الشام، ووزع عليهم الأموال، وأكرم وفادة أولاد مسلمة بن عبد الملك.

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٣٧.

(٢) الطبري: جـ ٨ ص ١١٨ ـ ١١٩، ١٥٦.

(٣) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٥٧.

وأقام المحطات على طريق مكة، وزاد ما كان قد بناه السفاح، وترك منازل المنصور التي بناها على حالها، كما بنى الأحواض التي تُملأ من الآبار لسقاية القوافل ووضع عليها الحراس لحمايتها، وأجرى على المجذومين وأهل السجون حتى يمتنعوا عن السؤال ويحولوا دون انتشار الأمراض، وبنى المدارس والمستشفيات[1]، وأقام البريد بين المدينة ومكة واليمن، واهتم بشؤون التجارة فأنشأ شبكة من الطرق التجارية جعلت من بغداد مركزاً تجارياً عالمياً، وغدت الموسيقى والشعر والحكمة والأدب من مميزات هذا العصر. وسنَّ الخليفة سنة كسوة الكعبة بكسوة جديدة كل عام، وحصَّن المدن، خاصة مدينة الرصافة، وعيَّن الأمناء في الولايات ليوافوه بأخبار الولاة. وكان يجلس للمظالم يستمع إلى شكاوي الناس، فهو أول الخلفاء العباسيين الذين جلسوا للمظالم، وحرص على إقامة العدل بينهم، وكان يُشرك القضاة معه عند النظر في المظالم[2]. وبلغ به الاهتمام بإقامة العدل، أنه اتخذ بيتاً له نافذة من حديد تطرح فيه القصص - عرائض الشكايات - وتجمع بعد ذلك لئلا يبقى مجال للتقديم والتأخير في سماع الظلامات[3].

والحقيقة أن المهدي بدا، من خلال إصلاحاته، وكأنه يبتغي التكفير عن المظالم والقوة التي صبغت عهدي السفاح والمنصور ضد الأمويين والعلويين، وبالرغم من ميله إلى الحياة المترفة، إلا أنه كان يجلُّ الدين إجلالاً كبيراً، ويميل إلى اتباع السنة فلا يخالفها.

الحركات المعادية للعباسيين في عهد المهدي

حركات الزنادقة

انتشرت في المجتمع الإسلامي منذ العهد الأموي ظاهرة الزندقة، وازدادت نشاطاً وحّدة في العصر العباسي الأول. والواقع أن كلمة الزندقة أُطلقت في الأصل على أتباع الديانات المجوسية، كالزرادشتية والمانوية، ثم تدرجت فشملت الملحدين

---

(١) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٦٠.
(٢) ابن الطقطقا: ص ١٧٩.
(٣) الخضري: الدولة العباسية: ص ٨٨.

والمتشككين في الدين من أتباع ابن ديصان ومرقيون وماني[١]، ثم اتسع هذا اللفظ ليشمل الشعوبية، وأصبح لهذا الاصطلاح، بعد ذلك، دلالات دينية ـ سياسية عامة، حين استخدمته السلطة العباسية لضرب خصومها السياسيين أو الدينيين، وأطلق، أخيراً، على بعض الخلعاء والمجّان والظرفاء[٢].

والحقيقة أن الزندقة حركة سياسية مغلَّفة بإطار فكري ديني منظم، ينادي أتباعها بنشر مذهب المانوية بكل ما يحويه من عقيدة دينية وتراث فكري، باعتباره بديلاً عن التراث الإسلامي ـ العربي. وربما كمنت السياسة وراء دعوات المتفلسفين، كما كانت وراء المصادرة من جانب الدولة وحكمها، لأن الزندقة التي كانت تتستَّر بستار الفلسفة، إنما كانت، في ناحية من نواحيها، ثورة مجوسية ترمي إلى هدم الدولة الإسلامية من أساسها، وإقامة الدولة الفارسية مكانها[٣].

ومن الواضح بأن الزندقة، التي يتركز عليها بحثنا، هي الحركة المانوية التي تجدَّد انتعاشها بعد الفتح الإسلامي في العراق والأقاليم الفارسية، وكان سبب انتشار هذه الظاهرة في المجتمع الإسلامي إبّان العصر العباسي؛ الحرية الدينية التي تمتَّع بها أصحاب الديانات بعد الفتح، مما أدّى إلى نوع من صراع الأفكار والآراء في المجتمع كانت نتيجته ظهور جماعات من المفكرين الفرس أخذوا يروِّجون للحضارة الساسانية ومُثُلها، ويدعون إلى تطبيق نظمها وقيمها في المجتمع والإدارة والبلاط باعتبارها بديلاً عن الحضارة الإسلامية والنظم الإسلامية[٤]، خاصة وأن هؤلاء شعروا أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يحقق أهدافهم المتمثلة في إقامة حكومة فارسية في مظهرها وحقيقتها، وفي سلطتها ولغتها ومعتقدها الديني، ورأوا أن ذلك لا يتحقق والإسلام في سلطانه، فأخذوا يعملون على نشر دين المانوية داخل المجتمع الإسلامي، وإحياء التراث المانوي ـ الفارسي القديم، عن طريق نشر الكتب القديمة وتعريبها عن الفارسية، مستهدفين إحلال الثقافة والفكر المانوي محل الثقافة والفكر الإسلامي[٥].

---

(١) راجع فيما يتعلق بهذه الحركات: النشار، علي سامي: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ١ ص ١٨٦ ـ ١٩٧.

(٢) عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين: ص ١١٣ ـ ١١٤.

(٣) العقاد، عباس محمود: التفكير فريضة إسلامية. ص ٦٧.

(٤) عمر: ص ١١٩.

(٥) عمر: ص ١١٨ ـ ١١٩.

أدرك الخلفاء العباسيون مدى الخطر الذي يحدق بدينهم وبدولتهم نتيجة انتشار أفكار ومبادىء الزندقة، فهبُّوا للقضاء على هذه الدعوة المنحرفة، وأوصى المنصور ابنه المهدي بمحاربتهم.

وفعلاً اهتم الخليفة المهدي بأمر الزنادقة، فتتَّبعهم في سائر الآفاق من خلال حملات منظمة. فاستحضرهم، وقتلهم صبراً[1]. وأنشأ ديواناً خاصاً بهم سماه «ديوان الزنادقة» عيّن عليه موظفاً خاصاً هو «صاحب الزنادقة»[2] كما أمر المتكلمين بتصنيف الكتب للرد عليهم ضمن مخطط فكري لكشف أساليبهم الفكرية[3].

وتظهر شدة المهدي، وحرصه، وصرامته في تعقبُّهم، واضحة في وصيته لابنه الهادي[4].

ومما لا شك فيه بأن المهدي كان مدفوعاً في ملاحقته للزنادقة بعاملين:

الأول: ديني، بفعل أن مبادئهم القائمة على الثنوية تبطل التكاليف الشرعية، وأن تأويلهم لنصوص القرآن والحديث يخالف المعنى الطبيعي، ومناف للأصول الاعتقادية، مما يشكل خطراً جدِّياً على العقيدة الإسلامية.

الثاني: سياسي، بفعل تطور العلاقات بين العباسيين وبين العناصر الفارسية المتطرفة واتجاهها نحو التأزم.

حركة المقنَّع[5]: ١٥٩ ـ ١٦١ هـ/ ٧٧٦ ـ ٧٧٨ م

استمرت الموجة الإلحادية ناشطة في عهد المهدي. فبعد الحركات التي قامت في وجه المنصور، ظهرت في عهد المهدي حركات أخرى لا تختلف أهدافها عن

---

(١) ابن كثير: جـ ١٠ ص ١٤٩.
(٢) الجهشياري: ص ١٦٥.
(٣) عمر: ص ١١٩ ـ ١٢٢.
(٤) راجع نص الوصية عند الطبري: جـ ٨ ص ٢٢٠.
(٥) وضع زعيم الحركة على وجهه قناعاً من ذهب ليخفي ملامح وجهه القبيحة، زاعماً للناس أنه وضعه ليحجب الذات الإلَهية التي تجسدت فيه عن عيونهم الدنسة. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٩٢.

سابقاتها، من بينها حركة المقنَّع الخراساني الذي خرج في ناحية مرو، فادّعىٰ الربوبية، وارتكزت حركته على الحلولية والتناسخ[١].

كان لحركة المقنع أهداف سياسية ودينية.

فمن الناحية السياسية، اتصلت هذه الحركة بشخصية الزعيم الفارسي أبو مسلم الخراساني، وهي استمرار لحركتي سنباذ والراوندية[٢]، كما اصطبغت بالصبغة العنصرية، هادفة إلى إقامة كيان فارسي على حساب الدولة العباسية. لهذا، أيّد أتباعُ أبي مسلم، المقنَّعَ، وانضوى المبيضة في بخارىٰ وصغد، تحت لوائه، وساهم كل ساخط على النظام العباسي، في حركته[٣].

ومن الناحية الدينية، تأثرت تعاليم المقنَّع بالمبادىء الخرمية. فأحيا تعاليم مزدك، وأبطل التكاليف الشرعية، وترافقت فكرة التناسخ، التي نادى بها، مع هدم أركان الدين الإسلامي.

تبع المقنع خلق كثير، خاصة في بخارىٰ والصغد، وانتشر أتباعه في نواحي كش ونسف. وأخذوا يغيرون على المناطق الآمنة، فتصدى لهم عدد من القادة العباسيين، من بينهم سعيد الحرشي، الذي تمكن من هزيمتهم والقضاء عليهم، أما المقنع فقد أحرق نفسه قبل القبض عليه[٤].

حركات مختلفة

وشهد عهد المهدي عدة حركات أخرى مناهضة للحكم العباسي، إلا أنها لم تترك أثراً، وقمعها الخليفة دون عناء، منها: حركة يوسف البرم في خراسان[٥]،

---

(١) اعتقد المقنع أن الله تعالى خلق آدم وتحول في صورته، وأن روح آدم تحولت إلى الأنبياء إلىٰ أن وصلت إلى أبي مسلم، ثم حلّت بالمقنع من بعده.
راجع: الشهرستاني: الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٤. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٥٢. ابن خلكان: جـ ٣ ص ٢٦٣.

(٢) العمرو: ص ٣٤٢.

(٣) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٥٢ ـ ٥٣. الدوري: ص ٩٣.

(٤) الطبري: جـ ٨ ص ١٣٥. ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٥٨.

(٥) الطبري: جـ ٨ ص ١٢٤.

وحركة عبد الله بن مروان بن محمد الأموي في بلاد الشام[1]، وحركة الخوارج بقيادة عبد السلام بن هشام اليشكري[2].

العلاقات الخارجية في عهد المهدي

العلاقة مع الأمويين في الأندلس

استمرت العلاقات السيئة بين الخلافة المشرقية في بغداد وبين الخلافة المغربية في الأندلس. والواقع أن المهدي سلك نهج والده المنصور في العمل على إعادة الأندلس إلى حظيرة الدولة العباسية، إلا أن بُعد المسافة بين الدولتين حال دون إرسال الجيوش العباسية من أجل تحقيق هذه الغاية، لكن المهدي كان يشجع كل حركة تهدف إلى إضعاف النفوذ الأموي في هذه البلاد.

وكانت تنتاب الأندلس، آنذاك، حركات مناهضة للحكم الأموي يقوم بها البربر أحياناً نتيجة تذبذب ولاءاتهم للعرب، واليمنية أحياناً أخرى، بفعل اعتماد الأمير الأموي على القيسية.

ففي عام (١٥٧ هـ/ ٧٧٤ م) تآمر والي برشلونة وجيرندة سليمان بن يقظان الكلبي المعروف بالأعرابي، وهو يمني الانتماء، مع حسين بن يحيى الأنصاري والي سرقسطة، على قتال عبد الرحمن وخلعه. وانضم إليهما عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي غلب عليه لقب الصقلبي، وكان والياً في بلاد المغرب، ولقي الجميع تشجيعاً وتأييداً من قبل المهدي.

ويبدو أن سليمان شعر بعجزه عن مواجهة الأمير الأموي، فطلب مساعدة من الخارج، واتخذت مؤامرته بُعداً سياسياً خطيراً حين اتصل بشارلمان الكارولنجي في بادربودن في عام (١٦٠ هـ/ ٧٧٧ م)، واتفق معه على أن يقوم بمهاجمة الولايات الشمالية للأندلس، وتعهد له بتسليمه المدن التي يحكمها؛ دون أن يقدر نتائج تعاونه مع الكفار على الإسلام والمسلمين، وقد وافقه حسين بن يحيى الأنصاري على هذه

---

(١) المصدر السابق: ص ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٤٢.

الخطوة. جرت هذه الاتصالات في الوقت الذي كان فيه الأمير الأموي منهمكاً في إخضاع ثورة أخرى للبربر بقيادة الفاطمي[١].

والواقع أن شارلمان رحَّب بالمشروع الذي عرض عليه بفعل دافعين:

الأول: أوروبي ـ مسيحي. فالحملة إذا تمت تُعتبر أول حملة هجومية يقوم بها الكارولنجيون ضد المسلمين بعد سلسلة من الحملات التي قام بها هؤلاء في عمق أراضي الفرنجة، بالإضافة إلى أنها ستكسبه نفوذاً أدبياً كبيراً في العالم المسيحي، ممَّا يعزز منافسته لأمبراطور الدولة البيزنطية، ويدعم جهوده السياسية في إعادة إحياء الأمبراطورية الرومانية الغربية، ثم السيطرة على أوروبا.

الثاني: كراهيته للإسلام والمسلمين. فقد راودته آمال وتطلعات لطردهم من أسبانيا، لا سيما وأن سيادتهم في جنوبي فرنسا قد ضعفت، أو على الأقل، حماية الحدود الجنوبية لمملكته من التهديد الإسلامي بتبني سياسة الهجوم من أجل الدفاع.

كانت الخطة المتفق عليها هي أن يعبر الملك الكارولنجي جبال البرينيه ويتجه إلى مدينة سرقطة فيسلمها له الأعرابي، وفي الوقت نفسه، يزحف عبد الرحمن الفهري من المغرب، ويهاجم الساحل الشرقي للأندلس وينزل بجيوشه في مرسيه. وبهذا يضربون الطوق على عبد الرحمن الداخل ويقضون عليه ثم يعلنون خضوع البلاد للحكم العباسي[٢].

وكان تفجر الثورة في الشمال الأسباني ضد الحكم الأموي إشارة البدء بالتنفيذ. فتحرك الفهري من المغرب ونزل بجيشه على ساحل مرسيه، إلا أن عبد الرحمن باغته وقضى عليه[٣] ولما اجتمعت الجيوش الكارولنجية أمام مدينة سرقسطة، حسب الخطة الموضوعة، استعاد المتآمرون صوابهم، وأدركوا فداحة الخطأ الذي وقعوا فيه، فرفض الأنصاري أن يمضي أكثر من ذلك في تنفيذ المؤامرة، فأغلق أبواب المدينة في وجه القوات الكارولنجية[٤].

---

(١) راجع حول حركة الفاطمي: عنان، محمد عبد الله. دولة الإسلام في الأندلس القسم الأول ص ١٦٤ ـ ١٦٧.

(٢) العبادي: ص ٣١٢.

(٣) أخبار مجموعة ص ١١٠ ـ ١١١.

(٤) بيضون: ص ٢١٠ ـ ٢١١.

بالإضافة إلى هذا التطور في المواقف السياسية فقد وصلت إلى مسامع شارلمان أخبار عن قيام السكسون بثورة أخرى في ألمانيا مستغلين الفراغ العسكري الذي أحدثه غيابه، فاضطر إلى التخلي عن مشروعه في الأندلس، وعاد إلى بلاده في عام (١٦٢ هـ/ ٧٧٩ م)[١].

وهكذا ساعدت الظروف، من جديد، الأمير عبد الرحمن الداخل، وفشل هذا الغزو الضخم الذي تعرضت له بلاده، كما فشل العباسيون في استعادة الأندلس أو إضعاف النفوذ الأموي فيه.

العلاقة مع البيزنطيين

اعتلى ليو الرابع عرش الأمبراطورية البيزنطية في العام نفسه الذي اعتلى فيه المهدي الخلافة، وكانت الدلائل تشير مع بداية حكمهما، إلى أن العلاقات الحسنة سوف يكتب لها النجاح. فقد أطلق الأمبراطور سراح كل المسجونين المسلمين، ورد الخليفة المهدي على هذه المبادرة بمثلها[٢].

لكن محاولات إحلال السلام، اصطدمت بطبيعة العلاقات بين الدولتين المتصارعتين التي غلب عليها الطابع الصدامي. وأتاح استقرار الأوضاع، نسبياً، داخل الأمبراطورية البيزنطية وعلى حدودها الخارجية، للأمبراطور، أن يعمل على زيادة عديد قواته لمواجهة غزوات المسلمين، كما احتفظ بالقادة المحنكين من ذوي الخبرة والكفاءة ممن عملوا تحت إمرة والده.

انتهز الأمبراطور هذه الظروف المؤاتية، وشَّن هجوماً على سميساط في عام (١٥٩ هـ/ ٧٧٦ م)، وأسر بعض المسلمين، إلا أن المهدي أرسل أحد مواليه فأنقذ المدينة[٣]. والواقع أن هذه الحملة تعكس معنى واضحاً من جانب ليو الرابع، وهو الاستمرار في انتهاج سياسة عدائية تجاه المسلمين.

أثارت الحملة على سميساط غضب الخليفة المهدي، وقرر الرد السريع.

---

(١) عنان: ص ١٧٥ ـ ١٧٦. دايفز، كارل: شارلمان: ص ١٠١.

(٢) Michel Le Syrienne: Chronique. III P 1

(٣) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٤٧.

فأرسل جيشاً ضخماً، بقيادة عمه العباس بن محمد، توغل داخل الأراضي البيزنطية حتى وصل إلى أنقره، وفتح قلعة كاسن في كبادوكيا[1].

تكمن أهمية هذه الحملة في أنها أثبتت حضوراً إسلامياً قوياً على الأرض مقابل الحضور البيزنطي، وتُعتبر دليلاً على قوة الخلافة، رغم متاعبها الداخلية في إخماد الحركات المعادية.

استمر النشاط الإسلامي والبيزنطي محدوداً بعد ذلك، حتى نشط في منتصف عام (١٦١ هـ/ ٧٧٨ م) حين أرسل الخليفة قائده المحنك ثمامة بن الوليد على رأس جيش إسلامي كبير، أغار على مرحب والمناطق المحيطة بدابق، شمالي حلب[2].

رد الأمبراطور على هذه الغارة، فأرسل جيشاً حاصر مرعش، وفصل قوة عسكرية اعترضت تقدم ثمامة باتجاه الحدث وسيطرت على عدة قرى في المنطقة. لكن الجيش البيزنطي، فشل في دخول مرعش، وفضَّل قادته رفع الحصار عنها والعودة إلى العاصمة[3].

عكست الحملة على مرعش مخاوف الخليفة الذي انتابه القلق من تزايد الخطر البيزنطي، فكان عليه أن يثبِّت وجوده، وفعلاً جهّز جيشاً ضخماً عهد بقيادته إلى الحسن بن قحطبة، وأمره بغزو بلاد البيزنطيين. توغل هذا القائد في الأناضول، وحاصر دوريليوم، وأغار على المناطق المجاورة، واقترب من عمورية، ثم جلا عن المنطقة بسبب قلة الإمدادات وتناقص المؤن، ولم تحقق حملته أهدافاً ذات قيمة، إنما أكدَّت حضوراً إسلامياً قوياً في المنطقة[4].

استأنف البيزنطيون نشاطهم العسكري في عام (١٦٢ هـ/ ٧٧٨ م) فأغاروا على

---

(١) تُعتبر هذه القلعة قاعدة تموين، وتضم مخازن للحبوب التي يحتاج إليها المسلمون كلما توغلوا في آسيا الصغرى. راجع: الطبري جـ ٨ ص ١١٦. الذي اكتفى بالإشارة إلى أن العباس فتح مدينة للروم ومطمورة معاً.
Ramsay, W.M: The Historical Geography of Asia Minor: P 356

(٢) البلاذري: ص ٢٦٧. ابن الأثير جـ٥ص ٦٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٦٧.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ٢ ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨. الطبري: جـ ٨ ص ١٤٢.

الحدث[1]، وجاء الرد الإسلامي في العام التالي حين غزا هارون بن المهدي الأراضي البيزنطية وفتح عدداً من الحصون أهمها سمالو[2]، ثم حدث أن واجهت بيزنطية في عام (١٦٤ هـ/ ٧٨١ م) صعوبتين أثرتا تأثيراً سلبياً على قدراتها:

الأولى: وفاة الأمبراطور ليو الرابع، واعتلاء زوجته إيرين عرش الأمبراطورية كوصية على ابنها القاصر قسطنطين، وقد نتج عن ذلك تململ بعض القادة[3].

الثانية: تعرضت بيزنطية، آنذاك، لثورة كبيرة في صقلية، فاضطرت إلى توزيع قواتها ما بين هذه الجزيرة والجبهة الشرقية مع المسلمين.

استغل الخليفة المهدي هذه الأوضاع القلقة، فأرسل حملة ضخمة إلى بلاد البيزنطيين بقيادة ابنه هارون وأمره بمهاجمة القسطنطينية. هاجمت الحملة أثناء توغلها المناطق الاستراتيجية في كيليكيا والأناضول بهدف السيطرة عليها. وحتى يموِّه هارون أهداف وجهة الحملة، أرسل قوة عسكرية هاجمت ثغر تراقيسيون[4]. وواصل الجيش الرئيسي زحفه نحو العاصمة متجاوزاً المقاومة التي اعترضت طريقه ومتغلباً عليها[5].

أدركت إيرين، بعد هذه التطورات العسكرية، هدف الحملة، فهبَّت للدفاع عن العاصمة، ونجحت قواتها في تطويق الجيش الإسلامي الذي أضحى أفراده في موقف حرج[6]. لكن هارون تمكَّن، بذكائه وبفضل مهارته القيادية، من الخروج من هذا المأزق، وتابع تقدمه حتى بلغ خليج القسطنطينية، وهدَّد العاصمة. ورأت إيرين نفسها في موقف صعب لا يتيح لها المساومة أو الاختيار، فخضعت مضطرة لشروط هارون وأهمها:

---

(١) الطبري: جـ ٨ ص ١٤٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٤٨. اليعقوبي: جـ ٢ ص٣٤٧. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٦٣.
Michel Le Syrienne: op. cit. III P 1

(٣) العريني، السيد الباز: الدولة البيزنطية ص ٢٢٢. Theophanes: op. cit. P 90
Diehl: Le Monde Oriental: P 279.

(٤) عبد الله، وديع فتحي: العلاقات السياسية بين بيزنطية والشرق الأدنى الإسلامي ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٥) المرجع نفسه.

(٦) المرجع نفسه: ص ٢١٧.

- تدفع إيرين للخلافة العباسية جزية سنوية تتراوح بين سبعين ألف وتسعين ألف دينار تسدد على دفعتين.
- يتم تبادل الأسرى بين الجانبين.
- تلتزم بيزنطية بفتح الأسواق للتجار المسلمين في رحلة العودة.
- تمدُّ بيزنطية الجيش الإسلامي بالمرشدين في طريق العودة.
- يسمح لأفراد الجيش الإسلامي بأن يحملوا معهم كافة الغنائم.
- يستمر الصلح مدة ثلاثة أعوام[١].

نتيجة لهذا الإنجاز، الذي حققَه هارون، جعلت أباه يلقبه بـ «الرشيد»[٢].

تعتبر هذه الحملة من أهم حملات الخليفة المهدي على الجبهة البيزنطية، كما كانت خاتمة الحملات العربية ـ الإسلامية على البوسفور.

استمرت الهدنة بين الطرفين حتى عام (١٦٨ هـ/ ٧٨٤ م) حين نقضها البيزنطيون بعد مرور اثنين وثلاثين شهراً، فاستؤنفت الغارات الإسلامية على الأراضي البيزنطية إلاّ أنها لم تحقق أي إنجاز يُذكر حتى كانت وفاة المهدي في العام التالي.

والواقع أن الخليفة المهدي حقَّق إنجازاً كبيراً في سياسة الجهاد، أكَّدت تحول كفة الصراع في عهده إلى جانب المسلمين.

الوزارة في عهد المهدي

ازدادت صورة الوزارة وضوحاً في عهد المهدي نتيجة منح الخليفة الوزراء سلطات واسعة، واعتماده عليهم بشكل شديد[٣]. لذا كان تعيين الوزراء، يتم، في

(١) تاريخ خليفة بن خياط: جـ ٢ ص ٤٧٠. وهو ينفرد بذكر عملية تبادل الأسرى.
الطبري: جـ ٨ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.
رستم، أسد: الروم في سياستهم وثقافتهم ودينهم: جـ ١ ص ٢٩٧.
Theophanes:p 920. Ramsay: p 159.

(٢) الطبري: جـ ٨ ص ١٥٤.

(٣) ابن الطقطقا: ص ١٨١.

عهده، وفقاً لكفاءتهم الإدارية والكتابية، وربما كان لدسائس الحاشية أثر في تعيين بعض الوزراء وعزلهم[1]، كما كان للوضع السياسي تأثيره المباشر في ذلك، ونذكر من وزراء المهدي:

ـ أبو عبيد الله، معاوية بن يسار، مولى الأشعريين، وكان كاتبه ونائبه قبل أن يلي الخلافة. وصرفه في عام (١٦٣ هـ/ ٧٨٠ م) نتيجة دسيسة الحاجب الربيع بن يونس[2].

ـ أبو عبد الله، يعقوب بن داوود، مولى بني سليم، استوزره بناء على دلالة الربيع بن يونس، وكان متشيعاً. وقد غلب على أمر الخليفة. ثم نكب به في عام (١٦٦ هـ/ ٧٨٣ م)[3].

ـ الفيض بن أبي صالح النيسابوري. اتصف بالكرم، والفضل، وسعة الحال، إلا أنه كان متجبراً، مترفعاً، وظل في منصبه حتى مات المهدي[4].

ولاية العهد ـ وفاة المهدي

خلع المهدي عيسى بن موسى من ولاية العهد، وعهد إلى ولديه موسى الهادي ثم هارون الرشيد على التوالي[5].

توفي المهدي لثمانٍ بقين من (شهر محرم عام ١٦٩ هـ/ شهر آب عام ٧٨٥ م) في قرية الروذ نتيجة اصطدامه بباب خربة أثناء ممارسة رياضة صيد الغزلان. وفي رواية أن إحدى جواريه، وضعت سمّاً في بعض المآكل لجارية أخرى، فأكل المهدي منه وهو لا يعلم، فمات[6].

---

(١) الصالح: مرجع سابق: ص ٢٩٨.
(٢) ابن الطقطقا: ص ١٨٢. الجهشياري: ص ١٤١.
(٣) الجهشياري: المصدر نفسه ص ١٥٥، ١٦٣.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٦٤. ابن الطقطقا: ص ١٨٧.
(٥) راجع تفاصيل أحداث ولاية العهد عند الطبري: جـ ٨ ص ١٢٤ ـ ١٢٨، ١٥٤.
(٦) المصدر نفسه: ص ١٦٨ ـ ١٧٠.

أبو محمد موسى الهادي

١٦٩ ـ ١٧٠ هـ/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦ م

التعريف بالهادي

هو موسى الهادي بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس. ولي الخلافة في (شهر محرم عام ١٦٩ هـ شهر آب عام ٧٨٥ م) وعمره خمسة وعشرون عاماً، ولم يلِ الخلافة من هو أصغر منه[١]، وأمه أم ولد تدعى الخيزران[٢].

ولاَّه أبوه العهد وهو في سن السادسة عشرة، كما ولاَّه قيادة الجيوش في المشرق. وقد فكَّر المهدي بتقديم ابنه هارون عليه بفعل إيثاره إياه، ومشاركة الخيزران له في محبته، لولا أن المنية عاجلته. وكان لبعض أركان الدولة، بعد وفاة الهادي، الاتجاه نفسه.

نشأ الهادي في محيط مترف، فظهر أثر ذلك في أخلاقه وتصرفاته.

كان قوي البنية، يثب على الدابة وعليه درعان. وكان والده يدعوه «ريحانتي»[٣]. اتصف بالشهامة، والخبرة المكتسبة بشؤون الملك، وبالكرم، لكن كان فيه غلظة، وشراسة، وغيرة من أمه وأخيه، كثير الميل للأدب والتاريخ، فحصَّل فيهما ثقافة واسعة، وعرف عنه حبه للغناء، فقرَّب إبراهيم الموصللي، المغني العراقي المشهور، وابنه إسحاق[٤].

الأوضاع الداخلية في عهد الهادي

العلاقة مع الطالبيين

لم تستمر السياسة السلمية التي انتهجها المهدي مع الطالبيين طويلاً، إذ انتهت

---

(١) ابن كثير: جـ ١٠ ص ١٥٩.
(٢) المصدر نفسه: جـ ١٠ ص ١٥٩.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) الجهشياري: ص ١٧٢. الأصفهاني: كتاب الأغاني: جـ ٥ ص ٦. ابن كثير المصدر نفسه.

بوفاته. فقد شدَّد الهادي على الطالبيين وقسا عليهم، فقطع الصلات والأرزاق عنهم، وراح يتجسس عليهم، وأمر ولاته بمراقبة تحركاتهم والتضييق عليهم[1].

ويبدو أن الخليفة خشي من خروجهم على حكمه، كما كان لطباعه ونفسيته تأثير في بلورة سياسته العدائية تجاههم، فأضحى الطالبيون في الحجاز في وضع سيء، فاتجهوا إلى كبيرهم وشيخهم الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[2]، وحثُّوه على الخروج للخلاص مما هم فيه من الشدة والرعب.

وصادف أن قدم إلى المدينة عدد كبير من شيعة العراق لحضور موسم الحج، فاتصل الحسين بهم، وعرض عليهم وضع الطالبيين المتردي، فبايعوه، وواعدوه أن يكون موعد الخروج موسم الحج القادم، واتفقوا أن يكون شعارهم «من رأى الجمل الأحمر»[3].

ويبدو أن الأحداث سارت سريعة، بعد ذلك، مما دعا الزعماء الطالبيين إلى التعجيل بالخروج. واقتنع الحسين بن علي بضرورة تقديم الموعد، بعدما شعر بتزايد الخطر على الجماعة الطالبية. وأعلن موعد الخروج في فجر يوم (الثالث عشر من شهر ذي العقدة عام ١٦٩ هـ/ الخامس عشر من شهر أيار ٧٨٦ م)، فاستولى على المدينة واتخذ من المسجد النبوي قاعدة انطلاق فبايعه بعض أهلها، في حين لم يجد تجاوباً عند أكثرهم[4]، ويبدو أن هؤلاء خشوا بطش السلطة بفعل صلابة الخليفة، كما أزعجتهم تدابير الحسين كجعله الحرم النبوي الآمن قاعدة انطلاق، ومركزاً يحتمي به، وهذا لا يتفق مع عواطفهم وتعظيمهم لمسجد الرسول وتقديسهم له[5].

أقام الحسين مدة أحد عشر يوماً بعد خروجه، ثم قصد مكة ليستولي عليها، وعسكر في وادي فخ، وهو أحد ضواحيها[6]، لكن المكيين لم يتجاوبوا مع دعوته.

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٢) كان الحسين يتطلع إلى الخلافة، واعتبر أن العباسيين اغتصبوها من الطالبيين.

(٣) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٤٩.

(٤) المصدر نفسه. الطبري: جـ ٨ ص ١٩٥. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٧٥. المسند: ص ٢٠٢.

(٥) الطبري: المصدر نفسه. المسند: المرجع نفسه.

(٦) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين. ص ٣٦٦.

في هذا الوقت، وصل إلى المنطقة جيش عباسي، هاجم معسكره في فخ في الثامن من شهر ذي الحجة، وقضى على الحسين وأتباعه، وسمي الحسين بـ «قتيل فخ» أو «صاحب فخ»[1].

وتلاشت آمال الشيعة الذين وضعوا كل تطلعاتهم في هذه الحركة. وتفرق من نجا منهم في الأمصار مستخفين، كان من بينهم إدريس ويحيى ابنا عبد الله بن الحسن، فذهب الأول إلى المغرب وأسس دولة الأدارسة، في حين ذهب الثاني إلى بلاد الديلم في المشرق.

التنكيل بالزنادقة

ورث الهادي عن أبيه كراهيته للزنادقة، واقتدى بسياسته في تتبعهم والتنكيل بهم، فقتل منهم جماعة من بينهم يزدان بن باذان وعلي بن يقطين الذي روي عنه أثناء حجه أنه نظر إلى الناس يهرولون في الطواف فقال: «ما أشبههم إلا ببقر تدوس البيدر»[2].

ولاية العهد ـ وفاة الهادي

عزم الهادي على خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد، والبيعة لابنه جعفر، وكان لا يزال طفلاً، فحاول إقناعه حتى يخلع نفسه، وكاد أن يفعل لولا أن ثبته يحيى بن خالد البرمكي[3]، عندئذ لجأ الهادي إلى استعمال أسلوب الشدة والمضايقة مما دفع هارون إلى الابتعاد عن العاصمة هرباً، وظل بعيداً عنها حتى توفي الهادي، وبويع له[4].

لم تطل خلافة الهادي، فقد توفي في بغداد لاثنتي عشرة ليلة بقيت من (شهر ربيع

---

(١) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين. ص ٣٦٦.
(٢) الطبري: ج ٨ ص ١٩٠.
(٣) الجهشياري: ص ١٦٩ ـ ١٧٠.
(٤) المصدر نفسه.

الأول عام ١٧٠ هـ/ شهر أيلول عام ٧٨٦ م)، بعد أن حكم عاماً وشهرين واثنين وعشرين يوماً. والراجح أنه كان يشكو من قرحة في معدته، لكن ما وقع داخل الأسرة من خلافات، حملت بعض المؤرخين على القول بأنه مات خنقاً وهو نائم من قِبَل جواري أمه وبإيعاز منها[1].

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٥١. الجهشياري: ص ١٧٤. الطبري: جـ ٨ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

أبو جعفر هارون الرشيد

١٧٠ ـ ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩ م

التعريف بالرشيد[١]

هو هارون الرشيد، أمير المؤمنين، ابن المهدي، القرشي الهاشمي أبو جعفر وأمه الخيزران، أم ولد. بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي في (شهر ربيع الأول عام ١٧٠ هـ/ شهر أيلول عام ٧٨٦ م) بعهد من أبيه المهدي وعمره خمسة وعشرين عاماً.

ظهرت عليه ملامح النجابة والذكاء منذ صغره، ولما أصبح شاباً همَّ والده أن يرشحه للخلافة من بعده مباشرة، وشجعته الخيزران على ذلك لأنها كانت تؤثره على أخيه الهادي.

يُعتبر الرشيد من أوسع الخلفاء العباسيين شهرة، وقد تجاوزت شهرته الشرق، ووصلت إلى الغرب حيث تناولها المجتمع الغربي بالتحليل والدراسة، وحاول بعض ملوك أوروبا التقرب منه، واكتساب مودته.

لقد امتزجت في أخباره حقائق التاريخ بخيال القصص، واتصف بمجموعة من الصفات الشديدة الاختلاف، والتي قلَّما تجتمع في شخص واحد. فهو سياسي بارع فيه حزم المنصور وعنفه وأساليبه مع مرونة واضحة وسخاء بالمال لاصطفاء الناس، شديد الاهتمام بشؤون الرعية، يطوف في الأسواق، ويغشى المجالس، متنكراً، ليقف على أحوال الناس، شديد الاحساس حاد المزاج، سريع التأثر، يثور غضباً ويفرط في الانتقام، وقد ترق عواطفه فيبكي، ويظهر رحمة متناهية، وعطفاً كبيراً.

---

(١) راجع فيما يتعلق بشخصية هارون الرشيد: الطبري: جـ٨ ص ٣٤٧ ـ ٣٥٩. ابن كثير: جـ ١٠ ص ٢١٣ ـ ٢٢٢.

كان الرشيد متديناً، ورعاً، محافظاً على التكاليف الشرعية، متمسكاً بنصوص الكتاب والسنة، كان يحج إن لم يغزُ، فهو بين حج وغزو طيلة حياته، يصلي في اليوم مائة ركعة، وحج ماشياً، ولم يحج ماشياً خليفة غيره، ولم يهمل الحياة العائلية.

يحب الشعر والأدب والفقه، قرَّب الشعراء والمغنين والأدباء والفقهاء وأكرمهم، وشجع حركة التعريب، ويبدو أنه كان ذا ملكة شعرية وأدبية، يكره المراء في الدين، واتسمت جلساته الليلية بالمناقشات الفكرية الرفيعة.

والواقع أن هذه الصور المتباينة للرشيد كانت انعكاساً للعصر الذي عاش فيه، ولتربيته التي تربى عليها، ولطبيعته النفسية.

فقد كان عصره، عصر بذخ وإمعان في الحضارة بما توفر من موارد وأموال وتقدم علمي وفلسفي. وتربى في بيئة مترفة، ونشأ نشأة جهادية وقيادية.

يُعتبر عصر هارون الرشيد، العصر الذهبي لدولة الخلافة العباسية. فقد بلغت في عهده درجة لم تصل إليها من قبل، فأصبحت مركز التجارة العالمية، وكعبة رجال العلم والأدب. أما شخصيته فتمثل تاريخ عصر أكثر مما تمثل تاريخ إنسان.

الأوضاع الداخلية في عهد الرشيد

العلاقة مع الطالبيين

أراد الرشيد، في مستهل حكمه، أن يستميل الطالبيين عن طريق الرفق بهم بعد سياسة الهادي العنيفة تجاههم، فمال إلى التساهل، والتعاطف معهم، وبذل لهم الأمان، ورفع الحجر عمن كان منهم في بغداد، وأعادهم إلى المدينة، باستثناء العباس بن الحسن بن عبد الله، وعزل والي المدينة الذي اضطهدهم[(١)].

لكن الطالبيين لم يعدِّلوا اعتقادهم الراسخ بأحقيتهم بالخلافة ولم يتوقفوا عن النضال في سبيل الوصول إليها. ومن أجل ذلك، لم يدم الصفاء بين الجانبين العباسي والعلوي، وعاد الصراع عنيفاً بينهما.

---

(١) الطبري: جـ ٨ ص ٢٣٥.

كانت موقعة فخ بعيدة الأثر، فقد نجا منها اثنان من زعماء الطالبيين هما إدريس بن عبد الله بن الحسن وقد ذهب إلى إفريقية، وأخوه يحيى الذي يمَّم وجهه شطر بلاد الديلم في المشرق.

أما إدريس فقد استقر في إقليم طنجة بالمغرب الأقصى، وحظي بالتفاف البربر حوله، وأقام لنفسه دولة مستقلة هي دولة الأدارسة. وهي أول دولة طالبية تنفصل عن جسم الخلافة العباسية.

هدَّدت هذه الدولة النفوذ العباسي في شمالي إفريقية، لذلك قرَّر الرشيد القضاء عليها. إنما تردَّد في إرسال جيش بفعل بُعد المسافة، وخشيته من امتداد نفوذ إدريس إلى مصر وبلاد الشام إن هو تغَلب على الجيش العباسي، وبالتالي القضاء على دولة الخلافة العباسية[1].

فلجأ عندئذ، إلى الحيلة ليتخلص من إدريس، ووقع اختياره على رجل مشهور بالدهاء هو سليمان بن جرير المعروف بالشماخ، فاستخدمه لاغتياله، وفعلاً تمكّن، هذا الرجل، من قتل إدريس بالسم في عام (١٧٧ هـ/ ٧٩٣ م)[2].

ويبدو أن موته لم يقضِ على دولة الأدارسة، فقد كان متزوجاً من أمة بربرية حملت منه، فانتظر أتباعه حتى وضعت، وكان مولوداً ذكراً، فأسموه إدريس. ولما بلغ الحادية عشرة من عمره ولاّه البربر أمورهم وبايعوه بالخلافة. وأضحى المؤسس الحقيقي لدولة الأدارسة في المغرب.

ولما ازداد خطر هذه الدولة، أقطع الرشيد إبراهيم بن الأغلب ولاية إفريقية ليقف في وجهها[3].

وأما يحيى، فقد اشتدت شوكته في بلاد الديلم، وقوي أمره بما التفَّ حوله من الأتباع، ثم أعلن خروجه في عام (١٧٦ هـ/ ٧٩٢ م) فهدَّد سلامة الدولة، وأقلق بال الرشيد[4]. ومما أعطى حركته قوة، بُعد المنطقة التي خرج فيها عن بغداد، ومناعتها الطبيعية.

---

(١) المسند: ص ٢٠٧.
(٢) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين: ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨.
(٣) المصدر نفسه: ص ٤٠٩.
(٤) الطبري: جـ ٨ ص ٢٤٢.

واستقر رأي الخليفة على القضاء على حركة يحيى، فندب الفضل بن يحيى البرمكي لهذه الغاية، الذي نجح في استمالته بعد أن حشره إثر انفضاض أتباعه من حوله، فمال إلى الصلح. وكتب له الرشيد أماناً، واستقبله في بغداد[(١)].

ويبدو أن الخليفة لم يطمئن إلى نوايا يحيى، وأدَّت الحاشية دوراً في إفساد العلاقة بينهما، فوضعه تحت رقابة الفضل بن يحيى. وقد أثَّر يحيى عليه حتى أطلقه بدون علم الخليفة وذهب إلى الحجاز. ثم نُميَ إلى الرشيد أن يحيى يدعو إلى نفسه في الحجاز، فوافق ذلك ما كان في نفسه، فقبض عليه وسجنه ثم قتله[(٢)].

أما الشخصية الأخرى التي قضت في عهد الرشيد، فهو الإمام موسى الكاظم بن جعفر. والواقع أن الرشيد كان يراقب تحركات الطالبيين في الحجاز، وقد علم بالتفاف الناس حوله، وأنهم يحملون إليه خمس أموالهم، وهذا يعني أنهم يعتقدون بإمامته. فقبض عليه وسجنه، وتوفي في عام (١٨٣ هـ/ ٧٩٩ م)، والراجح أنه قتل[(٣)].

حركة الخوارج

لم يكن الاضطراب الذي ساد بعض أجزاء دولة الخلافة العباسية ناشئاً عن حركات الطالبيين وحدهم، بل وُجد فريق من المسلمين أنكر على الخلفاء العباسيين استبدادهم وخروجهم على الأحكام الشرعية، وهؤلاء هم الخوارج الذين نشطوا في عهد الرشيد في منطقة الجزيرة اعتباراً من عام (١٧٨ هـ/ ٧٩٤ م) بقيادة طريف الشاري وبسطوا هيمنة فعلية على أرمينيا وأذربيجان وهدَّدوا السواد في العراق على نهر ديالى، ووصلوا إلى حلوان.

اهتم الرشيد بأمر هذه الجماعة، فأرسل قوة عسكرية في عام (١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م) بقيادة يزيد بن مزيد الشيباني اصطدمت بها في حديثة الفرات على بعد فراسخ من الأنبار، وقضت عليها وعلى زعيمها[(٤)].

---

(١) الأصفهاني: ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٩٥، ٤٠١ ـ ٤٠٤.
(٣) المصدر نفسه: ص ٤١٣ ـ ٤١٧.
(٤) الطبري: جـ ٨ ص ٢٥٦. راجع فيما يتعلق بحديثة الفرات: الحموي، ياقوت، معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

الاضطرابات في بلاد الشام

لم يخمد التطاحن القبلي بين مراكز القوى في بلاد الشام. وقد حدث في عام (١٧٦ هـ/ ٧٩٢ م) أن انفجرت الأوضاع في دمشق واستمرت زهاء عامين، مما دفع الرشيد إلى إحداث تغييرات إدارية تناولت الولاة. لكن الأمر لم يستتب إلا على يد كل من موسى بن يحيى بن خالد في عام (١٧٨ هـ/ ٧٩٤ م) وجعفر بن خالد في عام (١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م) بعد تجدُّد الاشتباكات[١].

الاضطرابات في إفريقية

سادت الاضطرابات في إفريقية اعتباراً من عام (١٧١ هـ/ ٧٨٧ م) بفعل خروج الخوارج وقادة الجند والبربر، فأرسل الرشيد هرثمة بن أعين والياً على إفريقية وأمره بقمع الانتفاضات وتوطيد الأمن، فنجح في مهمته ودخل القيروان وأمَّن الناس.

ويبدو أن الخلافات بين الفئات الإسلامية المتعددة كانت واسعة فتجدَّدت القلاقل، ولم يتمكن هرثمة من رأب الصدع، فعزله الخليفة بناء على طلبه في عام (١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م) كما لم يتمكن الولاة الذين جاءوا من بعده من السيطرة على الموقف، فاستغل إبراهيم بن الأغلب، عامل إقليم الزاب، في الجزائر اليوم، هذه الأوضاع القلقة، وطلب من الخليفة توليته على إفريقية، ووعده بتهدئة الوضع. استجاب الخليفة لطلب عامله، وعهد إليه بالولاية على إفريقية في (شهر جُمادىٰ الآخرة عام ١٨٤ هـ شهر تموز عام ٨٠٠ م)[٢]. ونجح إبراهيم في تحقيق الاستقرار متبعاً في ذلك سياسة معتدلة، وازدهرت إفريقية في عهده وشهدت حركة عمرانية واسعة ونشاطاً اقتصادياً كبيراً. وقد مهّد إبراهيم هذا لقيام دولة الأغالبة التي ما لبثت أن استقلت عن الإدارة المركزية في بغداد، واتخذت القيروان حاضرة لها[٣].

الاضطرابات في المشرق

أطلق الرشيد أيدي عماله على الأقاليم، ولم يتهمهم في تصرفاتهم. فاشتط

---

(١) الطبري: جـ ٨ ص ٢٥١، ٢٦٢. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٩١ ـ ٩٢.

(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٥٨. ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ١٠٩.

(٣) الطبري: جـ ٨ ص ٣١٤. الدوري: ص ١٠٨.

بعضهم، وكانوا سبباً في قيام الانتفاضات الشعبية. وقد ظهر أثر ذلك في خراسان، بشكل خاص. فقد اهتم ولاة هذا الإقليم بمصالحهم الشخصية، وتطلعوا إلى الإثراء، وأهملوا شؤون الرعية، حتى إن بعضهم زاد الضرائب تعسفاً.

ولعل أكثر الولاة جشعاً هو علي بن عيسى بن ماهان الذي حكم خراسان مدة عشرة أعوام، تميزت بالظلم الذي وقع على الناس، حتى لم يعد باستطاعتهم احتمال المزيد[1].

وحصل في تلك الظروف، أن خرج رافع بن الليث بن نصر بن سيار على الحكومة المركزية، بسبب دوافع شخصية على الأغلب، وتبعه كثير من سكان خراسان وبلاد ما وراء النهر بسبب كراهيتهم لسياسة العباسيين، وكتب إليه أهل نسف بأن يوجه إليهم من يعينهم على الوالي العباسي[2].

نتيجة قيام هذه الحركة المعادية، اضطر الوالي علي بن عيسى أن يدافع عن حكمه، إلا أنه فشل في قمع الانتفاضة، وانكشف أمره أمام الرشيد الذي عزله، وصادر أمواله، وعين هرثمة بن أعين مكانه، وأمره بإنصاف السكان ومعاملتهم بالحسنى[3]

ويبدو أن رافعاً استغلَّ هذه الأوضاع القلقة، وجدَّد حركته المعادية للحكم العباسي، فاضطر الرشيد أن يخرج بنفسه إلى خراسان لوضع حد للاضطرابات فيها، إلا أن المنية وافته وهو في الطريق[4].

نكبة البرامكة

ظلت فكرة الثأر لمقتل أبي مسلم، وتحقيق تطلعاته السياسية، كامنة في نفوس أتباعه الخراسانيين. وأخذت هذه الفكرة منهجاً جديداً، مع مرور الزمن، يقضي بالسيطرة على دولة الخلافة العباسية من الداخل، بعد فشل محاولات النيل منها من الخارج. وقد قام عدد من الوزراء العباسيين من أسر فارسية بتحقيق ذلك كان من

---

(١) الطبري: جـ ٨ ص ٣١٤. الدوري: ص ١٠٨.
(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٨٦. الطبري: المصدر نفسه ص ٣١٥ ـ ٣١٩ ـ ٣٢٠، ٣٢٣.
(٣) الطبري: المصدر نفسه: ص ٣٢٤ ـ ٣٤٤.
(٤) المصدر نفسه: ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

أشهرها أسرة البرامكة وأسرة آل سهل والأسرة الطاهرية[١].

تنتسب أسرة البرامكة الفارسية العريقة إلى جدها برمك، وهو لقب أطلق على سادن معبد النوبهار في مدينة بلخ[٢].

وبرز من هذه الأسرة، في أوائل عهد دولة الخلافة العباسية، خالد بن برمك من خلال مقدرته الإدارية والمالية، ورجاحة عقله، وبُعد نظره، فلفت إليه أنظار المسؤولين العباسيين. فقلَّده السفاح ديوان الخراج وديوان الجند[٣]، كما تولى وزارة التنفيذ بعد مصرع أبي سلمة الخلاّل، وعمل مستشاراً للمنصور ومشرفاً على الشؤون المالية ولمع اسمه في بناء مدينة بغداد[٤]، وهو بحكم منصبه، اشترك في صنع القرارات السياسية، وظلت له مكانته في عهد المهدي الذي ولاّه مقاطعة فارس في عام (١٦٣ هـ/ ٧٨٠ م)[٥].

أنجب خالد رجلاً يُعتبر واسطة عقد الأسرة البرمكية هو يحيى، وقد ارتبط تاريخه بتاريخ هارون الرشيد. تولى الكتابة له، والنيابة عنه ووزارته[٦]. وقد أدَّى دوراً بارزاً في تأمين ولاية العهد له في مواجهة الضغوط الكبيرة التي مارسها المهدي بهدف تنحيته وتولية ابنه جعفر بدلاً منه.

والراجح أن يحيى ورث عن أبيه تطلعاته السياسية التي كانت ستتلاشى إذا أُبعد هارون عن ولاية العهد. ولما بويع الرشيد بالخلافة حفظ ليحيى فضله، فقلَّده وزارة التفويض، ومنحه سلطات مطلقة[٧]، فكانت الدواوين كلها بيده، واجتمعت له الوزارتان[٨] كما خصَّه بامتيازات جديدة. فهو أوّل من أمَّر الوزراء، وكانت الكتب التي

---

(١) العمرو: ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٢) المقدسي: البدء والتاريخ. جـ ٦ ص ١٠٤. بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية: ص ١٨٦.

(٣) الجهشياري: ص ٨٧ ـ ٨٩.

(٤) بروكلمان: ص ١٨٦.

(٥) الجهشياري: ص ١٥١.

(٦) راجع عن منزلة يحيى عند الرشيد: المصدر نفسه: ص ١٧٧.

(٧) راجع نص التفويض عند الجهشياري: ص ١٧٧.

(٨) المصدر نفسه. الطبري: جـ ٨ ص ٢٣٥.

تنفذ من ديوان الخراج تؤرخ باسمه، ولم تكن تنفذ إلا عن الخليفة[١].

واستطاع يحيى بمساعدة ولديه الفضل وجعفر، إدارة دولة الخلافة العباسية مدة سبعة عشر عاماً (١٧٠ ـ ١٨٧ هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٣ م) محققاً بذلك نظرية المشاركة الكاملة في الحكم. وتعتبر هذه الفترة بحق، فترة تألق البرامكة وعصرهم الذهبي.

أما الفضل، فهو أخو الخليفة بالرضاعة، عهد إليه الرشيد بالإشراف على تربية ابنه الأمين، وولاّه عدة مناصب إدارية وقيادية، خاصة في المشرق حيث حقّق نهضة اقتصادية وعمرانية، ووطّد الأمن[٢].

وأما جعفر، فقد اختص بمنادمة الرشيد وخدمته لسهولة طباعه[٣] فكان يلازمه في ليله ونهاره. فهو أكثر البرامكة اتصالاً به، وكان يسميه أخاه ويدخله معه في ثوب واحد[٤]. ونتيجة لهذه الإلفة، وصل تأثير جعفر على الرشيد حداً بعيداً حتى غلب على خصوصياته، فأشركه معه في المظالم، وقلّده مراقبة دور الضرب والطراز والبريد[٥] كما أمر بكتابة اسمه على الدراهم والدنانير بمدينة السلام وبالمحمدية وأسند إليه ولاية المغرب من الأنبار إلى إفريقية، بالإضافة إلى خراسان وسجستان وطبرستان وأرمينيا وأذربيجان[٦] وطبيعي أنه من موقعه هذا كان يوحي للرشيد بانتهاج سياسات معينة[٧].

وبرز في صفوف البرامكة، محمد بن خالد بن برمك الذي تولى حجابة الرشيد، وموسى بن يحيى بن خالد الذي ولي الشام[٨].

ويبدو أن هذا التوزيع في المناصب الكبرى في الدولة، لم يكن عفوياً. والراجح أن البرامكة هدفوا إحاطة الرشيد كي يتحكموا به أو يتحرك من خلالهم، كما نلاحظ أن

---

(١) الجهشياري المصدر نفسه ص ١٧٨.
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٩ ـ ١٩١، ١٩٣.
(٣) ابن الطقطقا: ص ٢٠٥.
(٤) الجهشياري: ص ٢٠٤.
(٥) كانت توليته على دور الضرب بدعة جديدة وامتيازاً عجيباً، بفعل أن الخلفاء من قبله كانوا يتولون بأنفسهم النظر في عيار الدراهم والدنانير.
(٦) المقريزي: شذور العقود في ذكر النقود. ص ١١، ٢١. الطبري: جـ ٨ ص ٢٤٢، ٢٥٢.
(٧) العمرو: ص ٢١٨.
(٨) الجهشياري: ص ١٨٧. الطبري: جـ ٨ ص ٢٥١.

معظم الرجال البارزين في الدولة كانوا من صنائعهم وأتباعهم، لدرجة أن الرشيد وجد صعوبة كبرى في العثور على رجال ممن لم تكن لهم صلة بهم ليتولوا بعض شؤون الدولة[1].

تميز الوجود السياسي للبرامكة بثلاث مميزات[2] هي:

أولاً: لقد عَمَّرت هذه الأسرة طويلاً بالمقارنة مع الوجود السياسي لمن سبقهم أو عاصرهم، مثل أبو مسلم الخراساني.

ثانياً: التطور السياسي لهذه الأسرة الذي يبدو أنه مدروس ومخطط له. فهو يبدأ بدور عادي في الحركة العباسية، ويتطور إلى تولي بعض المناصب في الدولة، ثم تتغلغل الأسرة في صميم البيت العباسي بمعنى أن هذا التطور بدأ تصاعدياً من مجرد أداة منفذة إلى التدخل في رسم سياسة الدولة.

ثالثاً: الاستمرارية في العلاقات الجيدة مع الخلفاء، باستثناء فترات قصيرة تعرضت فيها الأسرة لبعض المضايقات[3].

بلغ أوج هذه الأسرة في حياة الخيزران، والدة الرشيد، فلما توفيت في عام (١٧٣ هـ/ ٧٨٩ م) بدأت ثقة الخليفة بأفرادها تهتز حتى نكَّل بهم.

اختلف المؤرخون في تحديد أسباب نكبة البرامكة، ويبدو أن هذا الاختلاف ناتج عن تحديد الدور الذي أدَّاه هؤلاء، حيث تعصب الرواة لهم أو عليهم، بالإضافة إلى تكتم الرشيد حول هذه الأسباب.

والراجح أن هذه الأسباب تعود إلى دافعين رئيسيين، سياسي ومالي[4].

فمن حيث الدافع السياسي، فقد اتضح للرشيد، بعد مضي بضع سنين على ظهورهم، أن البرامكة أضحوا يشكلون خطراً فعلياً على دولته، وقد كوَّن هذا الانطباع بفعل عدة عوامل لعل أبرزها ميلهم إلى الطالبيين وميولهم العنصرية[5].

---

(١) الجهشياري: المصدر نفسه: ص ٢٥٤.

(٢) العمرو: ص ٢١٣.

(٣) راجع فيما يتعلق بفتور العلاقات بين العباسيين والبرامكة: الطبري جـ ٨ ص ٥٤ ـ ٥٦.

(٤) الدوري: ص ١٣٠ وما بعدها.

(٥) العمرو: ص ٢٣٦ وما بعدها.

لقد أظهر البرامكة ميولاً سياسية نحو الطالبيين، ويرتبط تاريخهم بتعاطفهم مع يحيى بن عبد الله العلوي، وأحمد بن عيسى بن زيد[1] ويتعارض ذلك مع العلاقات العدائية بين العباسيين والطالبيين.

أما فيما يتعلق بميولهم العنصرية الفارسية[2] فيبدو أن الأمر غير واضح تماماً بفعل قلة المادة التاريخية، لكن شدة حساسية الرشيد تجاه تصرفات البرامكة، واستئثارهم بالأمر دونه، قد ضخمت عنده هذا الأمر. فكان الجو العام أقرب إلى الاتهام حتى في دقائق الأمور، لكن لا يخفى أن العناصر الفارسية في المجتمع العباسي، كانت متهمة دائماً في ولائها.

ومن حيث الدافع المالي[3]، فقد استبدَّ البرامكة بمالية الدولة، وتحكَّموا بالأمور كلها حتى قيل إن الرشيد «يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه»[4] في الوقت الذي كان البرامكة يسرفون في النفقات، وقد قيدوا الخليفة في هذا التصرف المالي، كما كبلّوه في تصرفه السياسي.

يضاف إلى ذلك، أنّ الوشاية قد أدّت دوراً آخر في التأثير على الرشيد للإيقاع بهم، إذ حاول خصومهم انتهاز كل فرصة لإيغار صدره عليهم، وإثارة شكوكه في تصرفاتهم[5].

ومهما يكن من أمر، فقد قتل الرشيد جعفراً في الليلة الأولى من شهر صفر في عام (١٨٧ هـ/ ٨٠٣ م) وسجن يحيى وبقية أبنائه، وصادر ممتلكاتهم وأموالهم، وتوفي يحيى في عام (١٩٠ هـ/ ٨٠٥ م) والفضل في عام (١٩٣ هـ/ ٨٠٨ م)[6].

هكذا كانت نهاية البرامكة، وهي رمز للتضارب بين سلطة الوزراء، وبين سلطة

---

(١) راجع عن هذه العلاقة: الجهشياري: ص ٢٤٣. الطبري: جـ ٨ ص ٢٨٩.
(٢) العمرو: ص ٢٣٨ ـ ٢٤٠.
(٣) الدوري: ص ١٣١ ـ ١٣٣.
(٤) الجهشياري: ص ٢٤٦. الطبري: جـ ٨ ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨. محمود والشريف: ص ١٠٩.
(٥) المصدران نفساهما: ص ٢٤٥ ـ ٢٦١. ص ٢٩٤.
(٦) الطبري: المصدر السابق: ص ٣٤١. ابن كثير: جـ ١٠ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

الخلفاء، كما أنها دليل على التباين بين مصلحة هؤلاء وميول أولئك[1]، وتشكل العلاقة بينهم وبين الرشيد أحد فصول العلاقات بين العباسيين والعناصر الفارسية التي حكمتها تطلعاتها السياسية[2].

العلاقات الخارجية في عهد الرشيد

العلاقة مع البيزنطيين

استمر الصراع بين المسلمين والبيزنطيين في عهد الرشيد، إلا أن الحروب بينهما لم تسر وفق خطة معينة بهدف فتح منظم أو استقرار دائم، بل كانت غزوات انتهت دون أن تغيِّر من أوضاع الجانبين. وكان الخليفة يكتفي بأخذ الجزية. إلا أن الصدامات أظهرت تفوق المسلمين العسكري، وقصر نظرهم في عدم استغلال الأوضاع الداخلية الحرجة التي كانت تمر بها الأمبراطورية البيزنطية، لتثبيت أقدامهم في المناطق المفتوحة والاستقرار فيها، وإن أضفت بهاء خاصاً على عصره[3].

وجَّه الرشيد اهتمامه، فور اعتلائه منصب الخلافة، إلى تحصين المناطق الحدودية المتاخمة لبلاد البيزنطيين، وتقوية الجيش العباسي المرابط فيها. وقد حرص على الجمع بين سياستين متوازيتين، هجومية ودفاعية. فإلى جانب النشاط الهجومي ضد الأراضي البيزنطية، فإنه حرص على تدعيم الدفاعات عن المناطق الإسلامية المعرَّضة لغارات البيزنطيين. فأنشأ مناطق على الحدود داخل وحدات إدارية تتمتع بحرية ذاتية في تسيير شؤونها، وفصلها عن مناطق الثغور الجزرية والشامية[4]. ووضع لمنطقة الحدود نظامين:

الأول: النظام الأمامي، ويضم ثغور الجزيرة والشام، التي خُصِّصت لمواجهة الممرات الجبلية. فدعَّمها بالحصون، وزوَّدها بالحاميات.

الثاني: النظام الخلفي، ويضم الأقاليم الخلفية والحصون الجنوبية وسماها

---

(١) الدوري: ص ١٣٦.

(٢) العمرو: ص ٢٥٨.

(٣) الدوري: ص ١١٣.

(٤) عبد الله: ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

العواصم[1]. وتمتد من إنطاكية إلى الفرات[2]. وكانت منبج عاصمة للعواصم ثم أصبحت إنطاكية فيما بعد، واختار الرشيد ابنه القاسم أميراً عليها[3]. أما مهمتها فهي مساندة مناطق الثغور، وإمدادها بالعتاد والرجال والمؤن، لذلك جهزّها بالحاميات الدائمة والمؤن والأعتدة الخاصة بضرورات الدفاع والمساندة.

وأنشأ البيزنطيون من جانبهم خطاً دفاعياً لمواجهة الثغور الإسلامية، وضعوه تحت إشراف كبار القادة العسكريين، ويضم سلسلتي جبال طوروس ويمتد من الفرات حتى كيليكيا. وينقسم إلى قسمين:

الأول: يمتد من ملطية إلى عين زربة وهو مخصَّص لمواجهة نشاط المسلمين من جهة شمالي العراق.

الثاني: مخصَّص لمواجهة نشاط المسلمين من جهة بلاد الشام[4].

هذا وقد ضمَّت منطقة الحدود، التي اجتازها كل من الطرفين أثناء حروبهما، حصون: أدنة والمصيصة ومرعش والهارونية والحدث وملطية وطرسوس.

بعد الانتهاء من إنجازات التحصين والدعم، ابتدأت الصدامات العسكرية المتبادلة. فنشطت حركة الصوائف. وانتهز العباسيون كل فرصة أتيحت لهم لزيادة ضغطهم العسكري. وقد نقل الرشيد، في إحدى مراحل المواجهات، مقر إقامته إلى الرقة ليكون قريباً من مسرح العمليات، كما شارك بنفسه في بعض الصوائف وفتح حصن الصفصاف في عام (١٨١ هـ/ ٧٩٧ م)[5]. وتمكنت إحدى فرقه من الوصول إلى أنقرة في عمق الأراضي البيزنطية واجتاحت ثغر الأوبسيكون وبلغت أفسوس على ساحل بحر إيجة[6].

---

(١) سميت بالعواصم لأنها تعصم الحدود من الوقوع في قبضة العدو، كما هدف الرشيد من هذه التسمية إلى التمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجية المتاخمة للحدود البيزنطية المعروفة باسم الثغور.

(٢) عبد الله: ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٣) الطبري: جـ ٨ ص ٣٠٢.

(٤) Bury, J.B: A Hist of the Later Roman Empire. II pp 244 - 245

(٥) الطبري: جـ ٨ ص ٢٦٨.

(٦) الطبري: جـ ٨ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩. Camb. Med. Hist: IV P 707

وقفت الأمبراطورة إيرين عاجزة أمام انتصارات المسلمين فمالت إلى الصلح الذي تحقق في عام (١٨٣ هـ/ ٧٩٩ م)، وتقرر بموجبه:

- تبادل الأسرى.
- تدفع إيرين جزية سنوية[١].
- تستمر الهدنة مدة أربعة أعوام.

استمرت الهدنة حتى عام (١٨٧ هـ/ ٨٠٣ م) حين دبرت مؤامرة ضد إيرين، فخُلعت عن العرش، واعتلى نقفور الأول العرش البيزنطي[٢]، الذي ظنّ أنه يملك من القوة ما يكفي لمواجهة المسلمين، فرفض الاستمرار في دفع الجزية التي تعهدت بها إيرين من قبل. ولم يكتف بذلك، بل طالب بإعادة ما دفعته الأمبراطورة السابقة بحجة أنها لم تفعل ذلك إلا لضعف النساء، مما أثار غضب وحنق الرشيد[٣].

وجاء الرد على هذا التصرف سريعاً، فقد قاد الخليفة حملة عسكرية في عام (١٨٧ هـ/ ٨٠٣ م) وتوغل في منطقة كبادوكيا. ووجد نقفور نفسه عاجزاً عن التصدي له، فاضطر إلى عرض الصلح والموادعة على خراج يؤديه كل عام، مقابل انسحاب المسلمين من المنطقة، وافق الرشيد على عرض الصلح، وعاد إلى بلاده مكتفياً بما حقّقه[٤].

ويبدو أن نقفور أساء تقدير الموقف العسكري مرة أخرى، فنقض العهد وهاجم في عام (١٩٠ هـ/ ٨٠٦ م) عين زربة والكنيسة السوداء وأدنة، واستولى على طرسوس وضيّق على مرعش ولم يتمكن المسلمون من صدّه، والوقوف بوجهه، نظراً لانهماك الخليفة بقمع الحركات الداخلية المناهضة، بالإضافة إلى أن الظروف الطبيعية السيئة والبرد الشديد حالت دون العودة لمحاربته. لكن هذا الأمر، لم يدم طويلاً[٥]. إذ ما كادت الأمور الداخلية تستتب حتى قرّر الرشيد العودة إلى المناطق الحدودية للانتقام

---

(١) لم تحدد المصادر مقدار الجزية التي التزمت بها إيرين. والراجح أنها مساوية لتلك التي دفعتها من قبل للخليفة المهدي ومقدارها ما بين سبعين وتسعين ألف دينار. راجع: عبد الله ص ٢٧٥.

(٢) Ostrogorsky: A Hist of Byzantine States P 156

(٣) الطبري: جـ ٨ ص ٣٠٧ ـ ٣١٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٠٨.

(٥) البلاذري: ص ٢٣٥.

من الامبراطور. فقاد حملة ضخمة عبر بها الحدود وتوغل بعيداً داخل الأملاك البيزنطية، ففتح هرقلة وامتلك طوانة، وأرسل قوة عسكرية إلى إقليم أنقرة[١].

وشعر نقفور بعجزه عن صد المسلمين أو تخفيف ضغطهم على أراضيه، وسيطر عليه الرعب والضيق، وأخذ يبحث عن وسيلة للخروج من هذا المأزق، ولم تكن هذه الوسيلة سوى الصلح، فاتصل بالرشيد وعرض عليه السلام[٢].

ولما كان الشتاء على الأبواب، فقد قَبِل الرشيد عقد معاهدة صلح معه تضمن البنود التالية:

- يلتزم نقفور بدفع الخراج والجزية بمقدار ثلاثماية ألف دينار سنوياً.
- يمتنع عن إعادة بناء أو ترميم الحصون التي هدمها المسلمون مثل: هرقلة وأنقرة ودبسة والصفصاف.
- تعهد الرشيد، من جانبه، بعدم تخريب حصون ذي الكلاع وصملة وسنان.
- يرد للبيزنطيين معسكراتهم التي كانت في حوزته.
- تستمر الهدنة مدة ثلاثة أعوام[٣].

أدرك نقفور، بعد قليل من الوقت، أن النشاط الإسلامي المكثف جعل من منطقة جنوبي آسيا الصغرى منطقة نفوذ للمسلمين، كما سيطروا على الطرق المؤدية إلى النقاط البيزنطية المهمة، ومن جهة أخرى، فقد شعر بالمهانة حين قبل بدفع الجزية. لذلك قرر نقض الهدنة، فأعاد ترميم الحصون التي حرَّمت المعاهدة تحصينها. وعندما علم الرشيد بذلك، استأنف العمليات العسكرية، ونجح في فتح حصن دبسة مرة ثانية[٤].

ثم حدث أن تفرغ الرشيد للاهتمام بحل المشاكل التي استجدت في خراسان، ولم تتهيأ له بعد ذلك ظروف مناسبة لمتابعة نشاطه الجهادي ضد البيزنطيين، وكانت آخر عملياته تحقيق هدنة أخرى تم بموجبها تبادل الأسرى[٥].

---

(١) Theophanes: P 969

(٢) Ibid

(٣) الطبري: جـ ٨ ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٤) Theophanes: p 969

(٥) الطبري: جـ ٨ ص ٣٤٠.

لم تقتصر حروب الرشيد مع البيزنطيين في آسيا الصغرى، بل تعدتها إلى البحر الأبيض المتوسط في محاولات لاستعادة مركز المسلمين في الجزر القريبة من جهة، ولمساندة الحملات البرية، من جهة أخرى. فهاجمت البحرية الإسلامية، البحرية البيزنطية، كما هاجمت جزيرة قبرص في عام (١٩٠ هـ/ ٨٠٦ م) بعد أن نقض أهالي الجزيرة معاهدة الحياد التي أبرمت في عام (٧٩ هـ) لتنظيم العلاقات مع كل من المسلمين والبيزنطيين[١]. كما غزا المسلمون جزيرة كريت[٢].

يُعتبر عصر هارون الرشيد تجسيداً لحالة القوة التي كانت عليها الخلافة العباسية، حتى أضحت مرهوبة الجانب. ويبدو أن هذا الخليفة أدرك أن إزالة الأمبراطورية البيزنطية من الوجود، أمر يخرج عن حدود إمكاناته، لهذا اكتفى بإشغال البيزنطيين بأنفسهم وإضعافهم، وحرمانهم من العمل العسكري المثمر ضد المسلمين[٣] مما دفع نقفور بإعلان يوم وفاته في (الثالث من شهر جمادىٰ الثانية عام ١٩٣ هـ، الرابع والعشرين من شهر آذار عام ٨٠٩ م)، عيداً للبيزنطيين.

العلاقة مع الفرنجة

شهد العالم الإسلامي، في عصر الرشيد، وجود دولتين إسلاميتين كبيرتين هما: دولة الخلافة العباسية في المشرق، والدولة الأموية في الأندلس. وانقسم العالم المسيحي، آنذاك، إلى دولتين كبيرتين أيضاً هما: الدولة البيزنطية في الشرق، ودولة الفرنجة الكارولنجية في الغرب. وقد استند بعض المؤرخين الغربيين على الخصومات الإقليمية كمبرر لحصول التقاء بعض هذه الأطراف على أهداف مشتركة، فتقاربت الخلافة العباسية مع الفرنجة، وتقاربت بيزنطية مع الأمويين في الأندلس، وكان لهذه التقاربات أسبابها ودوافعها وانعكاساتها على العلاقات بين الشرق والغرب.

لقد تباينت طبيعة العلاقات بين دولة الفرنجة والدولة الأموية في الأندلس، عن طبيعة العلاقات بين الدولة الأولى ودولة الخلافة العباسية. وشهدت العلاقات بين

---

(١) عبد الله: ص ٢٩٨ هامش ٣.
(٢) المرجع نفسه: ص ٣٠٤.
(٣) المرجع نفسه: ص ٣١٠. العسلي، بسام: هارون الرشيد ص ٣٩ ـ ٤٠.

الدولتين الفرنجية والأموية حالة من التوتر والعداء بفعل تجاورهما واتجاهات المسلمين للتوسع نحو الشمال من جهة، ومحاولة الكارولنجيين السيطرة على أوروبا ووراثة الأمبراطورية الرومانية من جهة ثانية، مما أدّى إلى الاصطدام بينهما.

أما فيما يتعلق بالعلاقات بين الفرنجة والعباسيين، فقد كانت بعيدة عن مطامح الكارولنجيين مما أتاح فرصة ملائمة لقيام علاقات سياسية بين الجانبين[١].

هذا ولم تشر المصادر الشرقية إسلامية كانت أم نصرانية إلى هذه العلاقات، وانفردت المصادر اللاتينية بذكر الصلة التي ربطت الرشيد بشارلمان ملك الفرنجة، لكنها تبدو مضطربة وغامضة، ممَّا يقلِّل من ثقة المؤرخين بها[٢]. ولعل أبرز المؤرخين الذين عالجوا هذه العلاقة هم إينهارد، مؤرخ شارلمان وكاتب سيرته، والراهب سانت جول، والأخبار الملكية.

واستناداً إلى هذه المصادر فقد ابتدأت العلاقات بين العاهلين في عام (١٨١ هـ/ ٧٩٧ م) حين أرسل شارلمان وفدين إلى الشرق، الأول إلى الخليفة الرشيد، والثاني إلى بطريرك القدس. تكوَّنت البعثة الأولى من ثلاثة أفراد اثنين من الفرنجة والثالث يهودي يدعى إسحاق، الذي قام بأعمال الترجمة[٣]، لكن هذه المصادر تخلو من ذكر مكان مقابلة مبعوثي شارلمان للرشيد.

ويبدو أن أعضاء البعثة بحثوا مع الخليفة سبل تقوية التعاون بين الدولتين، كما طلبوا من الرشيد منح تسهيلات للحجاج الكاثوليك إلى الأماكن المقدسة، وحمايتهم من الأرثوذكس. ويذكر إينهارد أن هدف السفارة هو الحصول على فيل من عند الخليفة[٤].

استغرقت رحلة البعثة مدة ثلاثة أعوام، توفي أثناءها الفرنجيان وعاد إسحاق وحده مع فيل، هدية من الرشيد إلى شارلمان[٥]. وفي عام (١٨٣ هـ/ ٧٩٩ م) أرسل

---

(١) الرحيلي، سليمان ضفيدع: العلاقات السياسية بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) الدوري: ص ١١٧.

(٣) Runciman,S: Charlemagne and palestine. I p 607

(٤) Einhard: The Life of Charelemagne, P 42

(٥) Runciman: op. cit. P 607. Joranson, E: The Alleged Frankish Protectorate in=

الرشيد بعثة إلى البلاط الفرنجي، تألفت من عضوين أحدهما فارسي يمثل الخليفة، والآخر مغربي يمثل إبراهيم بن الأغلب. وقد وصلت إلى آخن عاصمة الكارولنجيين في الوقت نفسه، الذي وصل فيه إسحاق، ويبدو أنها كانت رداً على سفارة شارلمان الأولى له[١].

ثم أرسل شارلمان سفارة ثانية إلى الرشيد في عام (١٨٦ هـ/ ٨٠٢ م)، كما أرسل الرشيد سفارة ثانية في عام (١٩٢ هـ/ ٨٠٧ م)[٢].

وحدث أثناء وجود السفارات الغربية في الشرق، أن حصل تقارب ودي بين بطريرك القدس وشارلمان، وتم تبادل السفارات والهدايا بين الجانبين. وأرسل البطريرك إلى الملك الفرنجي مفاتيح كنيسة القيامة ومفاتيح مدينة القدس وراية[٣]. ولا تشير المصادر إلى أي مطالب تقدم بها البطريرك إلى شارلمان.

أما فيما يتعلق بالدوافع التي أدّت إلى قيام العلاقات بين الجانبين فهي:

دوافع الرشيد:

- إن الخصومة التقليدية بين المسلمين والبيزنطيين، دفعت الخليفة العباسي إلى القضاء على نفوذهم المعنوي بين مسيحيي الشرق عن طريق تقوية صلاته بالغرب.

- عداء الخليفة العباسي للأمويين في الأندلس، ورغبته في إعادة هذه البلاد إلى كنف الخلافة العباسية.

دوافع شارلمان:

- رغبة الملك الفرنجي في السيطرة على أوروبا، بما فيها الأندلس، بهدف وراثة تاج الأمبراطورية الرومانية، وحاجته إلى تأييد الخليفة المعنوي حتى لا يواجه معارضة من قبل عرب الأندلس، كما واجه في حملته على هذه البلاد في عام (١٦٢ هـ/ ٧٧٨ م) التي انتهت بالفشل.

= palestine, P 244

(١) الرحيلي: ص ٣٤.

(٢) المرجع نفسه: ص ٧٣. Runciman: op. cit. P 611

(٣) Ibid: P 610: Joranson: pp 245 - 246

ـ الخلاف بينه وبين الأمبراطور البيزنطي حول وراثة تاج الدولة الرومانية.

ـ رغبته في إعطاء تسهيلات لرعاياه الراغبين بالحج إلى الأماكن المقدسة، وفي تكوين نفوذ معنوي له في تلك الأماكن.

ـ العداء بين البابا، حليف شارلمان، وبطريرك القسطنطينية وتنافسهما حول السيادة الروحية على العالم المسيحي[1].

لكن نمط هذه العلاقة وتلك الدوافع الكامنة وراءها، أثارتا جدلاً بين المؤرخين لم تنته فصوله.

فمنهم من نفى حصول هذه العلاقات، وأنكر بالتالي قيام أية علاقات سياسية بين الدولتين العباسية والكارولنجية، ولم تتعد الصلات التجارية أفراداً من رعايا الدولتين دون الخلفاء والملوك.

وهناك فئة من المؤرخين علّلت أهداف تلك السفارات من خلال الدوافع الدينية التي شكّلت أبرز أسبابها، وذلك من زاوية الحفاظ على حرية المسيحيين بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، وتأمين الحماية لهم. وقد حصل شارلمان على وعد من الرشيد بتحقيق ذلك.

وهناك فريق ثالث من المؤرخين يرى فيها اتجاهاً سياسياً بهدف توحيد الرؤية السياسية بين الدولتين، باعتبارهما تشتركان في كثير من مظاهر الدولة السياسية في ذلك الوقت.

ويرى فريق رابع من المؤرخين، أن دوافع تلك السفارات هي محاولة عقد حلف

---

(١) راجع: الدوري: ص ١١٨.

Buckler: Harun - Al - Rashid and Charles the Great. P 170. Joranson: op. cit, pp 241 - 246

Runciman; op. cit, p 606

ديفز: شارلمان. يذكر هذا المؤرخ أن شارل لم يكن لديه دوافع خفية لإقامة علاقات مع الرشيد، ولم يتطلع إلى مآرب شخصية مستمدة من هذا الاتصال، إذ أنه كان يكنُّ الاحترام المقرون بالفروسية والبسالة للأمبراطورية الإسلامية الموقرة التي تتفق مع أمبراطوريته في كثير من الوجوه. ص ٢٠٣.

بين الدولتين، بهدف وقوف الرشيد ضد الدولة البيزنطية، ووقوف شارلمان ضد الدولة الأموية في الأندلس، وذلك بحكم عداء كل من العباسيين للأمويين والفرنجة للبيزنطيين[١].

لكن الحقائق التاريخية تنفي أي احتمال لقيام مثل هذا التحالف السياسي بين العاهلين، بدليل:

١ ـ أن تاريخ هذه السفارات، كما ورد في المصادر، يتزامن مع الاتصالات السياسية بين الأمبراطورة البيزنطية إيرين من جهة، وشارلمان من جهة أخرى، لحل الخلافات بين دولتيهما حول مقاطعتي أستريا ودلماسيا بالطرق السلمية، وقد استمرت هذه العلاقات الطيبة بشكل عام، بين شارلمان وخلفاء إيرين، نقفور وميخائيل الأول[٢].

٢ ـ لم يكن الرشيد بحاجة إلى مساندة الغرب في صراعه مع البيزنطيين لأنه كان المنتصر عليهم، وذهب بعيداً في تأكيد انتصاره حين فرض الجزية عليهم، لذلك لم تكن العلاقات العباسية البيزنطية بحاجة إلى مسوغ لاتصال العباسيين بالفرنجة من أجل عدائهما المشترك لبيزنطية[٣].

٣ ـ لا يوجد أي دليل على أن مسيحيي الشرق كانوا يشكلون خطراً على سلامة الدولة الإسلامية في عهد الرشيد، أو أن أوضاعهم كانت سيئة في ظل الحكم العباسي. وقد عامل الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الأول، النصارى من رعايا دولتهم وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية في معاملة أهل الذمة، وقد بلغ بعضهم مكانة رفيعة في قصور الخلافة، وتبوأ بعضهم مناصب إدارية في الإدارة العباسية مثل جرجس بن جبرائيل وابنه بختيشوع الطبيب[٤].

---

(١) راجع فيما يتعلق بأهداف السفارات بين العاهلين: الرحيلي. ص ٣٧ ـ ٤٠.

(٢) ديفز: ص ١٨٦. عاقل، نبيه: الأمبراطورية البيزنطية. ص ١٨٤. حاطوم، نور الدين: تاريخ العصر الوسيط، جـ ١ ص ١٧٨.
Buckler: P 20. Ostrogorsky: P 165

(٣) الرحيلي: ص ٤٠.

(٤) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص ١٨٣ ـ ١٨٦. الرحيلي: ص ٦٩.

٤ ـ لا يمكن للرشيد أن يتنازل عن حقوقه السياسية في الأماكن المقدسة في فلسطين ليتولاها الملك الفرنجي، كما لم يكن وضع النصارى في فلسطين يستدعي من البطريرك أن يطلب حماية ملك الفرنجة. وافتقرت المصادر الفرنجية إلى الإيضاحات بشأن أهداف تلك البعثات المتبادلة بين ملك الفرنجة وبطريرك بيت المقدس، وهناك إشارة غامضة إلى ملكية الموقع المقدس[١].

٥ ـ إن نظرية حماية شارلمان للأماكن المقدسة هي أسطورة، اخترعها المؤرخ الراهب سانت جول الذي كتب حوالي خمسين عاماً بعد وفاة شارلمان. إذ جمع هذا الراهب المعلومات عن السفارات، والهدايا المتبادلة ليكوِّن قصة مضمونها أن الرشيد تنازل لشارلمان عن السيادة على فلسطين، وأرسل إليه وارداتها[٢]، في محاولة لإعادة بسط سيطرة النصارىٰ على الأماكن المقدسة.

٦ ـ إن تقديم مفاتيح كنيسة القيامة والقدس، بالإضافة إلى الراية من قبل بطريرك بيت المقدس، لشارلمان، لا يمكن أن يُعطى معنى سياسياً، لأن الرواة لم يعلقوا عليه مثل هذه الأهمية، ويتفقون على أنه كان من باب الدعاء والتبريك والجدير ذكره أن بطريرك بيت المقدس لا يستطيع القيام بخطوة هامة ذات أبعاد سياسية دون الحصول على موافقة الخليفة الذي تخضع بيت المقدس لدولته[٣].

٧ ـ لا يوجد ما يدعو إلى قيام عوامل ثقة بين العاهلين. ومن المستبعد أن يتفق الرشيد مع شارلمان على ضرب مسلمي الأندلس، خاصة وأنه لم يعد يفكر جدّياً في استعادة هذه البلاد في وقت اضطر فيه إلى التخلي عن إفريقية[٤].

٨ ـ لم تشر المصادر الشرقية إسلامية كانت أم مسيحية إلى هذه السفارات مع أنها أشارت إلى سفارات تبودلت بين الرشيد وملك الهند[٥].

---

(١) راجع فيما يتعلق بأهداف البعثات بين شارلمان وبطريرك بيت المقدس وآراء الباحثين حولها: الرحيلي نفسه، ص ٧٦ ـ ٨٦.

(٢) Runciman: op. cit., P 629

(٣) الدوري: ص ١١٩. الرحيلي: ص ٨٢. Joranson: P 248

(٤) مؤنس جـ ١ ص ١٨٣. عبد الله: ص ٣١٢. Buckler: PP 22 - 25

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ ٢ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

والراجح احتمال وجود نوع من العلاقات التجارية والسياسية التي لم تأخذ شكلاً من أشكال التحالف السياسي، وأن المسؤول عنها هم التجار اليهود الذين كانوا حلقة الوصل بين الشرق والغرب، يتاجرون بين فرنسا والأقطار الإسلامية والصين، خاصة وأن أساليب التجار آنئذ أن يدّعوا بأنهم سفراء لتسهيل مصالحهم[١].

ولاية العهد - وفاة الرشيد

اختار الرشيد في عام (١٧٥ هـ/ ٧٩١ م) ابنه محمد الأمين ولياً للعهد مع أنه لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره وفضله على أخيه الأكبر عبد الله المأمون بتأثير من زوجته زبيدة وأخواله بني هاشم والفضل بن يحيى، إلا أن بعض بني هاشم أنكروا بيعته نظراً لصغر سنه[٢].

وفي عام (١٨٣ هـ/ ٧٩٩ م) بايع الرشيد لابنه عبد الله المأمون بولاية العهد بعد الأمين، وولاّه خراسان وما يتصل بها من همذان إلى آخر المشرق، وكان ذلك بتأثير جعفر بن يحيى[٣].

وفي عام (١٨٦ هـ/ ٨٠٢ م) بايع الرشيد لابنه القاسم بعد المأمون ولقبه المؤتمن وولاّه الجزيرة والثغور والعواصم، وكان ذلك بتأثير عبد الملك بن صالح مربي القاسم[٤].

وهكذا وقع الرشيد في خطأ أسلافه، بفعل خشيته على الحكم من بعده. وبدا هذا التعيين لأولياء العهد وتجزئة الدولة بينهم؛ وكأنه خطر يهدد الدولة بالحرب الأهلية. وفعلاً أدّى التنافس بين الأخوين الكبيرين المأمون والأمين، في حياة الرشيد، إلى تخوف الخليفة على مستقبل الدولة بعد وفاته. لذلك عقد عدة جلسات متتالية لبحث هذا الموضوع مع وزرائه ومساعديه، وأقرَّ الرأي على أخذ العهود على الأميرين في الكعبة بالوفاء بما في تسمية العهد الخاصة بكل منهما.

---

(١) الدوري: ص ١٢١.
(٢) الطبري: جـ ٨ ص ٢٤٠ - ٢٤١.
(٣) ابن أعثم: جـ ٤ ص ٤٢٢. الطبري: المصدر نفسه: ص ٢٦٩، ٢٧٥.
(٤) الطبري: المصدر نفسه: ص ٤٧٦.

وحجَّ الرشيد في عام (١٨٦ هـ/ ٨٠٢ م) واصطحب معه ولديه لتنفيذ ما اتفق عليه. فأخذ العهد عليهما بألا يتدخلا في شؤون بعضهما البعض، وفي شؤون أخيهما المؤتمن. وعلّق نسخة من العهد في فناء الكعبة ليزيد في قدسيته وليؤكد تنفيذه[١].

خرج الرشيد من بغداد في عام (١٩٣ هـ/ ٨٠٨ م) قاصداً خراسان لوضع حد لثورة رافع بن الليث، واستخلف ابنه محمد الأمين على بغداد، واصطحب معه ابنه عبد الله المأمون. وكان الرشيد يشكو من علة في بطنه ويرتدي حزاماً من حرير لتسكين الألم. ولما وصل إلى طوس في شهر صفر، اشتدت عليه العلة حتى عجز عن القيام. وتوفي ليلة السبت لثلاث خلون من (شهر جمادى الآخرة ١٩٣ هـ/ شهر آذار عام ٨٠٩ م)[٢].

---

(١) الطبري: جـ ٨ ص ٢٧٧ ـ ٢٨٦ ويورد الطبري نصوص كتب العهد. ابن أعثم: جـ ٤ ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(٢) الطبري المصدر نفسه: ص ٣٤٢ ـ ٣٤٦.

محمد الأمين ـ عبد الله المأمون

أبو موسى محمد الأمين

١٩٣ ـ ١٩٨ هـ/ ٨٠٩ ـ ٨١٣ م

التعريف بالأمين

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور، أبو موسى الهاشمي العباسي وأمه أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور. ولد بالرصافة عام (١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م) بويع له بالخلافة بعد وفاة والده الرشيد وبعهد منه. اشتهر بحسن الأدب، وكان عالماً بالشعر، فصيح اللسان لكن غلب عليه الهوى واللعب وضعف الشخصية. تأدب على الكسائي وقرأ عليه القرآن[١]. اشتهر بحبه لأصحابه وعطفه عليهم، لكنه فشل كقائد وكحاكم.

أسباب النزاع بين الأمين والمأمون

ترجع جذور النزاع بين الأخوين الأمين والمأمون إلى ثلاثة أسباب هي: مشكلة ولاية العهد ـ الصراع العنصري العربي والفارسي ـ أطماع الحاشية.

أ ـ مشكلة ولاية العهد

تعتبر هذه المشكلة إحدى أقوى الأسباب بفعل الطموح إلى السلطان، والعوامل النفسية التي انتابت الأمين تجاه أخويه، فكان البادىء بنقض بنود العهد، واتخذ عدة خطوات كانت كفيلة بتفجير الوضع، منها:

---

(١) ابن كثير: جـ ١٠، ص ٢٢٢، ٢٤١.

ـ محاولته، في بادىء الأمر، بسط نفوذه على ولايات أخويه ثم تقديم ابنه موسى عليهما في البيعة.

ـ في الوقت الذي كتب فيه والده العهد عليه وعلى أخيه المأمون وعلَّقه في فناء الكعبة، نوى الأمين الغدر. إذ عندما طلب منه جعفر البرمكي أن يحلف بعدم نقض البيعة أجابه إلى ذلك وقال: «خذلني الله إن خذلته» وردَّدها ثلاث مرات. ولما خرج قال للفضل بن الربيع «يا أبا العباس، كنت أحلف وأنا أنوي الغدر»[1].

ـ تصريحات الأمين حين عزم على خلع المأمون ومبايعة ابنه موسى إذ قال ليحيى بن سليم الذي استشاره في هذا الأمر، وحاول أن يثنيه عن عزمه «إن رأي الرشيد كان فلتة شبهها عليه جعفر بن يحيى بسحره واستماله برقاه. فغرس لنا غرساً مكروهاً لا ينفعنا ما نحن فيه إلا بقطعه، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتثاثه والراحة منه»[2] وقال للفضل بن الربيع يوماً: «ويلك يا فضل، لا حياة مع بقاء عبد الله وتعرضه ولا بد من خلعه...»[3].

نستنتج من ذلك، أن نية الغدر كانت موجودة عند الأمين، ومبيَّتة في نفسه منذ اللحظة الأولى، التي عين فيها والده أخاه المأمون ولياً للعهد من بعده. وهذه المشكلة، هي التي فجَّرت النزاع بين الأخوين، وقد كان ما بينهما متباعداً في حياة أبيهما، فلما مات لم يُرِدْ أحدهما الآخر. أما المأمون فظل قابعاً في خراسان لم يبرحها، وأما الأمين فقد خشي عاقبة هذا الاعتكاف، فكان طبيعياً أن تسوء ظنون الأخوين أحدهما بالآخر[4].

ب ـ صراع الحزبين العربي والفارسي

أخذت ملامح الدور السياسي الذي أدَّاه كل من الفضل بن سهل كاتب المأمون، ومدبره الذي مثَّل العنصرية الفارسية في الإدارة العباسية، والفضل بن الربيع الذي مثَّل التطلعات العربية؛ تظهر بشكلها المحدد في الفترة التي سبقت وفاة الرشيد مباشرة.

---

(١) الجهشياري: ص ٢٢٢.

(٢) الطبري جـ ٨ ص ٢٨٤ ـ ٣٨٥ يذكر الجهشياري أن الذي شاوره الأمين هو يحيى بن سليمان. ص ٢٩٢.

(٣) الطبري: المصدر نفسه: ص ٣٩٩.

(٤) محمود والشريف: ص ١١٢.

فأخذ الأول، مدفوعاً بنزعته العنصرية، وخشيته من وفاة الرشيد بعد تفاقم مرضه، يسعى ليضمن حق المأمون في الخلافة ويحميه من استبداد أخيه وحاشيته. ولعل أول خطوة أقدم عليها لتحقيق آماله أنه أقنع المأمون بمرافقة والده إلى خراسان ليلتمس فيها الأنصار، وليبعده عن سطوة الأمين وحزبه.

وانكشفت نوايا كل من الطرفين بعد وفاة الرشيد، وظهر التناقض بينهما واضحاً في وجهات النظر السياسية. وكان الرشيد، لدى اشتداد المرض عليه، جدّد البيعة للمأمون بعد الأمين. ولما علم الأمين بشدة مرض والده أرسل بكراً بن المعتمر إلى خراسان ومعه كتب ظاهرها عيادة والده، وباطنها أمر إلى القوم بالعودة إلى بغداد مع الأعتدة[1].

لم يتردد الفضل بن الربيع، وكان على نفقات الرشيد وتدبير أموره، بالعودة بالعسكر والأعتدة بعد وفاته، ولم يعرِّج على المأمون ولم يلتفت إليه بالرغم من محاولة هذا الأخير مناشدته ومن معه بعدم المغادرة، وذكَّرهم بالعهود والمواثيق التي أخذها الرشيد عليهم. وقد ضايق ذلك المأمون فعلاً وآلمه وشعر بعدم صفاء نية الأمين تجاهه[2].

والواقع أن النصر الذي أحرزه العنصر العربي في تغلّبه على البرامكة، وسعيه الدائم لكسب مزيد من تأكيد النفوذ والسلطان، قد لا يتحقق إلا في ظل خليفة كالأمين، وذلك ما دفع الفضل بن الربيع لإلقاء ثقله خلفه معتبراً أن هذه فرصته لكسب جولة أخرى من الصراع.

أما ابن سهل فقد رفض طلب الأمين، ولطَّف الأمر للمأمون، فخاطبه قائلاً: «نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم فاصبر قليلاً وأنا أضمن لك الخلافة»[3].

ولا شك بأن ابن سهل هذا بتشجيعه المأمون على البقاء في خراسان ومساندته ورفضه طلب الأمين بالعودة إلى بغداد، كان مدفوعاً بمطامع عنصرية وأخرى شخصية[4] وقد أوضح لأبي محمد اليزيدي أنه خدمه «ليحوز طابع هذا، يشير إلى الخاتم، في الشرق والغرب، لهذا خدمته ولهذا صحبته»[5].

---

(١) الطبري: جـ ٨ ص٣٦٨ ـ ٣٦٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٧٠ ـ ٣٧١. الجهشياري: ص ٢٧٧.
(٣) الطبري: المصدر نفسه: ص ٣٧٢.
(٤) الدوري: ص ١٤٨.
(٥) الجهشياري: ص ٢٨٠.

والحقيقة أن ابن سهل الذي كان يسعى لإيصال صاحبه إلى منصب الخلافة، أمل بأن تكون مرو عاصمة لهذه الخلافة بدلاً من بغداد، وأن تعود لخراسان عظمتها، وأدّى دوراً بارزاً في تكتيل الخراسانية خلف قضيته، وقد رفضت هذه، أن تعود إلى الظل بعد نكبة البرامكة فوقفت بشدة خلف المأمون متمسكة به، فكان هو الإمام الذي التفّت حوله الخراسانية الجديدة[1].

وهكذا اتخذت قضية النزاع بُعداً شعوبياً بين العرب والفرس، وراح يوجه الأحداث أشخاص يتعصبون لأحد الفريقين، فظاهر العرب الأمين وأخذ الفرس بيد ابن أختهم المأمون يشدون أزره.

جـ - أطماع الحاشية

وقفت حاشية الأمين، خاصة الفضل بن الربيع وعلي بن عيسى بن ماهان، وراءه بقوة ودفعاه إلى نكث العهد، في حين كانت الدلائل تشير إلى ميله للوفاء لأخويه رغم تصريحاته السابقة. ونصحه الفضل بن الربيع بأن يستدعي أخاه المأمون إلى بغداد، حتى يظفر به كرهينة، ويفصل بينه وبين جنده، تمهيداً لخلعه وصرف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى[2].

ومن جهته، فقد وقف الفضل بن سهل خلف المأمون وأوعز إليه بالاعتذار عن الذهاب إلى بغداد بحجة أن أمور خراسان تستدعي بقاءه فيها[3].

وهكذا أدَّى تدخل رجال الحاشية إلى تأجيج النزاع الذي وصل إلى حد اللاعودة عن الصدام.

مراحل النزاع بين الأمين والمأمون

مرَّ النزاع بين الأمين والمأمون بمرحلتين: مرحلة المفاوضات السلمية التي انتهت في عام (١٩٥ هـ/ ٨١١ م)، ومرحلة الحسم العسكري التي انتهت بمقتل الأمين في عام (١٩٨ هـ/ ٨١٣ م)[4].

---

(١) محمود والشريف: ص ١١٠.
(٢) الطبري: جـ ٨ ص ٣٧٤.
(٣) الجهشياري: ص ٢٨٩ - ٢٩٠.
(٤) الدوري: ص ١٤٨.

مرحلة المفاوضات

اتخذ النزاع، في بادىء الأمر، شكل سفارات ومراسلات متبادلة بين الأخوين حول قضية ولاية العهد، والصلاحيات الخاصة بالخليفة[1]. ونهج الأمين السلوك السياسي المخادع لاستمالة أخيه، واستقطاب حاشيته وفي نيته عزله من ولاية العهد، فأظهر التودد له.

ومن جهته، فقد تصرف المأمون بشكل يبعث الطمأنينة في نفس أخيه، فبعث إليه بمراسلات تعظمه، وأهدى إليه هدايا كثيرة من طُرف خراسان[2].

ثم حدث أن انتزع الأمين من أخيه المؤتمن كل ما بيده واستقدمه إلى بغداد. وكتب في الوقت نفسه إلى جميع العمال بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمأمون وللقاسم. ولما سمع المأمون بذلك، أدرك أن الأمين ينوي تغيير العهد، فقطع البريد عنه، وأسقط اسمه من الطرز[3].

ومضى الأمين في تودده دون أن يظهر نواياه، فكتب إلى المأمون يستدعيه إلى بغداد لحاجته إليه في تسيير شؤون الدولة، وفي نيته الغدر به[4].

ويبدو أن المأمون مال إلى إجابة طلب أخيه وكاد أن ينخدع، لولا تحذير وزيره الفضل بن سهل له، ونصحه بالاعتذار عن تلبية الدعوة، والعمل على تقوية جيشه وتوطيد مركزه في خراسان[5].

لم ييأس الأمين من محاولته الإيقاع بأخيه المأمون وقرَّر تجريده تدريجياً من كل ما بيده، فكتب إليه يطلب منه أن يتخلى له عن بعض كور خراسان سمّاها له، وأن يوجه العمال إليها باسمه، وأنه عازم على تعيين موظف من قبله على البريد ليكتب إليه بخبرها، باعتباره خليفة للمسلمين ويستطيع التصرف في أمور خراسان كما تقضي المصلحة العامة[6].

---

(١) أوردها الطبري مفصلة: جـ ٨ ص ٣٧٤ وما بعدها.

(٢) الطبري: جـ ٨ ص ٣٧٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٧٥.

(٤) الجهشياري: ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٥) الطبري: جـ ٨ ص ٣٧٢.

(٦) الطبري: جـ ٨ ص ٣٧٧.

استشار المأمون شيعته في طلب أخيه فأشاروا عليه جميعاً بإجابته باستثناء الفضل بن سهل الذي رفض العرض، فوافقه المأمون وكتب إلى أخيه بذلك[١].

ورسم هذا الوزير الفارسي للمأمون السياسة التي يجب عليه اتباعها وهي:

ـ الاعتصام في خراسان، لأن الخراسانية لن ينقضوا بيعتهم له بحكم قرابتهم له.
ـ انتهاج سياسة دينية رزينة.
ـ الاهتمام شخصياً بأمور الدولة ورد المظالم[٢].
فأحبه الناس والتفوا حوله[٣].

نتيجة لهذا الجفاء، اشتدَّ التوتر بين الأخوين وأغلقت الحدود بينهما، واتخذ المأمون بعض الاحتياطات لقطع الطريق على الدعاية التي راح يبثها الأمين ضده لاستمالة أهل خراسان. فأقام حراسة مشددة على طول الطريق بين العراق وخراسان، وأعطى الأوامر باعتقال المشبوهين الذين يفدون من العراق[٤]. وأوشكت دولة الخلافة العباسية أن تنقسم إلى قسمين ينازع كل منهما الآخر. القسم الغربي حيث مدينة بغداد وعلى رأسه الأمين تسانده العرب وعلى رأس قواته القائد العربي علي بن عيسى بن ماهان، والقسم الشرقي أي خراسان والولايات الشرقية حيث يقيم المأمون في مدينة مرو بمساندة الفرس وعلى رأس قواته طاهر بن الحسين.

وتفاقم النزاع، بمرور الأيام، وفشل الأمين في حمل أخيه المأمون على التنازل عن ولاية العهد لصالح ابنه موسى[٥] مما دفعه إلى خلعه في عام (١٩٥ هـ/ ٨١١ م)، وجلب كتابي العهد من فناء الكعبة وحرقهما، بالرغم من تحذير بعض بطانته[٦].

أغضب هذا التصرف الخراسانيين، وغيرهم من أهالي الأمصار، فقاموا في وجهه، واشتعلت الاضطرابات، وأضحى التحول إلى النزاع المسلح أمراً محتماً، وأخذ كل طرف يستعد له.

---

(١) المصدر نفسه: ص ٣٧٧ ـ ٣٧٩.
(٢) الجهشياري: ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٧٩.
(٤) الطبري: جـ ٨. ص ٣٧٩.
(٥) الطبري: جـ ٨ ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦.
(٦) المصدر نفسه: ص ٣٨٧، ٣٨٩. الجهشياري: ص ٢٩٢.

مرحلة الحسم العسكري

سيَّر الأمين جيشاً، بقيادة علي بن عيسى بن ماهان، والي خراسان السابق، لقتال أخيه، تقدم إلى الري حيث كان جيش المأمون، بقيادة طاهر بن الحسين، بانتظاره. والتحم الجيشان في رحى معركة قاسية، أسفرت عن انتصار جيش المأمون، ومقتل علي بن عيسى. ولم تكد أنباء النصر تصل إلى مقر المأمون في مرو، حتى بايع الناس المأمون بالخلافة[1].

والواقع أن الأمين أخطأ تقدير الموقف السياسي والعسكري، أو غُرِّر به لتعيين علي بن عيسى على رأس قواته، لأن هذا التعيين كان قاضياً على الأمل في استمالة الخراسانيين، نظراً لكراهيتهم له، مما أثار حميتهم، فاستماتوا بالقتال.

ويبدو أن الأهواء الشخصية أدَّت دوراً في هذا الاختيار. فعلي كان يطمع في العودة إلى منصبه القديم، كحاكم لولاية خراسان، وربما عمد الأمين إلى إغاظة سكانها، فولاَّه القيادة نكاية بهم. والراجح أن أحد عيون الفضل بن سهل، وهو العباس بن موسى، هو الذي أشار على الأمين أن يؤمِّر علياً ليثير حمية الخراسانيين على القتال.

أثارت أنباء هزيمة جيش الأمين الفزع في بغداد، مما دفع الخليفة إلى تجهيز جيش آخر وأرسله إلى خراسان بقيادة عبد الرحمن بن جيلة الأنباري، للتصدي لزحف طاهر[2].

ووقعت المعركة الثانية بين القوتين في همذان، انتصر فيها جيش المأمون أيضاً. وسيطر طاهر على المدينة ثم واصل زحفه باتجاه بغداد يرافقه هرثمة بن أعين[3]. ولما وصلها، ضرب عليها حصاراً مركزاً، فدبت فيها الفوضى وشهدت شوارعها اصطدامات داخلية بين مؤيدي الطرفين. وتمكنَّت قوة خراسانية من دخولها وأسرت الأمين، وأعلنت خلعه، لكن العناصر العربية قامت بهجوم مضاد، وتمكنَّت من إطلاق سراحه، وأخرجت الخراسانية من المدينة.

---

(١) المصدران نفسهما: ص ٤١١، ص ٢٩٣.

(٢) الطبري: المصدر نفسه ص ٤١٣ ـ ٤١٤.

(٣) الطبري: جـ ٨ ص ٤١٣ ـ ٤١٤.

ونتيجة لضغط الحصار، خارت قوة الأمين، بعدما انهارت معنويات جنده، وانتهت المقاومة، ودخل طاهر المدينة عنوة، ووجد الخليفة نفسه أمام أحد خيارين: إما القيام بمحاولة أخيرة لاختراق صفوف الخراسانية، وإما الاستسلام وطلب الأمان. ولما لم يكن معه من الرجال ما يساعده على المقاومة، فقد فضّل الاستسلام للقائد هرثمة بن أعين، وقد اختاره بسبب قسوة طاهر، لكن هذا الأخير كمن له في النهر وقبض عليه وسجنه، ثم اقتحم عليه عدد من الجنود الخراسانية سجنه وقتلوه، وكان ذلك في الخامس والعشرين من (شهر محرم عام ١٩٨ هـ/ شهر آب عام ٨١٣ م). وسيطر طاهر على بغداد وأمَّن أهلها، وانتهت بذلك خلافة الأمين[١].

(١) راجع تفاصيل هذه الأحداث في المصدر نفسه: ص ٤٧٢ ـ ٤٨٩.

أبو جعفر عبد الله المأمون

١٩٨ ـ ٢١٨ هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م

التعريف بالمأمون

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد القرشي الهاشمي، أبو جعفر، أمير المؤمنين، وأمه أم ولد يقال لها مراجل الباذغيسية. ولد عام (١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م) ولاَّه والده العهد وهو في سن الثالثة عشرة من عمره. بويع له بالخلافة في عام (١٩٨ هـ/ ٨١٣ م)، وكان بالري، وقدم بغداد في عام (٢٠٤ هـ/ ٨١٩ م)[١].

اشتهر المأمون بصفات ميزته عن سائر الخلفاء العباسيين منها: ميله إلى العفو وكراهيته للانتقام، وكرمه الذي فاق كرم كافة الخلفاء العباسيين، وقوة حجة الإقناع لديه. كان حاضر البديهة، سريع الجواب. أديباً، يعرف جيد الشعر من رديئه. ويحب سماع الغناء[٢].

الأوضاع الداخلية في عهد المأمون

الأوضاع في بغداد في بداية عهد المأمون

أراد الفضل بن سهل أن يقطف ثمار انتصاره، فلم يكد نبأ قتل الأمين يصل إلى مرو، حتى نصح الخليفة بإحداث تغييرات في الإدارة تتماشى مع الوضع الجديد. وقد هدف إلى إبعاد القائدين طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين عن العراق، للتفرد بحكمه.

استجاب المأمون لنصيحة وزيره، فعزل طاهر بن الحسين عن العراق وعيَّن أخاه، الحسن بن سهل عليه، كما أرسل هرثمة بن أعين إلى خراسان[٣] وقد أدَّى ابتعاد هذين القائدين عن العراق إلى انتشار الاضطرابات فيها.

ومن جهته، فقد أراد الخليفة أن يكافىء وزيره، فخلع عليه لقباً جديداً هو «ذو

---

(١) ابن كثير: جـ ١٠ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٢) راجع أخبار وصفات المأمون عند الطبري: جـ ٨ ص ٦١٥ ـ ٦٦٦.

(٣) المصدر نفسه: ص ٥٢٧.

الرئاستين» أي رئاسة السيف ورئاسة القلم، وهذه خاصية تدل على مدى النفوذ الواسع الذي وصل إليه هذا الرجل الفارسي. وإلى جانب هذه الخاصية، تمتع الفضل بخاصية الإمرة، وهو أول وزير لقِّب، وأول وزير اجتمع له اللقب والتأمير، وكان يقال له «الوزير الأمير». وفوَّض إليه أيضاً إدارة شؤون الدولة[١].

سبَّب هذا التصرف، من جانب المأمون، سخط العناصر العربية، واستياء بني هاشم، ووجوه الناس، فنشبت الفتن في بغداد، وبايع سكانها المنصور بن المهدي، عم المأمون، وقد رفض قبول البيعة له بالخلافة، وإن كان قد وافق على أن يلي أمر بغداد باسم المأمون[٢].

ومما ساعد على تأجيج الوضع، ضجر الناس من هذا النزاع وما أفرزه، حتى تمنوا الخلاص. ومما زاد الأمر تعقيداً وخطورة كف يد طاهر القوية عن العراق، وضعف حكم الحسن بن سهل، وميل المأمون إلى الطالبيين، وقد ظهر ذلك بصورة فجائية ولأول مرة وتمثل في البيعة لعلي الرضا.

وهكذا نشبت الحرب الأهلية في بغداد، فتوقفت أعمال الحكم والإدارة، وتعرضت قرى جنوبي العراق لنهب المرتزقة. وغدت الأوضاع في بغداد من النوع الذي لا يطاق، بعد أن امتلأت الشوارع باللصوص.

نشبت هذه الاضطرابات على إدارة المأمون وهو بمرو لا يصل إليه شيء من أخبار بغداد، وقد حجبه الفضل بن سهل وكتم الأمر عنه.

البيعة لعلي الرضا

حدث أثناء إقامة المأمون في مرو، أن مال إلى الطالبيين، ولبس الثياب الخضراء؛ شعارهم، وطرح السواد شعار العباسيين، وصاهر علي بن موسى بن جعفر الصادق[٣]، وهو الإمام الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثني عشرية، ثم ولاَّه عهده في

---

(١) الجهشياري: ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.
(٢) الطبري: جـ ٨ ص ٥٤٦.
(٣) زوَّج المأمون ابنته، أم حبيب، من علي الرضا، كما زوَّج ابنته، أم الفضل، من محمد بن علي الرضا. المصدر نفسه ص ٥٦٦.

(شهر رمضان عام ٢٠١ هـ/ شهر نيسان في عام ٨١٧ م)، وسماه الرضا، إذ كان رضياً عند أمير المؤمنين.

لكن هذه البيعة لم تمر دون أن تخلف أثراً، لذلك فهي تحتاج إلى قراءة متأنية، ووقفة تأمل لسبر دوافعها ونتائجها.

أما من حيث الدوافع، فلا بد لنا من العودة قليلاً إلى الوراء لدخول مجالس القصر في عهد الرشيد، ونشهد المناقشات الفكرية والسياسية لأهل الكلام من معتزلة وشيعة، التي كانت تُعقد بتشجيع من البرامكة، وكانت الخلافة أحد أبرز مواضيعها.

وقد حصل تقارب بين المذهبين، المعتزلي والشيعي نتيجة نظرتهما المشتركة من موضوع الخلافة. فيرى أكثر علماء المعتزلة بأحقية علي بن أبي طالب بالخلافة، وهذا هو رأي الشيعة.

وقد نشأ المأمون في ظل هذه المناقشات الفكرية، وتأثر بمضامينها، لذلك تبنّى آراء المعتزلة، خاصة في موضوعي الخلافة وخلق القرآن[١]. ونلاحظ أن الشهود الذين وقَّعوا على وثيقة العهد لعلي الرضا كانوا من المعتزلة المعروفين بميولهم العلوية[٢] كما وقعَّها كبار المتشيعين[٣].

إلى جانب هذه الظاهرة، فقد تربَّى المأمون في بيئة فارسية بفعل هوية والدته الفارسية، تؤمن بأحقية علي بن أبي طالب، وأولاده من بعده، بالخلافة، وارتبط ارتباطاً وثيقاً بخراسان، فأظهر التشيع ومال إلى العلويين[٤].

وتأثر المأمون بالظروف السياسية التي عاشها أثناء نزاعه مع أخيه الأمين، خاصة إذا علمنا أن هذا النزاع اصطبغ بالصبغة العنصرية، وأن الفضل بن سهل الذي مثَّل التطلعات الفارسية، وقف بشدة وراءه حتى ضمن له النصر. لذلك، لم يجد المأمون بداً من إرضاء مشاعر الفرس الذين كانوا يقدِّرون آل علي بن أبي طالب، ويعطفون عليهم. فعاهد الله أن يخرج الخلافة إلى أفضل آل علي إن ظفر بأخيه. وفعلاً

---

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ١٥٧.
(٢) هم: بشر بن المعتمر ويحيى بن أكتم وحماد بن النعمان.
(٣) مثل الفضل بن سهل وعبد الله بن طاهر.
(٤) المسعودي: جـ ٤ ص ٥. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٢٣٠.

أدّى انتصاره إلى أن يبرّ بوعده، فعين علياً الرضا خلفاً له، بمشورة الفضل بن سهل[١].

ويبدو أنه كان مضطراً لتنفيذ خطته مراعاة لخواطر الخراسانيين، نلاحظ ذلك من خلال محاورته مع علي الرضا، فقد هدَّده حين امتنع عن القبول قائلاً: «لا بد من قبولك ما أريد، فإني لا أجد محيصاً عنه...»[٢].

وأما من حيث النتائج، فلعل أبرزها انتقال الخلافة الإسلامية من البيت العباسي إلى البيت العلوي، وردة الفعل العنيفة في بغداد وبعض الأمصار التي جاءت سلبية تجاه هذا الحدث، حيث بايع أهل محلة الحربية، في بغداد، إبراهيم بن المهدي[٣]. والملفت للنظر أن الفضل بن سهل قد كتم عن المأمون أحداث بغداد حتى أخبره علي الرضا بذلك[٤].

أما في الأمصار، فقد أنكر والي البصرة العباسي إسماعيل بن جعفر بن سليمان ابن علي تصرف الخليفة واعتبره خروجاً على الأسرة العباسية، فامتنع عن لبس الخضرة وأعلن خلع المأمون[٥]. وبايع أهل مكة علي الرضا، ولم يبدِ أهل المدينة أية معارضة عندما أرسل الخليفة نص البيعة ليقرأ عليهم[٦].

أحداث العودة إلى بغداد

أدرك المأمون، بعد أن أطلعه علي الرضا على الأوضاع المتردية في أنحاء الدولة، أن لا جدوى من البقاء في مرو، وأن بغداد لا تستطيع أن تعيش بدون خليفة، وشعر، بالإضافة إلى خطر الاضطرابات التي نشبت في مصر والجزيرة، بخطر حرب أهلية جديدة بين أفراد الأسرة العباسية، وأن سياسة الفضل بن سهل سوف تؤدي إلى ضياع ملكه، كما بدأت تظهر في الشمال حركات مذهبية قائمة على تعاليم أبي مسلم والمقنعة، انتشرت في أذربيجان بفعل ظهور بابك الخرّمي الذي استقطب الكثير من

---

(١) الأصفهاني: ص ٤٥٤. ابن الطقطقا: ص ٢١٧. المسند ص ٢٣٥ ـ ٢٤١.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥.
(٣) الطبري: جـ ٨ ص ٥٥٤ ـ ٥٥٥.
(٤) ابن الطقطقا: ص ٢١٨ ـ ٢١٩.
(٥) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣.
(٦) الأصفهاني: ص ٤٥٦.

الأتباع، وأخذت حركته تتسع، ونفوذه يتعاظم، حتى راح يهدد الأطراف الإسلامية. وأكّد له قادته ما قاله الرضا وأشاروا عليه أن يسير، على عجل، إلىٰ بغداد ليستدرك أمره وإلا خرجت الخلافة من يده، فقرر العودة إلى بغداد، واتجه إليها في عام (٢٠٢ هـ/ ٨١٧ م).

وتمثل هذه العودة إلى العاصمة المركزية تغييراً جوهرياً في مسار دولة الخلافة العباسية، وهذا يعني زوال الصبغة الفارسية التي اصطبغت بها طوال الفترة التي قضاها المأمون في مرو، والعودة إلى الأصول العربية التي تمثلها بغداد حاضرة آبائه، وهذا ما أزعج الفضل بن سهل، لأنها تحمل في طياتها ضياع نفوذه وسلطانه.

ويبدو أن المأمون شعر بعدم رضى وزيره عن هذا التغيير المزمع إحداثه، وأنه سوف يشكل عائقاً أمامه حين يقدم على مصالحة أسرته وأهل بغداد، يضاف إلى ذلك، فقد رأى المأمون، من خلال تصرفات وزيره، أنه يخطط لكي يسيطر، سيطرة تامة، على الدولة العباسية من داخلها، وتوضحت له جوانب السياسة التي كان ينتهجها، والتي تثبت انحرافه، وتشكل تناقضاً كاملاً مع المصالح العليا للدولة العباسية، لذلك أضحى التخلص منه ضرورة سياسية[1].

ولم يكد المأمون يبدأ رحلته إلى بغداد، وما إن وصل إلى مدينة سرخس حتى دبَّر

---

(١) من التصرفات التي لوحظت على الفضل بن سهل ما أبرزه نعيم بن خازم، وهو من كبار رجالات خراسان الذين استشارهم المأمون في البيعة لعلي الرضا، حيث قال نعيم للفضل في حضرة المأمون: «إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي، ثم تحتال عليهم فتصيِّر الملك كسروياً، ولولا أنك أردت ذلك لما عدلت عن ألبسة علي وولده وهي البياض إلى الخضرة وهو لباس كسرى والمجوس».

وتصرف آخر يبرز ما كان يهدف إليه الفضل بن سهل من إحياء السيادة والتقاليد الفارسية. «وكان ذو الرياستين على كرسي مجنح ويُحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه، فإذا وقعت وضع الكرسي ونزل عنه فمشى وحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون، ثم يسلم ذو الرياستين ويعود فيقعد. . . إنما ذهب ذو الرياستين في ذلك مذهب الأكاسرة، فإن وزيراً من وزرائها كان يحمل في مثل ذلك الكرسي ويقعد بين أيديها عليها ويتولى حمله اثنا عشر رجلاً من أولاد الملوك». ولعل الجناحين هما أجنحة أهورا مزدا، إلّه الخير عند الزرادشتية. راجع: الجهشياري: ص ٣١٣، ٣١٦. الدوري: ص ١٦٥.

مقتل الفضل بن سهل في (شهر شعبان عام ٢٠٢ هـ/ شهر شباط ٨١٨ م) ثم استأنف رحلة العودة إلى بغداد.

ولما وصل إلى طوس توفي علي الرضا فجأة في أوائل عام (٢٠٣ هـ/ ٨١٨ م). فدفنه المأمون فيها بجوار قبر والده الرشيد. وقد اختلف المؤرخون في الكيفية التي مات عليها، وتتهم الشيعة المأمون بأنه سمه في عنب، وأطلقوا على مدينة طوس اسم «مشهد»[1]. وكانت وفاة هذين الرجلين من أهم الأسباب التي حملت العلويين على كراهية المأمون.

ثم حدث أن واصل المأمون رحلته فوصل إلى همذان، ولم يكد يقترب من بغداد حتى سارع أهلها إلى خلع إبراهيم بن المهدي وبايعوا المأمون، وذلك في السابع عشر من (شهر ذي الحجة عام ٢٠٣ هـ/ شهر حزيران عام ٨١٩ م)، ودخل المأمون بغداد يوم السبت (لأربع عشر بقين من شهر صفر عام ٢٠٤ هـ/ شهر آب عام ٨١٩ م)، وكان لا يزال، هو وجميع من معه، يرتدون الملابس الخضراء ويحملون الرايات الخضراء، فانهالت الاحتجاجات من بني هاشم وأنصارهم حتى وجد نفسه مضطراً، بعد أسبوع واحد، للعودة إلى لبس السواد[2] بعد أن أدرك عمق المشاعر التي يكنّها بنو العباس تجاه الطالبيين.

الحركات المناهضة للدولة

أ ـ الحركات الطالبية

حركة أبي السرايا

انتهز الطالبيون حالة عدم الاستقرار السياسي التي مرت بها دولة الخلافة العباسية نتيجة الصراع بين الأمين والمأمون، فقاموا بعدة حركات مناهضة، في العراق والحجاز واليمن، لعل أخطرها حركة أبي السرايا السري بن منصور الشيباني، الذي قام بأمر محمد بن إبراهيم بن إسماعيل، المعروف بابن طباطبا، في أواخر (شهر جمادى الثانية

---

(١) الأصفهاني: ص ٤٥٧ ـ ٤٦٠. المسعودي: جـ ٣ ص ٤٤١. ابن الطقطقا: ص ٢١٨. ابن الأثير: جـ ٥ ص ١٩٣، الذي استبعد أن يكون المأمون قد سمه، في حين سكت الطبري عن اتهام المأمون: جـ ٨ ص ٥٧٥ ولم يتهمه خليفة بن خياط: ص ٧٦٦.

(٢) الطبري: جـ ٨ ص ٥٧٤ ـ ٥٧٥.

عام ١٩٩ هـ/ شهر شباط عام ٨١٥ م) في مدينة الكوفة[١]، وتعتبر هذه الحركة حلقة في سلسلة حركات الشيعة الزيدية.

واتسع نفوذ أبي السرايا بعد أن بسط سيطرته على البصرة والحجاز واليمن، وأوقع الهزيمة بالجيوش العباسية التي أرسلها الحسن بن سهل للتصدي له.

ويبدو أن أبا السرايا أراد الاستئثار بالسلطة، فتخلص من ابن طباطبا بالسم وولى مكانه محمد بن محمد بن زيد العلوي، وكان غلاماً[٢].

وضرب أبو السرايا الدراهم، وأرسل كسوة إلى الكعبة كتب عليها: «أمر به أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله الحرام، وأن يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس»[٣].

نتيجة هذه النجاحات التي أحرزها، اضطر الحسن بن سهل إلى تكليف هرثمة بن أعين بإخماد حركته. وقد نجح هذا القائد في تنفيذ مهمته، فدخل الكوفة وفرَّ منها أبو السرايا إلى السوس من بلاد فارس، ثم إلى الجزيرة حيث قُبض عليه في جلولاء، وسيق إلى الحسن بن سهل بالنهراوان، فضرب عنقه[٤].

الواضح أن هذه الحركة تختلف عن الحركات العلوية التي قامت في العصر العباسي الأول. إذ خطَّط لها ووجهها رجل من غير آل البيت، وتميزت باتخاذها الكوفة مركزاً لها، وهي المرة الأولى التي تشهد فيها هذه المدينة حركة علوية في العصر العباسي الأول[٥].

أما فيما يتعلق بأسباب إخفاقها، رغم اتساع نفوذها والانتصارات التي حقّقتها، فتعود إلى أربعة:

الأول: عدم انتماء أبي السرايا إلى البيت العلوي، ورغم دعوته للعلويين، فإن الشيعة سارعت إلى تأييد زعماء علويين آخرين في مقدمتهم محمد بن جعفر الصادق، وانفضوا من حوله، مما أدّى إلى إضعاف قوته.

---

(١) الطبري: جـ ٨ ص ٥٢٨.
(٢) المصدر نفسه: ص ٥٢٩.
(٣) المصدر نفسه: ص ٥٣٠، ٥٣٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥.
(٥) الليثي، سميرة مختار: جهاد الشيعة. ص ٣٣١.

والثاني: أثار ماضي أبي السرايا الشبهات حوله. فقد عمل هذا الرجل في بادىء الأمر، تحت إمرة القائد العباسي هرثمة بن أعين، ثم تركه بسبب تأخر أرزاقه[١].

الثالث: اتصفت حركة أبي السرايا بالعنف والقسوة مما أدّى إلى امتناع الكثير عن تأييدها، وقد حدَّ ذلك من اندفاعها وأضعفها.

الرابع: أثارت أعمال الطالبيين، من أتباع أبي السرايا بمكة[٢]، سخط جميع المسلمين، مما أدّى إلى نقمتهم على هذه الحركة خاصة حين جرَّد أبو السرايا الكعبة من كسوتها، ثم كساها بأخرى تتضمن شعارات معادية للعباسيين[٣].

حركة محمد بن جعفر الصادق

شهد عصر المأمون قيام حركة طالبية أخرى تختلف في طابعها ومكان انطلاقها عن باقي الحركات، تزعمها محمد الديباج بن جعفر الصادق في عام (٢٠٠ هـ/ ٨١٦ م) في بلاد الحجاز، وبويع له في مكة بإمرة المؤمنين، فقبلها بعد تردد[٤].

ويبدو أن دولة الخلافة العباسية كانت منهمكة بمشاكلها الداخلية الكثيرة، فلم تُبدِ اهتماماً جدياً بهذه الحركة، التي لم تتصف بالخطورة بفعل أنها انحصرت في مكة، مما أتاح للخلافة القضاء عليها بسهولة، واضطر محمد الديباج إلى خلع نفسه أمام الملأ في مكة[٥].

ولعل أهم أسباب فشل هذه الحركة تعود إلى:

- افتقارها إلى دقة التنظيم، وقاعدة شعبية، تستند عليها. وعدم انتشارها في الأمصار. وتقصير أتباعها في مواجهة العباسيين.

---

(١) الطبري: جـ ٨ ص ٥٢٩.

(٢) يروي الطبري الأعمال التي قام بها أتباع أبي السرايا في مكة. المصدر نفسه: ص ٥٣٦ ـ ٥٤٠.

(٣) الليثي: ص ٣٣١ ـ ٣٣٤.

(٤) الخطيب البغدادي: جـ ٢ ص ١١٣ ـ ١١٤.

(٥) الطبري: جـ ٨ ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩.

ـ تردد محمد بن جعفر في الدعوة لنفسه، وكراهيته لذلك، وجاء قبوله نتيجة إلحاح آل علي بن أبي طالب، وابنه علي.

ـ اعتماده على الأنصار من ذوي السيرة السيئة: غوغاء أهل مكة، بعض السودان، ابنه علي، مما صرف المؤيدين عنه.

ـ تردد بعض أهل مكة في البيعة له، كما لم يتمسك من بايعه، بولائهم وتأييدهم[1].

ب ـ الحركات غير العلوية

حركة نصر بن شبث

نصر بن شبث زعيم عربي من بني عقيل، يسكن كيسوم شمالي حلب، متعصب للأمين لأنه يمثل العنصر العربي، وناقم على المأمون لميله إلى الخراسانيين. خرج في أواخر عام (١٩٨ هـ/ ٨١٤ م)، وسيطر على البلاد المجاورة، وملك سميساط، وشايعه كثير من العرب[2] وقوي أمره حتى هابه الخليفة. والواقع أن حركته لم تكن موجهة ضد الحكم العباسي، بل كانت انتفاضة ضد النفوذ الفارسي المسيطر على مقدرات الخلافة[3].

ولما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين، ندبه المأمون إلى الرقة لمحاربته، وولاّه الموصل والجزيرة والشام والمغرب، وانتزع منه العراق. ويبدو أن هذا الإجراء قد أزعجه، فتباطأ في حرب نصر، وأعطى هذا الأخير فرصة التغلب على الجيش العباسي، وحاصر حرّان. ورأى فيه الطالبيون أحد رموز المعارضة للحكم العباسي، فحاولوا استغلاله، وإقناعه بالبيعة لعلوي، فرفض ذلك بفعل ولائه للعباسيين[4].

أدرك المأمون تباطؤ طاهر في حرب نصر، فاستدعاه وولاّه خراسان وولّى ابنه عبد الله الولايات الغربية من الرقة إلى مصر وأمره بمحاربته. وفعلاً تمكن عبد الله هذا

---

(١) الليثي: ص ٣٤١ ـ ٣٤٣.
(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٣٩٨.
(٣) الدوري: ص ١٦٩.
(٤) الطبري: جـ ٨ ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠.

من محاصرة نصر وضيق عليه الخناق مما اضطره لطلب الصلح في عام (٢٠٩ هـ/ ٨٢٤ م) وجيء به إلى بغداد في العام التالي، بعد أن أمَّنه الخليفة[١] وانتهت بذلك حركته.

حركة الزط

قام الزط بانتفاضة عاتية في جنوبي العراق بنواحي البصرة. وهم قوم من أخلاط الناس المعروفين بالنور، أصلهم من هنود آسيا استقروا في البطائح بين واسط والبصرة بعد هجرتهم من الشرق. وقوي أمرهم في فترة النزاع بين الأمين والمأمون وسيطروا على طريق البصرة، وقطعوا الاتصالات بين البصرة وبغداد، وازدادت سطوتهم في عهد المأمون[٢].

ولما استقر المأمون في بغداد تفرغ لهذه الجماعة المنتفضة على حكمه، فأرسل إليهم عدة حملات عسكرية في عام (٢٠٥ هـ/ ٨٢٠ م). إلاَّ أنها لم تتمكن من القضاء عليهم[٣]. ويبدو أنهم كانوا شديدي الحذر يتفرقون في الفيافي إذا داهمهم الخطر. فكثَّفوا نشاطهم المعادي للدولة حتى فرضوا المكوس على السفن الداخلة إلى بغداد، وحالوا دون وصول المؤن إلى عاصمة الخلافة[٤]. وظل الزط شوكة في جنب الدولة العباسية إلى أيام المعتصم الذي سيقضي على حركتهم وينفيهم إلى عين زربة في منطقة الثغور الإسلامية.

الاضطرابات في مصر

تأثرت الأوضاع السياسية في الولايات الإسلامية بالنزاع الذي حدث بين الأمين والمأمون، وظهر أثر ذلك جلياً في مصر بشكل خاص، وظهرت في الأفق السياسي اعتباراً من عام (٢٠٦ هـ/ ٨٢١ م) تباشير حركة استقلالية بزعامة السري بن الحكم نتيجة تحامل العباس بن موسى، والي المأمون على مصر. استغل هذا الرجل النزاعات

---

(١) المصدر السابق: ص ٥٩٨ ـ ٦٠١.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية: جـ ١٠ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.
(٣) الطبري: جـ ٨ ص ٥٨٠.
(٤) المصدر نفسه: ص ٥٨١.

الداخلية بين القيسية واليمنية لضرب الفئات المتنازعة بعضها ببعض حتى تخلو له الساحة السياسية، فساد مصر، نتيجة ذلك، جو من القلق وعدم الاستقرار.

وثارت القبائل العربية في مصر السفلى في عام (٢١٤ هـ/ ٨٢٩ م) بسبب سياسة الولاة العباسيين التعسفية، وقتلوا نائب الوالي.

تصدى المأمون لهذه الحركة المعادية، وندب أخاه المعتصم لمحاربتها، ونجح في إخمادها. لكن الاضطرابات تجدَّدت على إثر مغادرته مصر، فأرسل الخليفة قائده التركي الأفشين في عام (٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م) فقضى عليها[١].

ويبدو أن الوضع الداخلي في مصر لم يهدأ تماماً، فقام الأقباط والعرب في عام (٢١٦ هـ/ ٨٣١ م) بحركة انتفاضية كبرى، فاضطر المأمون أن يذهب بنفسه إلى مصر لتهدئة الوضع، فأخمدها وسبى قسماً كبيراً من القبط، واصطحب معه زعماء الحركة إلى بغداد، وعزل عامل الخراج الذي تسبَّب بالاضطرابات[٢].

حركة بابك الخرّمي

هي أخطر حركة دينية المظهر، سياسية الهدف، عرفتها دولة الخلافة العباسية منذ قيامها، وتتميز بسعة انتشارها، وبتنظيم دعايتها، وببراعة قيادتها، وباتصالها بغير الفرس[٣]. وشكَّلت ذروة التآمر الفارسي المسلح ضد السلطة العربية العباسية.

اعتنق بابك مبادىء الخرمية على يد جاويدان[٤]، ولما توفي هذا الأخير زعمت

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٢٣.

(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٢٣ ـ ٤٢٥.

(٣) الدوري: ص ١٧٩. تُنسب الخرَّمية إلى كلمة خُرَّم الفارسية ومعناها لذيذ نظراً لتعاليمها الإباحية. راجع فيما يتعلق بالآراء حول التسمية: عمر: ص ٢٠٨ ـ ٢١٠.

(٤) الخرّمية فرق وأصناف، غير أنهم يجمعون على القول بالرجعة، ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم، ويزعمون أن الرسل كلهم، على اختلاف شرائعهم وأديانهم، يحصلون على روح واحد، وأن الوحي لا ينقطع أبداً وكل ذي دين مصيب عندهم إذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب، ولا يرون تهجيئه والتخطي إليه بالمكروه، ما لم يرم كيد ملتهم، وخسف مذهبهم. ويتجنبون الدماء جداً إلا عند راية الخلاف ويعظمون أمر أبي مسلم، ويلعنون أبا جعفر على قتله، ويكثرون الصلاة على مهدي بن فيروز لأنه من ولد فاطمة بنت أبي مسلم، ولهم أئمة يرجعون إليهم في الأحكام، ورسل يدورون بينهم ويسمونهم=

امرأته أن روح زوجها حلَّت فيه. وقد تقبّل بابك هذه الفكرة وراح يتصرف من خلالها[١]، والراجح أنه خلف جاويدان في زعامة الخرّمية في منطقة الجبال، ثم أخذ ينمّي حركته وينظمها في محاولة لتقوية قبضته للوصول إلى تحقيق غاياته السياسية والدينية. فالبابكية طائفة من الخرّمية تبع أتباعها بابك[٢] وهذا دليل على أن بابك وأتباعه كانوا ضد سلطة العرب السياسية، وضد الدين الإسلامي الذي يعتنقه هؤلاء. من هنا لا يمكننا أن ننظر إلى هذه الحركة إلا بأبعادها الدينية والعنصرية.

فمن الناحية الدينية، فقد اعتقد البابكيون بمبدأ التناسخ والرجعة، وقالوا بالاشتراكية والإباحية، منها استباحة النساء على الرضا منهن، ورفضوا التكاليف الدينية. وعليه تكون الأفكار البابكية منافية لمبادىء الدين الإسلامي[٣].

وحاول البابكيون حلَّ مشكلة التفاوت في توزيع الثروة بين الملاكين الكبار والفلاحين، وذلك بنزع الأراضي من أولئك وتوزيعها على هؤلاء الفلاحين. فمازيار الذي أظهر دين المحمّرة[٤] بجرجان، والذي كان على صلة قوية ببابك، أمر الفلاحين بالوثوب على أرباب الضياع وانتهاب أموالهم[٥].

ومن الناحية العنصرية، فإن حركة بابك هي تعبير عن تنفيس الكراهية التي كانت تمتلىء بها نفوس أقوام من الفرس ضد الدين الإسلامي الذي دفع العرب للقضاء على الأمبراطورية الفارسية، وضد العرب الذين أزالوا دولتهم. وربط بابك نفسه بأبي مسلم الخراساني، فادّعى أنه من نسل ابنته فاطمة، مما يدل على النزعة الفارسية القديمة.

= فريشتكَان، ولا يتبركون بشيء مثل تبركهم بالخمور والأشربة، وأصل دينهم القول بالنور والظلمة... ويقول بعضهم بإباحة النساء على الرضا منهن، وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع ما لم يعد على أحد بالضرر، راجع المقدسي: جـ ٤ ص ٣٠.

(١) كانت الفرقة الخرَّمية حين دخلها بابك تنقسم إلى قسمين عليهما رئيسان يتنازعان السيادة، يقال لأحدهما جاويدان وللآخر عمران.

(٢) الطبري: جـ ٨ ص ٥٥٦. البغدادي: ص ٢٥١. ابن النديم: الفهرست ص ٤٨٢.

(٣) المقدسي: جـ ٤ ص ٣٠.

(٤) كانت الخرَّمية أتباع بابك يدعون المحمرة، لأنهم صبغوا ثيابهم بالحمرة أيام بابك، كما كانت شعارهم.

(٥) الطبري: جـ ٩ ص ٨١.

اتسم بابك بالبراعة السياسية، حين انتهز الظروف الصعبة التي كانت تمر بها دولة الخلافة العباسية نتيجة للنزاع بين الأمين والمأمون، فأعلن حركته المعادية في عام (٢٠١ هـ/ ٨١٦ م) في الأقاليم الشمالية، وهي مناطق بعيدة عن سيطرة الدولة. وكانت جبال أذربيجان وأرّان مهد هذه الحركة ومركزها البذ[١].

وقد سلك بابك سياسة حكيمة في استقطاب الأتباع، ونجح في ضم كافة أجزاء أذربيجان، وصادفت دعوته نجاحاً ملفتاً في منطقة الجبال وهمذان وأصفهان وماسبذان ومهرجان، كما دخل في دعوته جماعة من أكراد الجبل وقسم كبير من الديلم وانتشرت في طبرستان وجرجان وأرمينيا وخراسان وسائر أرض الأعاجم[٢].

واستقطبت الحركة بعض الدهاقين والأمراء الفرس مع السواد. فاشتركوا جميعاً في الثورة المسلحة ضد العباسيين، وسعى بابك لاستمالة الأرمن، وتعاون مع البيزنطيين.

واستمر بابك في نجاح مطرد بفعل غياب القوة العباسية المنهمكة بالنزاعات الداخلية، وبإخماد الحركات المعادية في مصر وبلاد الشام والعراق، وبالحرب مع البيزنطيين، فكانت هذه الأوضاع عاملاً مساعداً في نجاحها العسكري. وكان اضطراب الوضع الداخلي في أذربيجان، آنذاك، عاملاً آخر ساعد على الإسراع في إعلان الثورة. فقد خرج حاتم بن هرثمة بأذربيجان عندما سمع بوفاة والده هرثمة بن أعين، وكاتب بابك، وهوَّن عليه أمر المسلمين[٣].

واتبع بابك سياسة عسكرية قائمة على هدم الحصون وتخريبها حتى يضعف دفاعات العباسيين، كما ركَّز جهوده على قطع خطوط تموينهم، ونهبِ قوافلهم حتى يشلَّ هجماتهم. واشتهر أتباعه الجبليون بمعرفة الطرق والمسالك الجبلية، ونصب الكمائن؛ فكانوا يحصرون الجند العباسي في الممرات والمضائق الجبلية، وينقضون عليهم، وهذا يوضح فشل الحملات العديدة التي وجهها المأمون لحربهم[٤].

---

(١) البذ: قرية بين أذربيجان وأرّان.

(٢) الدينوري: ص ٢٨٠. اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤١٩. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٣٠٦. البغدادي: ص ٢٥٢، ٢٦٨.

(٣) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤١٩.

(٤) أرسل المأمون، اعتباراً من عام ٢٠٤ هـ، عدة حملات ضد البابكيين بقيادة أشهر قادته =

ونتيجة لانتصاراته المتلاحقة، أضحى بابك يشكل قوة خطيرة ضد الدولة العباسية. وتوفي المأمون في عام (٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م) وبابك في أوج قوته، ومما يدل على خطورة حركته أن المأمون أوصى أخاه المعتصم، قبل وفاته، بضرورة التصدي لهذه الطائفة بكل ما أوتي من قوة[١].

العلم في عهد المأمون

اقترن اسم المأمون بتلك النهضة العلمية التي ازدهرت في العصر العباسي الأول بوجه عام، وفي عهده بوجه خاص. ويعتبر عهد هذا الخليفة من أرقى العهود العلمية في العصر العباسي الأول، حيث وصلت الجهود الثقافية إلى الذروة، وذلك بفعل عدة أسباب لعل أبرزها:

- أن المأمون أولع، منذ صغره، بالقراءة، فدرس العلم والفقه والتاريخ والحديث والتفسير واللغة، وكان محباً للعلم شغوفاً بالازدياد منه، وأباح المناقشات الفكرية وشارك فيها بنفسه وسخَّر كل الإمكانات وسلك كافة السبل ليعثر على الكنوز الفكرية في مكتبات القسطنطينية وقبرص[٢].

- شهد عصر المأمون نهضة علمية بفعل انكباب الناس على البحث العلمي، والإقبال على المعارف القديمة، وازدياد عدد العلماء في الأمصار.

- لقد ساعد نمو العلاقات بين الدول، آنذاك، والجهود التي بذلها العباسيون في إحلال السلام، بالإضافة إلى المبادلات التجارية؛ على ازدهار حركة التعريب التي وصلت إلى الذروة مما ولَّد مناخاً مناسباً للانكباب على العلم.

- عمدت الدولة العباسية، منذ عهد المنصور، إلى عقد الصفقات التجارية الخاصة بشراء الكتب والحصول عليها، وقد تدفع في سبيل ذلك أغلى الأثمان. وازدادت هذه الظاهرة في عهد المأمون، فكان على اتصال دائم بالأمبراطور البيزنطي

= أمثال يحيى بن معاذ وعيسى بن محمد وعلي بن صدقة ومحمد بن حميد الطوسي وغيرهم، إلا أنهم لم يحرزوا أي انتصار عليهم.

(١) راجع نص الوصية عند الطبري: جـ ٨ ص ٦٤٨ ـ ٦٤٩.

(٢) ابن النديم: ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

ليو الأرمني، وجرى إرسال البعثات إلى بلاد البيزنطيين لاختيار الكتب العلمية القديمة المخزونة والمدخرة فيها.

ـ لم تعد حركة التعريب حركة فردية إنما أضحت رسمية تُعنى بها الدولة وتشجعها وتساعدها وتنفق عليها الأموال[(١)].

والواقع أنه قُدِّر للمأمون أن يخدم الثقافة الإسلامية خلال حياته السياسية عن طريق اهتمامه الشخصي بجمع تراث الأمم القديمة، خاصة التراث اليوناني الذي شغف به. فأرسل بعثات علمية، للبحث عن الكتب اليونانية، ونقلها إلى بيت الحكمة الذي أنشأه في عام (٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م). ويعتبر هذا البيت بمثابة معهد علمي يضم مكتبة لنسخ الكتب الأجنبية، وداراً لتعريبها ودرسها، ويحتوي على مرصد فلكي. وأقام المأمون طائفة من المعرِّبين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال. فحوى هذا البيت تراث الثقافة الإسلامية إلى جانب تراث الثقافة الأجنبية.

تأثر الفكر الإسلامي، في عصر المأمون، بثلاثة موارد. فقد تأثر بالثقافة الإغريقية والهيللينية شكلاً وموضوعاً. فمن ناحية الشكل، فإن المنطق اليوناني أعطى الفكر الإسلامي صيغاً في طرق الجدل والبحث والتعبير والتدليل. فتأثرت أساليب المتكلمين بهذه الصيغ خاصة منطق أرسطو. أما من ناحية الموضوع فكان تأثيره كبيراً في تعاليم المتكلمين، وأثَّرت الأفلاطونية الحديثة في التصوف[(٢)].

وتأثر الفكر الإسلامي بالثقافة الهندية عن طريق الفتح والتجارة. وانتقل من خلال انتقال الهنود إلى مختلف الأمصار الإسلامية، حاملين معهم أفكارهم، وثقافتهم، كما تسربت بعض الأفكار الهندية عن طريق الفرس. وامتد التأثير الهندي إلى الإلّهيات والمقالات الأدبية والرياضيات والفلك[(٣)]. ويبدو أن الأثر العميق الذي تركته ثقافة الهند كان في الرياضيات والفلك. فقد لخَّص محمد الخوارزمي للخليفة المأمون تعريب إبراهيم الفزاري لكتاب الفلك الهندي. «السرهنتا»، وربما كان هذا الكتاب الوسيلة التي وصلت بها الأرقام العربية والصفر من بلاد الهند إلى بلاد الإسلام.

---

(١) محمود والشريف: ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٢) أمين، أحمد: ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢٧٧.

(٣) محمود والشريف: ص ٢٧٧.

ففي عام (١٩٨ هـ/ ٨١٤ م) استخدم الخوارزمي الأرقام الهندية في جداوله الرياضية، ثم نشر في عام (٢١٠ هـ/ ٨٢٥ م) رسالة تعرف بـ «الخوارزمي عن أرقام الهنود»[١].

كما تركت الثقافة الفارسية أثراً في اللغة العربية والأدب العربي بشكل خاص. فقد تسربت ألفاظ فارسية كثيرة إلى هذه اللغة كما عُرِّبت كتب فارسية في التنجيم والهندسة والجغرافيا والأدب والتاريخ[٢].

وعكف المعربون في عصر المأمون على تعريب أمهات الكتب من اللغات السنسكريتية والفهلوية واليونانية والسريانية. وبرز منهم، في بيت الحكمة، حنين بن إسحاق. وقد عرَّب كثيراً من آثار جالينوس وأرسطو وأفلاطون وأبقراط وبطليموس، وقد كافأه المأمون على عمله بمثل وزن الكتب التي عرَّبها، ذهباً[٣]. وأتم ابنه إسحاق أعمال التعريب، فعرَّب بعض أعمال أرسطو، وجميع آثار جالينوس الفلسفية والطبية، واشترك مع عدد من العلماء في وضع موسوعة جغرافية للخليفة[٤].

واستخدم المأمون جماعة من الفلكيين ليرصدوا الأجرام السماوية ويسجلوا نتيجة هذه الأرصاد، وليحققوا كشوف بطليموس، ويدرسوا كسوف الشمس[٥]. فنقل بهذه الطريقة، إلى العالم الإسلامي، كل التراث العلمي الضخم الذي خلفه علماء اليونان.

العلاقات الخارجية في عهد المأمون

العلاقة مع البيزنطيين

كادت الحرب أن تضع أوزارها بين المسلمين والبيزنطيين في عهد المأمون. فقد انهمك هذا الخليفة في فض النزاع الذي قام بينه وبين أخيه الأمين مما أتاح لبيزنطية المنهكة فرصة لالتقاط أنفاسها.

لذلك، شهدت الجبهة الإسلامية ـ البيزنطية ركوداً يكاد يكون تاماً باستثناء

(١) عمران، محمود: محاضرات في معالم التاريخ الإسلامي الوسيط: ص ٢٤٣.
(٢) محمود والشريف: ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.
(٣) عمران: ص ٢٤٢.
(٤) المرجع نفسه: ص ٢٤٤.
(٥) المرجع نفسه.

حالات قليلة. استمر هذا الوضع شبه المستقر حتى عام (٢٠٥ هـ/ ٨٢٠ م) حين تجدَّد النشاط العسكري، نسبياً، في عهد الأمبراطور ميخائيل الثاني. وقد استغل كل من المأمون وميخائيل هذا، الفتن والثورات التي قامت في وجه كل منهما لدعم موقفه. فعقد الأول اتفاقاً مع توماس الصقلبي الذي قاد ثورة مسلحة ضد النظام البيزنطي، في حين أجرى الثاني مفاوضات مع الخرّمية الذين ثاروا في وجه المأمون.

والواقع أن الحملات الإسلامية النشطة على الأراضي البيزنطية ابتدأت في عام (٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م) وجاءت رداً على الغارة التي نفَّذها الأمبراطور ثيوفيل ضد زبطرة بمساندة قوات من الخرّمية[١]. وقاد المأمون وابنه العباس عدة حملات عسكرية وتمكنا من فتح عدة حصون في منطقة كبادوكيا[٢] واستردا هرقلة ولؤلؤة[٣].

وفاة المأمون

عهد المأمون، قبل وفاته، إلى أخيه المعتصم بعد أن عزل أخاه القاسم وتجاوز ابنه العباس. وتوفي في البدندون وهو يغزو بلاد البيزنطيين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من (شهر رجب عام ٢١٨/ شهر آب عام ٨٣٣ م) وحمل إلى طرسوس ودفن فيها. واضطر المسلمون إلى إخلاء موقعهم فيما وراء جبال طوروس[٤].

---

(١) العريني الدولة البيزنطية: ص ٢٧٩.
(٢) الطبري: جـ ٨ ص ٦٢٣ ـ ٦٢٤.
(٣) المصدر نفسه: ص ٦٢٩. ڤازيلييف: العرب والروم ص ١٠٧ ـ ١٠٨، ١١١.
(٤) المصدر نفسه: ص ٦٥٠.

محمد المعتصم ـ هارون الواثق

أبو إسحاق محمد المعتصم

٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤١ م

التعريف بالمعتصم

هو أمير المؤمنين أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور العباسي، يقال له: «المثمن» لأنه ثامن ولد العباس وثامن الخلفاء من ذريته، ومنها أنه تمكَّن من إحراز ثماني فتوحات، وأقام في الخلافة ثماني سنوات وثمانية أشهر وثمانية أيام، وأنه ولد سنة ثمانين ومائة في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة، وأنه توفي وله من العمر ثمانية وأربعون عاماً، وأنه خلف ثمانية بنين وثماني بنات. كان أمياً لا يحسن الكتابة، إلا أنه يوصف بأنه جندي شجاع، مدرَّب في الحرب، كما يوصف بقوته الجسمية[١]. بويع له بالخلافة يوم مات أخوه المأمون بطرسوس. وقد سعى بعض الأمراء إلى تولية العباس بن المأمون، لكن هذا الأخير أسرع إلى مبايعة عمه احتراماً لوصية والده وتسكيناً للجند[٢].

حكم المعتصم الدولة العباسية حكماً استبدادياً، مقروناً بشيء من العطف وحسن التدبير، وتميز بالشجاعة والإقدام، وشدة البأس والمهابة. أولع بالعمارة والزراعة وكرَّس وقته لتشييد القصور وتخطيط الحدائق والبساتين.

---

(١) ابن كثير: جـ ١٠ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٣٠.

الأوضاع الداخلية في عهد المعتصم

الحركات الطالبية

لم تكن سياسة المعتصم نحو الطالبيين أقل شدة من سياسة الخلفاء العباسيين الذين حكموا قبله، باستثناء المأمون. وقد خرج في عهده محمد بن القاسم بن علي الزيدي في عام (٢١٩ هـ/ ٨٣٤ م) بالطالقان، فالتف حوله كثير من سكان كور خراسان[١]. لكن حركته لم تكن منظمة، ولم تشكل خطراً جديًّاً على حكم المعتصم، الذي أمر قائده عبد الله بن طاهر، أمير خراسان، بالتصدي له، وتمكّن هذا القائد من هزيمته، وقبض عليه، وأرسله إلى سامراء حيث سجن فيها، إلا أنه فرّ من سجنه بمساعدة رجال من شيعته، وتوارى أيام المعتصم والواثق ثم أخذ في أيام المتوكل، فسجن ومات في سجنه[٢].

ويبدو أن عوامل إخفاق حركته، رغم انتشارها، تعود إلى ثلاثة عوامل:

- قوة الدولة العباسية في عهد المعتصم.
- اعتقاد محمد بن القاسم بآراء الزيدية والجارودية[٣] التي لم تكن ترضي كثيراً من الزيديين، خاصة زيدية الكوفة، بالإضافة إلى بغض الشيعة الإمامية للشيعة الزيدية من أتباع أبي الجارود.
- اعتقاد محمد بن القاسم بآراء المعتزلة[٤].

وتوفي في عهد المعتصم في عام (٢٢٠ هـ/ ٨٣٥ م) محمد الجواد بن علي الرضا، تاسع أئمة الشيعة الإمامية الاثني عشرية. وقد اطمأن المعتصم لهذه الوفاة، بعد أن خشي أن ينافسه على الحكم، ويطالبه بتولي الخلافة، على اعتبار أن أولاده من سلالة المأمون من زوجته أم الفضل.

---

(١) المسعودي: جـ ٣ ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥.

(٢) الأصفهاني: ص ٤٧٢.

(٣) الجارودية فرقة إسلامية تُنسب إلى أبي الجارود. اعتقد أتباعها بأن النبي ﷺ نص على إمامة علي بن أبي طالب بالوصف دون التسمية. راجع الشهرستاني: جـ ١ ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٤) الليثي: ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

حركة الزط

من المصاعب التي واجهت المعتصم وأثقلت كاهله أثناء خلافته، حركة الزط، الذين تمكّنوا من السيطرة على طريق البصرة، وهدَّدوا مرافق الدولة، وفرضوا المكوس على السفن، وحالوا دون وصول الإمدادات إلى بغداد، فوجَّه إليهم قائده عجيف بن عنبسة في عام (٢١٩ هـ/ ٨٣٤ م) لصدهم في البطيحة، وشدَّد عليهم حتى طلبوا الأمان، فنفاهم الخليفة إلى عين زربة[١].

القضاء على حركة بابك

كان المعتصم عند حسن الظن به. فقد صعَّد حربه ضد البابكية حتى قضى على حركتهم في عام (٢٢٣ هـ/ ٨٣٨ م)، فقد ركَّز جهوده، بعد استقرار الوضع الداخلي، على حرب بابك وأرسل الحملة تلو الحملة ضده. ومن جهة أخرى، فقد تفاقم خطر بابك بعد أن دخلت أذربيجان في حوزته، فنشر الرعب في المنطقة الممتدة حتى أيران. وتمكنت إحدى الفرق العباسية بقيادة إسحاق بن إبراهيم بن مصعب أن تقضي على أتباعه في إيران في عام (٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م)[٢].

وعين المعتصم، في عام (٢٢٠ هـ/ ٨٣٥ م)، أعظم قادته وهو الأفشين حيدر بن كاوس أميراً على الجبال[٣] وأمره بقتال بابك. تميز هذا القائد بالحذر الشديد، والخبرة بالمسالك الجبلية. فاتبع خطة عسكرية مرنة تستند على التقدم البطيء. فعسكر في برزند من نواحي تفليس، وضبط الحصون والطرق فيما بينه وبين أردبيل، ووزع جنده على مختلف القلاع والمواقع[٤]. وكان المعتصم يمده بالإمدادات والمؤن، ونفقات الجند باستمرار. ورتّب البريد، ومهّد الطرقات لتأمين المواصلات والاتصالات بسرعة وسلام، حتى أضحىٰ تبادل الرسائل بين سامراء ومعسكر الأفشين يستغرق مدة أربعة أيام أو أقل[٥]، كما استُعمل الحمام الزاجل لنقل الأخبار، لأول مرة، في هذه

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ٨ ـ ٩.
(٢) المصدر نفسه: جـ ٨ ص ٦٦٧ ـ ٦٦٨.
(٣) المصدر نفسه: جـ ٩ ص ١١.
(٤) المصدر نفسه: ص ١١ ـ ١٢.
(٥) يحدد الطبري طرق نقل الإمدادات بين سامراء وبرزند مكان معسكر الأفشين: المصدر =

الحرب[1] وكان يُشرف على سير المعارك من سامراء، ويضع الخطط العسكرية بنفسه.

وبذلك أضحى للمسلمين سلسلة من الحصون المتماسكة في مواجهة بابك.

ولجأ الأفشين إلى استعمال الأسلوب التجسسي كي يضعف خصمه ويطَّلع على خططه. فكان يستقطب من يظفر به من جواسيسه، فيضاعف لهم العطاء ويسخرهم في التجسس له[2].

أدرك بابك على الفور أنه يواجه هذه المرة قائداً محنكاً، وحتى يخفف الضغط عن قواته في أذربيجان، ناشد الأمبراطور البيزنطي ثيوفيل بمهاجمة الأراضي الإسلامية، ووعده بأن يعتنق النصرانية[3].

نتيجة هذا الاحتقان كان لا بدَّ أن يقع الصدام بين الجانبين، بعد هذه الاستعدادات العسكرية، فأصدر الخليفة أوامره إلى الأفشين ببدء العمليات العسكرية وحدَّد له مدينة البذ كأول هدف عسكري، بعد اضطرار بابك إلى التحصن فيها على أثر معركة أرشق[4].

لم يتسرع الأفشين في تقدمه نحو البذ، وأخذ يزحف متأنياً حتى وصلها وضرب عليها حصاراً مركزاً، متخذاً من مدينة روذ الروذ معسكراً جديداً لقواته. وحاول بابك في غضون ذلك استمالته لكنه لم ينجح. وبقي الأفشين محاصراً البذ حتى تمكّن من دخولها يوم الجمعة في (العاشر من شهر رمضان عام ٢٢٢ هـ/ شهر آب عام ٨٣٧)[5].

هرب بابك، بعد سقوط البذ، إلى أرمينيا، فكتب الأفشين إلى ملوكها وأمرائها بسد الطرق عليه. وتذكر المصادر أن البطريق سهل بن سنباط تعرَّف على مكان اختبائه فأمَّنه ثم غدر به وسلمه إلى الأفشين[6].

وجيء ببابك إلى سامراء في (شهر صفر عام ٢٢٣ هـ/ شهر كانون الثاني عام

= نفسه جـ ٩ ص ١٢ ـ ١٣.

(١) الدوري: ص ١٨٥.

(٢) الطبري: جـ ٩، ص ١٣.

(٣) ڤازيلييف: ص ١٤٢. Bury:p. cit. P 259

(٤) راجع فيما يتعلق بمعركة أرشق: الطبري: جـ ٩ ص ١٣ ـ ١٧.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣١ ـ ٤٥.

(٦) المصدر نفسه: ص ٤٥ ـ ٥١.

٨٣٨ م) ومعه أخوه عبد الله. وكان يوم وصوله يوماً مشهوداً. فقد ألبسه الجند ثيابه الأرجوانية، ووضعوه على ظهر فيل، وطافوا به في شوارعها. وعندما أضحى في مجلس الخليفة نزع عنه الجند ما كان يلبسه، ثم قطعوا يديه ورجليه وراحوا يغرزون سيوفهم ببطء في جسده، متجنبين إصابته بمقتل ليطيلوا أمد عذابه. وأخيراً قطعوا رأسه. وأرسله الخليفة إلى بغداد حيث عرض على الناس، بينما صلبت جثته وعرضت في سامراء. وصلب معه أخوه عبد الله[١]. فانتهت بذلك هذه الحركة التي شغلت جانباً من اهتمامات الخلافة منذ عهد المأمون.

حركة المازيار

ما كادت دولة الخلافة العباسية تتخلص من الأخطار التي كانت تمثلها حركة بابك الخرّمي في المناطق الواقعة إلى الغرب من بحر قزوين، حتى واجهتها حركة فارسية أخرى، تمثلت في حركة المازيار بن قارن آخر الأمراء القاريانيين بطبرستان، الذي اتخذ من موطنه مسرحاً لنشاطه الثوري المعادي للدولة.

اعتنق المازيار الإسلام وتسمى باسم محمد وولاّه المأمون على طبرستان ورويان ودنباوند ولقبه الأصبهذ[٢].

ويبدو أنه كان ذا نزعات استقلالية، فأراد الانفصال عن جسم الدولة. فاستغل الخصومة بين الطاهريين، الذين كان يكرههم، وبين الأفشين الطامع في ولاية خراسان ليرفع راية الثورة. وكان هذا الأخير قد كاتب المازيار وشجعه على إعلان العصيان على حكمهم، آملاً أن لا يتمكن هؤلاء من إخضاعه، فيتخذ، عندئذ، ذلك ذريعة لانتزاع خراسان منهم[٣].

لكن هذه العلاقة بين الأفشين والمازيار لم تكن بهذه السطحية وأن الصلة التي جمعت الرجلين بعيدة الغور عميقة الجذور. فقد اعترف المازيار بأن الأفشين حرَّضه على الخروج والعصيان لمذهب اجتمعوا عليه، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ٥٢ ـ ٥٥.
(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨.
(٣) المسعودي: جـ ٣ ص ٤٧٣. الطبري: جـ ٩ ص ٨٠.

والمجوس[1] كما كان المازيار يكاتب بابك، ويعرض عليه المساعدة[2] والراجح أنه كان على مذهب الخرّمية، ذلك المذهب الذي أضحى يمثل ثورة الوعي الفارسي ضد سلطان العباسيين وضد المجتمع الذي أقاموه[3]، وأن الدوافع التي حركت بابك، هي التي حملته على العصيان، خاصة إذا علمنا أنه كان حديث عهد بالإسلام، أي إن هذه الدوافع كانت مزيجاً من الدوافع السياسية والعنصرية والدينية[4].

وتدل التدابير التي نفّذها المازيار بعد إعلان حركته، على نزعة الخرّمية الاشتراكية. إذ أراد مصادرة الأراضي من الملاكين وتوزيعها على الفلاحين[5] ولهذه النزعة معنى سياسي إلى جانب المعنى الاقتصادي خاصة إذا علمنا أن قسماً كبيراً من الملاكين كانوا من العرب ومواليهم، لذلك أمر المازيار عامله على سرخستان بأن يجمع مائتين وستين من أبناء القادة ويسلمهم إلى الفلاحين ليقتلوهم باعتبارهم أناساً يشكلون خطراً، كما أغرى هؤلاء بقتل أرباب الضياع، وأباح لهم منازلهم وحُرمهم، في محاولة تهدف إلى ضم قوى الطبقات العامة ودفعها للتخلص من السلطان العربي[6].

وقد وقف الخليفة على أهداف هذه الثورة، حين ضبط عبد الله بن طاهر رسالة من الأفشين إلى المازيار، وبعد أن حصل هو على الرسائل الأخرى من المازيار نفسه[7].

والواقع أن هذه الحركة ولدت ميتة، ذلك أن توقيت إعلانها في عام (٢٢٤ هـ/ ٨٣٩ م) لم يكن مناسباً. فقد كانت دولة الخلافة العباسية آنذاك في وضع مستقر، وعلى درجة عالية من القوة، وذلك بعد أن تخلصت من العديد من الحركات المعادية التي قامت في وجهها، وبالتالي فإن القضاء على حركة المازيار لم يكلفها

---

(١) المسعودي: جـ ٣ ص ٤٧٣.
(٢) الطبري: جـ ٩ ص ٨١.
(٣) الدوري: ص ١٨٨.
(٤) العمرو: ص ٣٦٠.
(٥) الطبري: جـ ٩ ص ٨١.
(٦) المصدر نفسه: ص ٨٦ ـ ٨٧.
(٧) راجع فيما يتعلق بهذه الرسائل: المصدر نفسه: ص ٨١ ـ ٨٤، ٨٩ ـ ٩٣.

الكثير من الجهد[1] . أما نهاية المازيار فقد كانت شبيهة بنهاية بابك حيث قتله الخليفة، ثم صلبه إلى جانب بابك[2] .

ظهور العنصر التركي

بويع للمعتصم بالخلافة في ظل ظروف من الصراع العنيف بين العرب من ناحية، والفرس الذين حظوا بعطف المأمون خلال السنوات الأولى من خلافته، من ناحية أخرى، واختلال في التوازنات بين العناصر التي تكونت منها الدولة العباسية. فقد ساءت العلاقات بين العباسيين والخراسانيين منذ انتقال المأمون من مرو. وظهر أثر ذلك في القضاء على بني سهل وقيام الحركات المناهضة للدولة ذات الخلفيات الفارسية، وبالتالي استحالة التوفيق بين تطلعات الخراسانيين ومصالح العباسيين. وبدأت ثقة المعتصم بالفرس تضعف.

ومن جهة أخرى، لم يركن المعتصم إلى العنصر العربي، ولم يثق بالعرب، نظراً لكثرة تقلبهم، واضطرابهم، وقيامهم ضد الخلفاء، بالإضافة إلى أن هؤلاء فقدوا كثيراً من مقومات قوتهم السياسية والعسكرية فأصبحوا أقل خطورة وأضعف شأناً.

حملت هذه المعطيات المعتصم على أن يوكل أمر سلامته الشخصية إلى فرقة من العنصر التركي، وقد توافقت طباعه النفسية وصفاته الجسدية من حيث القوة والشجاعة ومتانة الجسم، مع صفات أخواله الأتراك كأمة عنيفة محاربة شديدة البأس. وأضحى لهذا العنصر أثر كبير في الحياة السياسية والاجتماعية بالرغم من أن الأتراك لم يكونوا أهل حضارة عريقة. وأصبح الحرس التركي يمثل دعامة من دعائم الخلافة أيام حكمه.

والواقع أن الأتراك نفذوا إلى المجتمع الإسلامي منذ العهد الأموي على أثر الفتوحات الإسلامية لبلاد ما وراء النهر، لكن لم يكن لهم أي تأثير سياسي في المجتمع الإسلامي. إلا أن هؤلاء، وقد دخلوا في صميم الحياة الإسلامية منذ العهد العباسي، وبدأ عددهم يتزايد، أخذوا يظهرون على مسرح الأحداث في بغداد ظهوراً واضحاً، منذ عهد المأمون الذي استخدمهم في الجيش، ليحقق نوعاً من التوازن بين العنصرين العربي والفارسي.

---

(١) العمرو: ص ٣٦٠ ـ ٣٦١.

(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٣٨.

وتلقف المعتصم هذه العصبية الجديدة النامية لاستغلال مواهبها العسكرية للحفاظ على دولته، والإبقاء على خلافته، في ظل الصراع العربي ـ الفارسي. فاستخدم الأتراك في الجيش على نطاق واسع، وجعلهم تحت إمرة قادة منهم، مسدِّداً بذلك ضربة عنيفة للقادة وللجند العرب، ولسياسة المنصور التقليدية التي كانت تستهدف حفظ التوازن في الجيش بين الفرق الأعجمية، والفرق العربية[1].

أما مصادر هؤلاء الأتراك، فقد جلبهم المعتصم من أقاليم ما وراء النهر، مثل سمرقند وفرغانة وأشروسنة والشاش وخوارزم، وكان ذلك إما عن طريق النخاسة، أي الشراء، وإما عن طريق الأسر في الحروب، وإما عن طريق الهدايا التي كان يؤديها ولاة هذه الأقاليم على شكل رقيق، إلى الخليفة. ومن ثم أضحت بلاد ما وراء النهر مصدراً هاماً للرقيق التركي[2].

ومكَّن المعتصم للأتراك في الأرض، فقرَّبهم إليه، وخصَّهم بالنفوذ، وقلَّدهم قيادة الجيوش، وجعل لهم مركزاً في مجال السياسة، وأسكنهم سامراء التي بناها خصيصاً لهم. ومن جهة ثانية، حرم العرب مما كان لهم من قيادة الجيوش، ثم أسقط أسماءهم من الدواوين، وقطع أعطياتهم.

كان لسياسة المعتصم هذه، نتائج آنية وبعيدة.

فمن حيث النتائج الآنية، فقد أغضبت هذه السياسة العرب، فانتفضوا على حكم المعتصم، كما دبروا مؤامرة لاغتياله بزعامة عجيف بن عنبسة والعباس بن المأمون، لكن المؤامرة فشلت. وكانت ردة فعل المعتصم أن تخلَّص من العباس في الوقت الذي توفي فيه عجيف، ثم أقصى العرب والفرس تدريجياً وأسقطهم من ديوان العطاء[3].

ومن حيث النتائج البعيدة، فقد تسبَّبت هذه السياسة بحدوث أضرار بالغة، وخطيرة على دولة الخلافة العباسية، إذ خرجت بها عن مسارها العربي ـ الفارسي، وأدَّت إلى إضعاف سلطة الخليفة، وربما كان نشوء الدول الانفصالية، في مختلف أرجاء الدولة اعتباراً من العصر العباسي الثاني، أحد هذه النتائج، لكنها لم تظهر

---

(١) الدوري: ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

(٢) العبادي: ص ١١٧.

(٣) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٣٧.

بوضوح في عهد المعتصم، وسوف تنجلي فيما بعد، منذ مقتل المتوكل في عام (٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م).

القضاء على الأفشين

استغل بعض القادة الأتراك في الدولة العباسية، مناصبهم القيادية، ونفوذهم في البلاط ليحققوا طموحاتهم بالانفصال عن الدولة. وكان من بين هؤلاء الذين تمتعوا بنزعات استقلالية، القائد التركي الأفشين الذي أراد تأسيس دولة انفصالية له في أشروسنة. فراح يمهد طريق الوصول إلى هدفه بالخطوات التالية:

- حاول استقطاب السكان حتى ينفضوا عن الوالي العباسي ويلتفوا حول دعوته.
- حاول إزاحة والي خراسان عبد الله بن طاهر الذي وقف في وجهه.
- حرَّض كلاً من المازيار ومنكجور الفرغاني بالثورة على حكم المعتصم.

فشل الأفشين في تحقيق هدفه، بعد أن انكشفت مؤامرته[1]. فتغيرت سياسة الخليفة تجاهه، وأدرك من جانبه هذا التغير مما دفعه إلى التفكير بالتخلص من الخليفة نفسه، لكن قُبض عليه، وحاكمه المعتصم. لكن محضر المحاكمة لم يشر إلى المؤامرة، وإنما هي مجموعة تهم أريد بها إثبات أن الأفشين لم يعتنق الإسلام حقيقة، ولا يزال يتعصب للمجوسية، ويسعى للقضاء على دولة الخلافة العباسية. ولعل هدف المعتصم، كان منع تسرب النفرة والشك إلى القادة الأتراك الآخرين. وتوفي الأفشين في سجنه في عام (٢٢٦ هـ/ ٨٤١ م)[2].

العلاقات الخارجية في عهد المعتصم

العلاقة مع البيزنطيين

توقف القتال بين المسلمين والبيزنطيين في السنوات الأولى لخلافة المعتصم، نتيجة انهماك الخلافة بالقضاء على ثورة بابك الخرّمي. وفي المقابل فقد انصرف الأمبراطور البيزنطي ثيوفيل إلى التخطيط لاستعادة جزيرة صقلية من أيدي المسلمين،

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٣٩. الطبري: جـ ٩ ص ١٠٤.
(٢) الطبري: المصدر نفسه ص ١١٤.

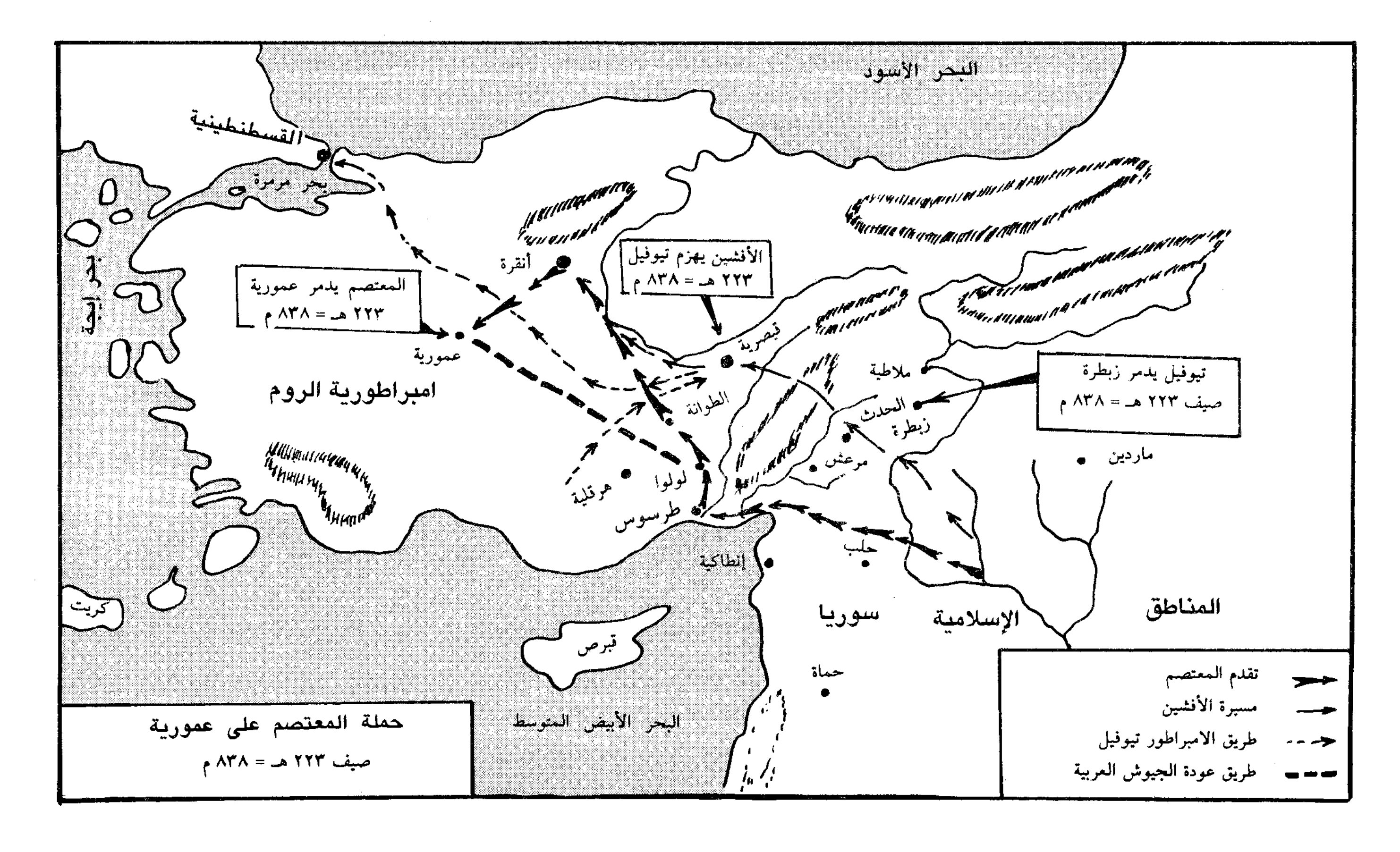
فشهدت مناطق الحدود هدوءاً يكاد يكون تاماً. إلا أنه ما كاد يمضي على خلافة المعتصم أربعة أعوام حتى رأى ثيوفيل أن يعود إلى قتال المسلمين على الحدود الشرقية لأمبراطوريته، وقد شجعه على ذلك نجاح المفاوضات التي أجراها مع بابك الذي وعده باعتناق المسيحية مقابل مساعدته في قتالهم، وظناً منه أن باستطاعته إحراز نصر عسكري عليهم فأغار على منطقة أعالي الفرات ليؤمن اتصالاً مع الخرّمية في أرمينيا وأذربيجان، واستولى في طريقه على زبطرة مسقط رأس والدة الخليفة وأسر من فيها من المسلمين ومثّل بهم وسبى المسلمات، كما هاجم سميساط وملطية وأحرقها[1].

اعتبر المعتصم هذه الغارة البيزنطية تحدياً شخصياً له قبل أن تكون تحدياً للخلافة العباسية، فقبل التحدي وعزم على أن يثأر لزبطرة. فما كاد ينتهي من إخماد ثورة بابك الخرمي، في عام (٢٢٣ هـ/ ٨٣٨ م)، حتى أعدَّ جيشاً كثيفاً بهدف توجيه ضربة قاصمة للأمبراطورية، تقضي بدورها على هيبة الأمبراطور. وخرج هو على رأس هذا الجيش متجهاً صوب عمورية مسقط رأس أسرة ثيوفيل عازماً على تدميرها. والجدير بالذكر أن الاستيلاء على عمورية يعتبر خطوة للوصول إلى القسطنطينية[2].

غادر الخليفة سامراء وهو على تعبئة، وجعل أنقرة أول هدف للحملة، فعين أشناس التركي قائداً للمقدمة، وإيتاخ قائداً للميمنة، وجعفر بن دينار على الميسرة، وعجيف بن عنبسة على القلب، وشارك الأفشين في الحملة على رأس فرقة عسكرية، وكتب على ألوية الجيش وتروسه «عمورية» وقرر دخول الأراضي البيزنطية من ثلاثة محاور. فتوجه جيش الشرق بقيادة الأفشين نحو مدينة سروج ليدخل الأراضي البيزنطية في يوم محدد عن طريق درب الحدث[3]، أما جيش الغرب، بقيادة أشناس، فكان عليه أن يتقدم عبر جبال طوروس إلى مدينة الصفصاف الواقعة قرب قلعة لؤلؤة على أن يلتقي بجيش الشرق في سهل أنقرة. وقاد الخليفة القسم الثالث من الجيش، وزحف مباشرة نحو أنقرة. ورسم الخليفة خطته التكتيكية على أن تجتمع الأقسام الثلاثة عند سهل أنقرة لمهاجمة المدينة[4].

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ٥٦.
(٢) المصدر نفسه: ص ٥٧.
(٣) فازيلييف: ص ١٣٣.
(٤) الطبري: جـ ٩ ص ٥٧ ـ ٥٨.


البحر الأسود
القسطنطينية
بحر مرمرة
بحر إيجة
المعتصم يدمر عمورية
٢٢٣ هـ = ٨٣٨ م
عمورية
أنقرة
الأفشين يهزم تيوفيل
٢٢٣ هـ = ٨٣٨ م
قيصرية
امبراطورية الروم
الطوانة
ملاطية
تيوفيل يدمر زبطرة
صيف ٢٢٣ هـ = ٨٣٨ م
الحدث
زبطرة
مرعش
ماردين
هرقلة
لولوا
طرسوس
إنطاكية
حلب
كريت
قبرص
سوريا
الإسلامية
المناطق
حماة
حملة المعتصم على عمورية
صيف ٢٢٣ هـ = ٨٣٨ م
البحر الأبيض المتوسط
تقدم المعتصم
مسيرة الأفشين
طريق الامبراطور تيوفيل
طريق عودة الجيوش العربية

خريطة رقم (٣)

وغادر القسطنطينية في هذه الأثناء، الأمبراطور البيزنطي ثيوفيل بعدما علم بما وضعه الخليفة من خطط عن أنقرة وعمورية، وتوقف في دوريليوم على بعد ثلاثة أيام من عمورية وأمر بتحصين هذه الأخيرة، وبعث الإمدادات إليها. أما الخطة القتالية التي وضعها فكانت تقضي بمهاجمة القوات الإسلامية أثناء زحفها نحو الشمال باتجاه أنقرة، ومن أجل ذلك عسكر على نهر هاليس، واستعد لعبوره ليفاجىء المسلمين ظناً منه بأن هذه القوات سوف تجتاز درب كيليكيا في طريقها إلى أنقرة، ولم يكن يعلم شيئاً عن جيش الافشين[1].

ثم حدث أن أصدر الخليفة أوامره بالتوقف ريثما يستطلع أخبار الجيش البيزنطي، وبعث برسالة إلى أشناس وكان وقتئذ قد بلغ مرج الأسقف القريب من لؤلؤة يبلغه بتطورات الموقف العسكري، ويأمره بالتوقف حتى توافيه الساقة لأنها تحمل العتاد الحربي[2].

ويبدو أن ثيوفيل علم بتقدم جيش الشرق بقيادة الأفشين فغيَّر خطته، واضطر أن يقسم جيشه إلى قسمين، ترأس هو القسم الأول ليواجه الأفشين، في حين ترك القسم الثاني من الجيش للتصدي لجيش الخليفة حتى يمنعه من التقدم، محاولاً بذلك منع التقاء الجيشين الإسلاميين[3].

ولما وقف المعتصم على خطة ثيوفيل أراد أن ينذر الأفشين بمسير الأمبراطور إليه. لكن الأفشين كان قد توغل في آسيا الصغرى، فلم يبلغه أي كتاب. أما أشناس فقد تابع زحفه باتجاه أنقرة وسار الخليفة وراءه، بينهما مسيرة يوم واحد دون أن يعلما شيئاً عن مصير الأفشين[4].

وفي الوقت الذي كان فيه جيش الخليفة يقترب من أنقرة، كان الأفشين يجتاز سيواس إلى توقات، فتحتم عليه، عند ذاك، أن يشتبك في معركة مع الأمبراطور. ابتدأت المعركة في ساعات الصباح الأولى من يوم الخامس والعشرين من (شهر شعبان

---

(١) Bury: op. cit. P 264

(٢) الطبري: جـ ٩ ص ٥٨.

(٣) Bury: op. cit. P 264

(٤) الطبري: جـ ٩ ص ٥٩ ـ ٦٠.

عام ٢٢٣ هـ/ شهر تموز عام ٨٣٨ م)، وعلى الرغم من أن البيزنطيين أحرزوا نصراً أولياً إلا أن فرسان المسلمين حوَّلوا الموقف من الهزيمة إلى النصر. ووقع الاضطراب في صفوف البيزنطيين عندما شاع خبر بأن الأمبراطور لقي مصرعه والمعركة دائرة، فانهزم البيزنطيون وهربوا لا يلوون على شيء. وترك الأمبراطور ساحة المعركة بعد قليل من العناء، وسار حتى بلغ مدينة خليوكومن، شمالي أماسيا حيث جمع فلول جيشه الهارب، وعاد إلى معسكره على نهر هاليس، وأرسل أحد خصيانه إلى أنقرة للدفاع عنها لكنه وصل بعد فوات الأوان. ذلك أنه حدث أن اجتمعت الجيوش الإسلامية المتفرقة في سهل أنقرة وأنزلوا بالمدينة الخراب والدمار[١].

لم يسع ثيوفيل بعد هزيمته وسقوط أنقرة، إلا أن يرسل إلى المعتصم يطلب الصلح معتذراً عن مذابح زبطرة ومتعهداً بإعادة بنائها وإعادة السكان إليها، وإطلاق سراح من عنده من الأسرى المسلمين، إلا أن الخليفة رفض عرض الصلح، وتابع زحفه باتجاه عمورية. أما ثيوفيل فقد توجه نحو دوريليوم منتظراً ما سوف يحل بعمورية من المصير المحتوم[٢].

وتقدم الخليفة باتجاه عمورية بعد تدمير أنقرة فوصلها في سبعة أيام وشرع في حصارها، وعلى الرغم من مناعتها وحصانتها إلا أنها استسلمت في السابع عشر من (شهر رمضان عام ٢٢٣ هـ/ شهر آب عام٨٣٨ م) بعد أسبوعين من الحصار[٣] فأسر المسلمون كثيراً من أهلها وغنموا غنائم وفيرة، وهدم المعتصم أسوارها، وأمر، بالمقابل، بترميم زبطرة وتحصينها.

كشفت حملة المعتصم عن ضعف الأمبراطورية البيزنطية، ممّا شجَّع الخليفة على مواصلة زحفه باتجاه القسطنطينية، التي باتت الطريق إليها مفتوحة، إلا أنه اضطر للعودة إلى العراق لأنه كشف مؤامرة دبرها الجند لصالح العباس[٤].

وفي مطلق الأحوال، تبقى حملة المعتصم إلى بلاد البيزنطيين مميزة عن

---

(١) المصدر نفسه: ص ٦١ ـ ٦٢. Bury: op. cit. P 265
(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٣٦.
(٣) المصدر نفسه: ص ٤٣٧.
(٤) الطبري: جـ ٩ ص ٧١ ـ ٧٧. المسعودي: جـ ٣ ص ٤٧٣.

الحملات السابقة التي كانت تستهدف الأطراف. فعمورية تقع بعيداً في جوف آسيا الصغرى، إذ اعتبرها الطبري «من أعظم ما يُقصد له من بلاد الروم»[١].

وما ترتب على غزو المعتصم من كوارث في آسيا الصغرى، وما جرى من تقدم مسلمي إفريقية في جزيرة صقلية، وما ألحقه المسلمون في جزيرة كريت بالأمبراطورية من هزائم، كل ذلك أقنع ثيوفيل بأن الأمبراطورية عاجزة عن مواجهة قوة المسلمين المتزايدة، فمال إلى الصلح.

وأخيراً تقررت الهدنة بين الطرفين في عام (٢٢٧ هـ/ ٨٤٢ م)[٢]. ثم حدث أن توفي كل من المعتصم وثيوفيل في العام نفسه. فتولى الخلافة الواثق، في حين تولى عرش الأمبراطورية البيزنطية ميخائيل الثالث بوصاية والدته تيودورا.

وفاة المعتصم

احتجم المعتصم في اليوم الأول من (شهر محرم عام ٢٢٧ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٨٤١ م) فأصيب، عقب ذلك، بالمرض الذي قضى عليه لثمان ليالٍ مضت من شهر ربيع الأول أواخر شهر كانون الأول من العام الميلادي المذكور وكان قد ولّى عهده ابنه هارون، ولم يشرك معه في الولاية أحد[٣].

---

(١) المصدر نفسه: ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) Canb. Med. Hist: IV P 130

(٣) الطبري: جـ ٩ ص ١١٨ ـ ١١٩.

أبو جعفر هارون الواثق

٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ/ ٨٤١ ـ ٨٤٧ م

التعريف بالواثق

هو هارون بن المعتصم، ويكنى أبا جعفر. أمه أم ولد تُدعى قراطيس. بويع له بالخلافة بعهد من والده المعتصم في اليوم الذي توفي فيه هذا الأخير، يوم الأربعاء لثمان ليالٍ مضت من شهر ربيع الأول.

اشتهر الواثق برجاحة العقل، وبحسن التصرف السياسي في عهد والده مما دفع أباه إلى الاعتماد عليه في أثناء غيابه عن مقر الخلافة، ثم ولاّه عهده. أولع بالعلم والأدب. كان شاعراً له شعر حسن وأجزل العطاء للشعراء الذين زخر بهم عصره، وقد أفرد في قصره مجلساً للمناقشات الفكرية مقتدياً، في ذلك، بالمأمون وكان يقال له «المأمون الصغير»، واقتدى بأبيه في الاعتماد على العنصر التركي. فأحلّ الأتراك في المناصب القيادية محل العرب[1].

الأوضاع الداخلية في عهد الواثق

يُعتبر عهد الواثق فترة انتقال بين عصرين مختلفين من عصور دولة الخلافة العباسية. وشهد، في كثير من مظاهره، ما كان سائداً في عهد المأمون وعصر والده المعتصم.

تصَدى الواثق، في بداية عهده، لحركات الأعراب من بني سليم وغيرهم من البدو الذين عاثوا فساداً في جهات المدينة، وفرض الأمن على الطرقات التجارية في شمالي الجزيرة العربية[2].

اعتنق الواثق عقيدة المعتزلة المتعلقة بخلق القرآن، وانتهج سياسة والده في

---

(١) راجع سيرة الواثق عند ابن كثير جـ ١٠ ص ٢٩٧، ٣٠٨ ـ ٣١٠ ومحمد بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات جـ ٤ ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠.

(٢) الطبري: جـ ٩ ص ١٢٩ ـ ١٣١.

الانتصار لها ومساندتها، وتشدَّد في فرض آرائه الدينية على الناس، مما أدَّى إلى بروز حركة تذمر من قِبَل العامة والفقهاء. فتآمر عليه أهل بغداد، وتنادوا إلى عزله، ويبدو أنه تراجع عن عقيدته هذه قبل موته[١].

اعترى إدارة الواثق الضعف والتحكم من قبل الولاة والبطانة. وتفشَّت الرشوة في عهده وكثر الفساد. انتهج هذا الخليفة سياسة التشدُّد تجاه عماله وكتَّابه مقتفياً أثر جده الرشيد، وتبنَّى قوله المشهور «... إنما العاجز من لا يستبد». فنكَّب بكتّابه وانتزع الأموال منهم متهماً إياهم بالإثراء على حساب الدولة[٢].

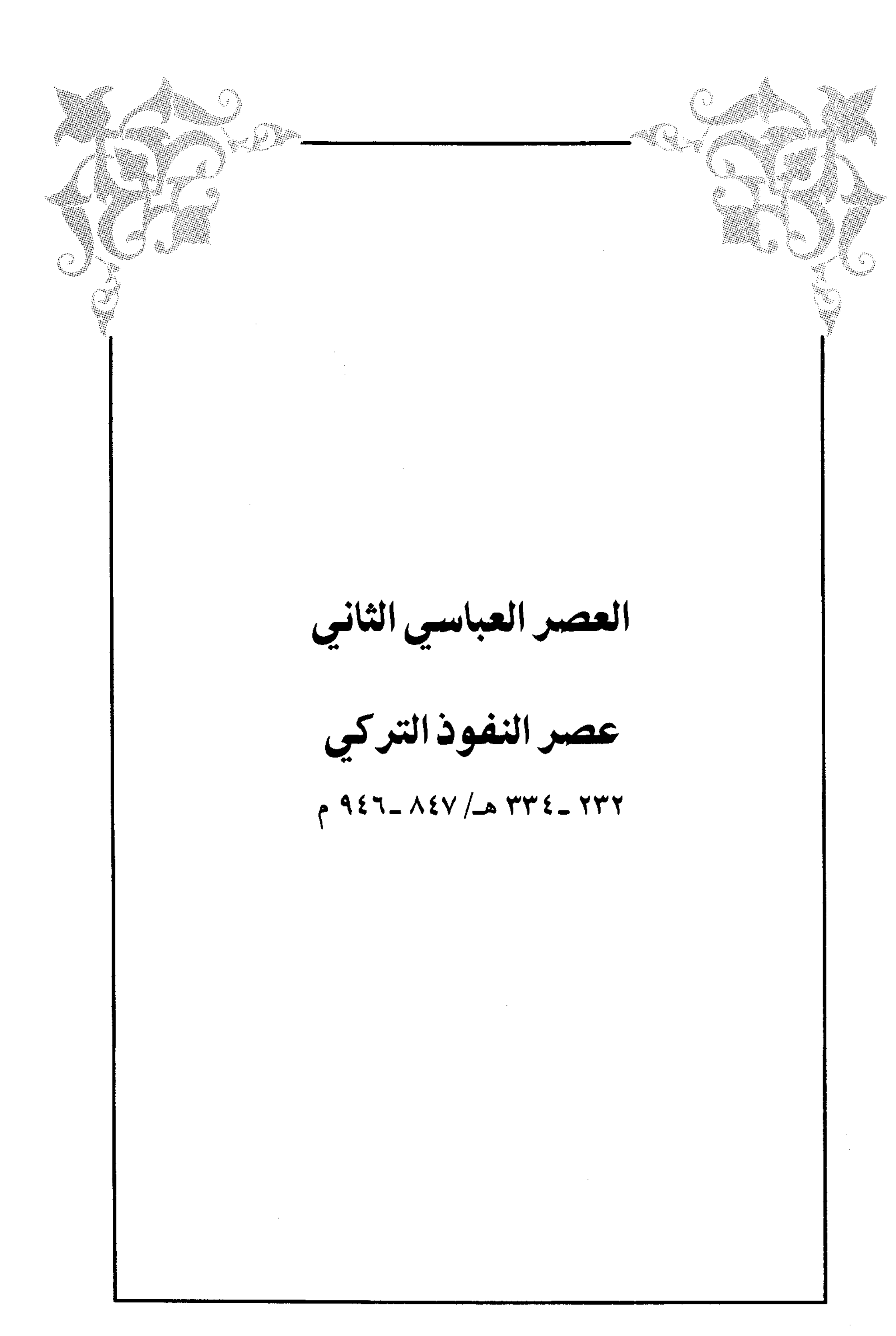
تمتَّع ولاة الأقاليم في عهد الواثق، بنفوذ كبير، فقد حكم عبد الله بن طاهر بن الحسين خراسان وطبرستان وكرمان حكماً يكاد يكون مستقلاً[٣]. وأسند الخليفة إلى قائده التركي أشناس حكم الجزيرة والشام ومصر والمغرب، كما ولى إيتاخ التركي خراسان والسند وكور دجلة[٤].

وفاة الواثق

دام اعتلاء الواثق لسدة الخلافة العباسية أقل من ست سنوات، وتوفي بمرض الاستسقاء لست بقين من (شهر ذي الحجة عام ٢٣٢ هـ/ شهر آب عام ٨٤٧ م) دون أن يولي على العهد أحداً بعده. وسئل أثناء مرضه ودنو أجله، أن يوصي بالخلافة لولده، فرفض وقال: «لا أتحمَّل أمركم حياً وميتاً». ويشكل عهده نهاية العصر العباسي الأول[٥].

---

(١) ابن كثير: جـ ١٠ ص ٣٠٩.
(٢) الطبري: جـ ٩ ص ١٢٥ ـ ١٢٨.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٣١.
(٤) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٤١.
(٥) الطبري: جـ ٩ ص١٥٠ ـ ١٥١. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام مرجع سابق جـ ٢ ص ٨٤.



العصر العباسي الثاني

عصر النفوذ التركي

٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ/ ٨٤٧ ـ ٩٤٦ م

خلفاء العصر العباسي الثاني ومدة خلافة كل منهم

أبو الفضل جعفر المتوكل	٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١ م
أبو جعفر محمد المنتصر	٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ/ ٨٦١ ـ ٨٦٢ م
أبو العباس أحمد المستعين	٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ/ ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م
أبو عبد الله محمد المعتز	٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ/ ٨٦٦ ـ ٨٦٩ م
أبو إسحاق محمد المهتدي	٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٧٠ م
أحمد المعتمد	٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م
أبو العباس أحمد المعتضد	٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م
أبو محمد المكتفي	٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٨ م
أبو الفضل جعفر المقتدر	٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ/ ٩٠٨ ـ ٩٣٢ م
أبو منصور محمد القاهر	٣٢٠ ـ ٣٢٢ هـ/ ٩٣٢ ـ ٩٣٤ م
أبو العباس أحمد الراضي	٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٠ م
أبو إسحاق جعفر المتقي	٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ/ ٩٤٠ ـ ٩٤٤ م
أبو القاسم عبد الله المستكفي	٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٤٦م

طبيعة العصر العباسي الثاني

يختلف العصر العباسي الثاني في كثير من مظاهره عن العصر العباسي الأول. فقد امتاز العصر الأول بقوة الخلافة، وتركيز السلطة في يد الخلفاء الذين اتصفوا بالبراعة السياسية، وقوة الشخصية. واستطاعوا أن يحافظوا على العلاقات الوثيقة مع الشعوب التي ساندتهم في فترة التحضير للثورة. كما أبدوا كفاءة نادرة في كبح جماح العناصر المتوثبة والمتطلعة إلى النفوذ والسلطان، باستثناء ما حصل في الأندلس وبعض الأقاليم في شمالي إفريقية[١]. وتمكنوا من إقامة نوع من التوازن بين التيارات السياسية المختلفة التي ظهرت بعد قيام الدولة.

وتغيرت هذه الظواهر في العصر العباسي الثاني حين انتقلت الدولة من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم. وقامت دول انفصالية مستقلة استقلالاً تاماً أو جزئياً مع الاعتراف بسلطان الخلافة الروحي[٢]، ودخلت شعوب جديدة في المجتمع الإسلامي تمكّنت من الوصول إلى الحكم، ووقع الخلفاء تحت نفوذهم، مما أدى إلى تحجيم دورهم السياسي الفاعل، ففقدوا الاحترام الذي كان يتمتع به أسلافهم خلفاء العصر العباسي الأول[٣].

ويبدو أن مرد هذا التغيير، يكمن في الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشتها دولة الخلافة العباسية في العصر العباسي الأول، وقد حملت معها بذور الانفصال.

---

(١) استقل عبد الرحمن الداخل بالأندلس. وقام عبد الرحمن بن حبيب، عامل أفريقيا، بثورة على الأمويين واعترف به العباسيون أميراً مستقلاً. وشهد المغرب قيام الدولة الرستمية في تاهرت، والأدارسة في المغرب الأقصى والأغالبة في تونس.

(٢) من مظاهر اعتراف الدول الانفصالية بسلطة الخليفة الدينية:
١ ـ الدعوة للخليفة على المنابر.
٢ ـ ضرب اسم الخليفة على النقود قبل اسم الأمير المستقل.
٣ ـ إرسال قسم من الخراج إلى بيت مال الخلافة راجع: العش، يوسف: تاريخ عصر الخلافة العباسية: ص ١٣٨.

(٣) محمود والشريف: ص ٢٨٥.

كانت رقعة الدولة متَّسعة اتساعاً كبيراً حتى تعذرت إدارتها من مركز الخلافة وذلك بفعل عدم ملاءمة تطور وسائل النقل مع هذا الاتساع من جهة، ونتيجة لنمو الشعور العنصري من جهة أخرى.

تجاه هذا الواقع، لجأت الدولة إلى اتباع سياسة مضادة ترتكز على التجزئة. فقد قسّم هارون الرشيد الدولة بين ولديه الأمين والمأمون. القسم الأول ويتمثل في أمصار المغرب العربي، والقسم الثاني هو المشرق. وجرت العادة أن يعهد الخليفة بولاية العهد إلى اثنين يلي أحدهما الآخر. وكانت إدارة المغرب تعهد إلى ولي العهد الأول وإدارة المشرق إلى ولي العهد الثاني. وقد اتبع الخلفاء بعد هارون الرشيد سياسة التجزئة هذه.

نتج عن هذه التجزئة ظاهرتان متعارضتان. ظاهرة تسعى إلى تركيز السلطة والإبقاء على الوحدة، وظاهرة تعمل على الانفصال الإقليمي مستغلة أوضاع الشعوب الاجتماعية والاقتصادية المتدهورة، لتحقيق انفصالها. وانتهى الأمر إلى انتصار النزعة الانفصالية التي مهدت لقيام الدول الانفصالية.

يضاف إلى ذلك، لقد حملت دولة الخلافة العباسية، أثناء قيامها، بذور هذا الانفصال، حين تطلعت الشعوب غير العربية للحصول على مبدأ المساواة التامة مع العرب وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، بعد أن حرمت منه في مراحل سابقة. وعملت الخلافة العباسية على تنفيذ هذا المطلب، مما أدى إلى تقوية الروح الشعوبية لدى الشعوب غير العربية، ودفعها إلى إقامة دول انفصالية عنصرية، لكنها حافظت في الوقت نفسه على الولاء لمنصب الخلافة، واعترفت بسلطان الخليفة الروحي. وعليه، فإن مطالبة هذه الشعوب بتطبيق مبدأ المساواة، كان يخفي وراءه هدفاً سياسياً.

وكان لأسلوب الحكم في الولايات النائية دور في تغليب نزعة الانفصال. فقد عمد خلفاء بنو العباس، خاصة في عهد تصاعد نفوذ الأتراك، إلى تعيين بعض قادتهم حكاماً على هذه الأقاليم، وأهملوا في الوقت نفسه مراقبتهم ومحاسبتهم. وبحكم الأوضاع الفوضوية السائدة في الإدارة المركزية، عمد هؤلاء إلى تعيين نواب عنهم لإدارة الأقاليم باسمهم فيما حافظوا على وجودهم في العاصمة، يشاركون في رسم السياسة العليا للدولة، ويشتركون في المؤامرات، وينعمون بحياة البلاط.

ومن الطبيعي، في هذا الوضع الشاذ، أن يسعى النواب إلى اقتناء المال لإرضاء

الخلفاء والقادة وحتى أنفسهم. فعمدوا إلى زيادة الضرائب واشتطوا في جبايتها، حتى وقع الظلم على الناس، فراحوا يترقبون من يرفع عن كاهلهم هذا الظلم، ويصلح أوضاعهم الاقتصادية. حتى إذا وُجد الرجل القوي في إحدى الولايات، استغل هذه الأوضاع السيئة ضارباً على وتر الحالة الاقتصادية والاجتماعية، فيلتف حوله الناس، ويعلن انفصاله.

كانت حركة الزَّنْج التي قامت في عام (٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م)، المرحلة الحاسمة في تاريخ دولة الخلافة العباسية، إذ أضحت القوى الانفصالية قوية جداً بحيث أدّت إلى تفككها. فقد انفصل شمالي إفريقية عن دولة الخلافة العباسية، منذ وقت طويل، وأثناء الحرب الطويلة مع الزنج، وبعدها بوقت قصير، انفصلت بلدان كثيرة أخرى عن جسم الخلافة، وأتاح الوضع الصعب الذي وجد فيه الخلفاء أنفسهم، الفرصة للقادة الطموحين لإقامة حكوماتهم الانفصالية في أنحاء مختلفة من الدولة. ويبدو أن نجاحهم توافق مع رغبات الطبقة التي وقع عليها الظلم في تلك البلدان بالإضافة إلى الطبقة الوسطى من الفلاحين والحرفيين والتجار والملاك. فالتطور الصناعي لم يتم بسرعة كافية لامتصاص اليد العاملة الوفيرة وتراجعت الزراعة بسبب الحروب وأعمال اللصوصية، كما أن حركة الجهاد تراجعت كثيراً، ولم تعد مخرجاً للعاطلين عن العمل، وبالتالي تواجد في كل مكان الكثير من الشباب الذين انضموا إلى الحركات الانفصالية. وأدّى ازدياد أعمال السلب والنهب وانتشار اللصوصية إلى تخوف الطبقة الثانية (الوسطى) من القلاقل الاجتماعية، مما دفع أفرادها إلى مساندة الحكام القادرين على ضمان الأمن الضروري لنشاطهم الاجتماعي والحفاظ على استقرارهم.

وعندما اندلعت الثورة كانت الولايات الإقليمية لا تزال تحت إدارة الخلفاء المباشرة أو تحت إدارة ولاة مخلصين لهم. وتغير أثناء الثورة كل شيء. إذ فقدت فكرة جمع العالم الإسلامي تحت قيادة سياسية واحدة، أهميتها، وحلت محلها فكرة تحقيق المصالح الإقليمية للشعوب المختلفة التي انضوت تحت لواء الخلافة، بحيث يتلمس كل شعب شخصيته العنصرية الشعوبية، ويحاول أن يُنميها، وأن يرتفع إلى مستوى الانفصال، حتى جاء وقت حكمت فيه كل عنصرية نفسها بنفسها. وقد شجعت بعض الأطراف الداخلية هذا الاتجاه الشعوبي مثل المعارضة العلوية، والمعارضة الخوارجية. ووقفت الخلافة عاجزة عن مقاومة هذا التيارات.

لكن الخلافة باعتبارها نظاماً أساسياً، كان وجودها في نظر المسلمين عامة ضرورة دينية لاستمرار الوحدة الإسلامية العامة. ذلك أنها تشكل رمزاً يربط أجزاء العالم الإسلامي المختلفة، وأن الشعوب التي تمسكت بانفصالها السياسي لم تفكر بالانفصال الديني عنها، باستثناء ما كان من أمر الخلافة الفاطمية التي لم تعترف أصلاً بحق العباسيين بالخلافة.

واستوعبت الخلافة من جانبها هذه الظاهرة، فحرصت على التوفيق بين نزعات الشعوب ومطالبها السياسية والاقتصادية، وبين مبدأ الوحدة. لكنها عجزت عن تحقيق التوازن بين القوة المركزية في بغداد، وبين القوى اللامركزية النامية في الأقاليم، مما أدّى إلى قيام الدول الانفصالية. فظهرت في المشرق الدول الطاهرية، والصفَّارية والسامانية، كما قامت في مصر الدولتان الطولونية والأخشيدية. ثم حدث أن تأثر شمال إفريقية بالعامل المذهبي فقامت فيه الدولة العبيدية (الفاطمية).

إزاء هذا الواقع لم يجد الخلفاء العباسيون مفراً من الاعتراف بهذا الأمر وأتيح لكل شعب، في ظل هذا الواقع الجديد الذي ارتضاه، أن يبني مستقبله في إطار الحضارة الإسلامية، وأن يشارك بطريقة أو بأخرى في بناء الدولة الإسلامية بقدر كفاءته.

وفي هذا العصر الذي تغلبت فيه اللامركزية في شؤون الحكم، نجد اختلافاً سياسياً بين المشرق الإسلامي ومغربه. فبينما كانت الأقاليم الشرقية، أثناء تنمية اتجاهها العنصري الانفصالي، تحرص على البقاء ضمن دائرة الخلافة، تكن الاحترام لها، وتعترف بسلطانها الروحي، وتعمل جاهدة أن يكون قيامها بتأييد منها، لينهض ذلك دليلاً على وجود السيادة العباسية العليا؛ اتجهت الدول الانفصالية في المغرب نحو الانفصال التام مستجيبة للمطالب العنصرية لأحزاب المعارضة.

وتولت الدول الانفصالية مسؤولية الدفاع عن العالم الإسلامي، كل في ناحيتها، ورفعت عن كاهل الخلافة هذا العبء، كما أنها مدّت نفوذ العالم الإسلامي إلى أطراف جديدة ربما لم تكن الخلافة المركزية بقادرة على تحقيق ذلك. وتصدّت أيضاً للهجمات المنفذّة على العالم الإسلامي.

وتبقى مناطق الثغور كوحدات تقوى وتضعف، وفقاً لتطور العالم الإسلامي، وحاجته للدفاع أو للهجوم، وتتأثر عادة بالخطر الخارجي وقوة الخلافة فقامت الدولة

الحمدانية في مناطق الثغور الشامية والجزرية. أما ثغور ما وراء النهر فقد وقع عبء الدفاع عنها على عاتق الدول الانفصالية التي قامت في المشرق.

أما العراق، فكان له وضعه الخاص المرتبط بالخلافة حيث ظلت تحكمه حكماً مباشراً أو يحكم باسمها حين يشتد ساعد العناصر المتطلعة إلى النفوذ حتى فقد الخليفة أخيراً نفوذه في العاصمة أمام تصاعد نفوذ الأتراك، تماماً، كما فقده من قبل في الإقاليم ليصبح منصب الخلافة مجرد رمز تجتمع الدولة حوله.

وأخيراً، تميز العصر العباسي الثاني بتهاوي الروابط بين الخلافة وبين مصادر قوتها في الأقاليم[١] مما أدّى إلى ضعفها. وفقد الخليفة صفته كرأس الهرم التنظيمي لذلك النظام الذي سيطر على الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، وبالتالي، فقد تلك الهيبة التي اكتسبها في نفوس الناس، وكان نتيجة ذلك أن تعرض للامتهان.

---

(١) لقد تهاوت هذه الروابط بفعل عوامل داخلية خاصة بالبيت العباسي ونزاعاته العائلية، وبفعل عوامل خارجية نشأت مع بروز العصبية في الأقاليم وتطلعاتها المحلية أمام تراجع العنصر العربي بسبب تفرّق العرب في الأمصار واختلاطهم بالشعوب التي خضعت لهم، ولاشتعال العصبية فيما بينهم. ففقدت الخلافة تأييد العنصر العربي، كما فقدت تأييد العنصر الفارسي، بعد الضربات التي أنزلتها به.

الأوضاع الداخلية لدولة الخلافة العباسية

العلاقة مع الأتراك ـ ظهور نظام إمرة الأمراء ـ حركة الزنج ـ العلاقة مع العلويين

أ ـ العلاقة مع الأتراك

انتقلت عاصمة الخلافة من بغداد إلى سامراء، التي ظلت ما يقرب من خمسين عاماً حاضرة دولة الخلافة العباسية، واضحت مقراً للعصبية التركية الجديدة. ومنذ عهد المعتصم أخذت تظهر على مسرح الحياة السياسية شخصيات تركية أدّت دوراً كبيراً في الحياة العامة، لعل أبرزها الأفشين وأشناس وإيتاخ ووصيف وسيما الدمشقي. وقد خدموا الدولة وساندوها في حروبها الداخلية ضد الحركات المناهضة التي نشبت في أجزائها المختلفة، وفي حروبها الخارجية ضد الأمبراطورية البيزنطية. ومع مرور الزمن بدأ هؤلاء الأتراك يتجهون إلى تكوين كيان خاص بهم سواء في كنف الخلافة أو منفصلاً عنها، كما طمع بعضهم في الاستئثار بشؤون الحكم في العاصمة حين أدركوا أن الخلافة لا يمكنها الاستغناء عن خدماتهم.

وتعتبر خلافة الواثق بن المعتصم (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م) فترة انتقال بين عهدين. الأول هو عهد سيطرة الأتراك على مقدرات الدولة مع بقاء هيبة الخلافة. والثاني هو عهد سيطرة الأتراك مع زوال هيبة الخلافة وهبوط مكانة الخلفاء[١].

لقد ثبّت الأتراك في عهد الواثق أقدامهم في الحكم، وحصل رؤساؤهم على نفوذ كبير، حتى اضطر الخليفة أن يخلع على أشناس لقب السلطان معترفاً له بحقوق تتجاوز نطاق المهام العسكرية فكان بذلك أول خليفة استخلف سلطاناً[٢]. وأسند إليه أعمال الجزيرة وبلاد الشام ومصر كما عهد إلى إيتاخ بولاية خراسان والسند وكور دجلة[٣].

---

(١) محمود والشريف: مرجع سابق: ص ٣٢٩.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٤٠.

(٣) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٤١.

نتيجة لهذا التوسع في الصلاحيات، هيمن الأتراك على دار الخلافة وأحكموا سيطرتهم الفعلية على كافة أقاليمها، ثم خطوا خطوة أخرى حين اعتقدوا أنه لا بد من السيطرة على شخص الخليفة حتى يستمر سلطانهم باعتباره مصدر هذا السلطان. فأحاطوا به يراقبون تحركاته، ويشاركون في المناقشات السياسية، فلم يذهبوا إلى ولاياتهم، وأنابوا فيها عمالاً عنهم[1]. وقد شكل هذا التدبير خطوة سياسية على طريق انفصال الولايات عن الإدارة المركزية. إذ طمع الوكلاء بولاياتهم، واستقلوا بها منتهزين فرصة ضعف السلطة المركزية، وعدم معرفة الخليفة بما يجري في الولايات لاطمئنانه إلى من ولأّهم من الأتراك.

وخطا الأتراك خطوة أخرى أيضاً، في سبيل تشديد قبضتهم على الخلافة، فأخذوا يتدخلون في اختيار الخلفاء وتوليتهم. وكان الواثق هو آخر الخلفاء الذين تمّت توليتهم على التقليد الذي كان متبعاً من قبل. ثم مات الواثق ولم يعهد لابنه محمد بفعل صغر سنه، فنشب الصراع بين فئتين رئيستين بشأن اختيار الخليفة. تألفت الفئة الأولى من كبار رجال الدولة من أبناء البيت العباسي والوزير محمد بن عبد الملك الزيات وكبير القضاة أحمد بن أبي دؤاد، وقد رشحت محمد بن الواثق، وتمثّلت الفئة الثانية بقوة الأتراك النامية التي كانت تعمل على تثبيت نفوذها بزعامة وصيف التركي، وقد رشحت جعفر بن المعتصم. وقد نجحت هذه الفئة في فرض مرشحها للخلافة. وبذلك أسند منصب الخلافة إلى جعفر ولقب بـ «المتوكل»[2].

وقد شكلت هذه الحادثة سابقة خطيرة في تولية الخلفاء بعد ذلك، إذ أضحى القادة الأتراك أهل الحل والعقد، لا تتم الخلافة إلا بموافقتهم ورضاهم، يرفعون الرجل الذي يرتضونه والعكس صحيح. فأحكموا بذلك قبضتهم على شؤون الخلافة يصرفون الأمور بإرادتهم.

لم يخضع الخلفاء للنفوذ التركي بسهولة بل قاوموه مقاومة شديدة، وحاولوا التخلص من «صانعي الخلفاء». لكن لم يكن لديهم من القوة الكافية ما يستطيعون بها مجابهة هذا النفوذ الطاغي.

تولى المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١ م) الخلافة بقوة الأتراك وشعر

---

(١) المسعودي: جـ ٤ ص ٣

(٢) الطبري: جـ ٩ ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

هؤلاء أن الخلافة عاجزة عن الاستغناء عن خدماتهم مما ساقهم إلى مزيد من العنفوان. ولم يلبث هذا الخليفة أن أدرك حقيقة موقفهم الضاغط على الخلافة، وشعر باستبدادهم بشؤونها، وقلة احترامهم لشخصه. فقرر تحجيم قوتهم وبدأ بإيتاخ فتمكن من إبعاده عن مناصبه وسجنه، وتوفي في سجنه في عام (٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م)[(١)].

وحتى يقطع على الأتراك طريق التدخل في اختيار خلف له، عمد المتوكل إلى عقد البيعة لأبنائه الثلاثة بولاية العهد وهم محمد المنتصر وأبو عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد، وقسم البلاد بينهم متبعاً ذلك التقسيم الذي جرت عليه الخلافة في عهد الرشيد، فولّىٰ المنتصر المغرب كله، وولّىٰ المعتز المشرق كله إيضاً، وأقطع المؤيد أجناد حمص ودمشق وفلسطين ثم أضاف للمعتز في عام (٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م) خزن الأموال في جميع البلاد، ودور الضرب، وأمر أن تضرب الدراهم باسمه[(٢)].

عندها أدرك الأتراك خطورة وأبعاد ذلك، واشتد حقدهم على الخليفة وعدُّوا إبعادهم عن مناصبهم خطوة أولى في سبيل القضاء عليهم، لذلك أضحت مؤامراتهم ودسائسهم لا تنقطع، وشعر المتوكل في هذا الجو الخانق، بالضيق. ولما كان وجوده في سامراء يجعله في قبضتهم، وإذ لم يكن قادراً على تلبية مطالبهم الملحة بالحصول على المال، فقد حاول اجتناب سيطرتهم بأن انتقل إلى دمشق وجعلها حاضرة له، لعله يجد فيها من يقف إلى جانبه من العنصر العربي، لكن الظروف الداخلية والمناخية لم تساعده على البقاء فيها واضطر للعودة إلى سامراء بعد أن قضى فيها ثلاثة أشهر[(٣)].

وبلغ العداء بين الخليفة والأتراك في هذه المرحلة نقطة اللاعودة، وكان لابد لأحدهما من أن يتخلص من الآخر. وكان هؤلاء هم الأسرع في التحرك، فتمكنوا من قتل الخليفة بمعاونة ابنه المنتصر الذي نقم على والده لأنه حاول تغيير ولاية العهد بتقديم المعتز عليه، بالإضافة إلى التعارض في الرأي السياسي بينهما في مجال العلاقات مع الطالبيين[(٤)].

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٧٥ ـ ١٨٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢١٠.

(٤) نقم المنتصر على أبيه بسبب قسوته على الطالبيين حيث كان يتعاطف معهم وكان يرى فيهم قرابة يجب ألا تنتهك حرمتها.

كان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين. فلم يُقتل منهم من قبل إلا الأمين بعد هزيمته في الحرب، وأدّت إلى تثبيت أقدام الأتراك في السلطان، والنفوذ، كما كانت إنذاراً موجهاً لكل عباسي يريد أن يعتلي الخلافة، أن يختار أحد أمرين: إما الإذعان التام لأهوائهم، أو القتل. وقد أثارت حادثة القتل موجة من النقمة ضد تسلط الجند التركي. فحدثت في سامراء في عام (٢٤٨ هـ/ ٨٦٢ م) حركة شعبية عبّرت عن استنكار العامة لعبثهم بالخلافة[١].

كان طبيعياً أن يكون المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ/ ٨٦١ ـ ٨٦٢ م) الذي بايعه الأتراك ونصبوه خليفة، خاضعاً لنفوذهم، ولم يكن له من شيء إلا مظهر اسمي اقتصر على السكة والخطبة. وقد خشوا من المعتز والمؤيد ابني المتوكل من أن يلي أحدهما الخلافة بعد المنتصر فيأخذاهم بدم والدهما لذلك أمروا المنتصر أن يخلعهما من ولاية العهد. لم يتجرأ الخليفة على الاعتراض وأذعن للأمر وهو كاره، وأجبر أخويه على خلع نفسيهما[٢].

وهكذا أدرك المنتصر خطورة التسلط التركي، فكرههم وحاول التخلص من زعمائهم، وكان يسميهم «قتلة الخلفاء». وتنبه الأتراك لهذا الخطر المحدق بهم فتخلصوا من الخليفة بواسطة الطبيب الطيفوري الذي سمَّه بمشرط حجمه به[٣].

وتعاهد الأتراك على توحيد كلمتهم في عدم اختيار أحد من أولاد المتوكل خشية أن يقتلهم بدم أبيه واتفقوا على تنصيب أحمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه بـ «المستعين»، وتوزعوا المناصب الكبرى في الدولة. فقد استكتب الخليفة أحمد بن الخصيب، وعقد لأتامش على مصر والمغرب واتخذه وزيراً كما جعل شاهك الخادم على داره وكراعه وحرسه وخاص أموره وقدّمه وأتامش على سائر الناس[٤].

بدأ عهد المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ/ ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م) بحدوث اضطرابات وتطاحن على السلطة. فنشبت ثورة في سامراء باسم المعتز، واصطدم العامة والأتراك

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤٤.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٥١.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧، ٢٦٠.

في حرب شوارع، انتهت بانتصار الأتراك. وهاج الناس في بغداد نتيجة استبدادهم، فاجتمعت العامة بالصراخ والنداء بالنفير[1] لكن الأتراك سيطروا على الموقف.

ويبدو أن وحدة الأتراك لم تدم. فقد انشقوا على أنفسهم بعد أن انتصروا على العامة، فاستغل المستعين هذه الخلافات وراح يتخلص من زعمائهم، فنفى أحمد الخصيب إلى جزيرة كريت[2] وقتل أتامش وباغر[3]. ثم فرّ إلى بغداد للاحتماء بأهلها[4]. عندئذ أعلن الأتراك خلعه وبايعوا المعتز الذي تكتل حوله معظم قادتهم، في حين ساند أهل بغداد وبعض القادة الأتراك ممن فرّ إلى هذه المدينة، الخليفة المستعين. ونشبت الحرب بين الطرفين فكانت بغداد وجوارها مسرحاً لها. لكن الأتراك نجحوا في استعادة وحدتهم فأضحى موقف المستعين ضعيفاً. فانفض عنه محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد بعدما أدرك حراجة موقفه، فآثر التنازل عن الخلافة، بالرغم من مساندة العامة له. وبويع للمعتز بالخلافة (٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ/ ٨٦٦ ـ ٨٦٩ م). وخرج المستعين إلى منفاه بالبصرة، لكن الأتراك خشوا من بقائه حياً لذا عمدوا إلى قتله[5].

لم تكن ظروف الخلافة في عهد المعتز بأفضل حالاً. ذلك أن الخليفة عاد إلى سامراء ووقع تحت تأثير النفوذ التركي. ومن جهة أخرى، ازداد استبداد الأتراك، وكثرت اضطراباتهم، ومطالبتهم بالمال، وعجز الخليفة عن تلبيتها مما أدّى إلى إقدامهم على خلعه وتنصيب أخيه المؤيد. لكن الخليفة أجبر أخاه على خلع نفسه ثم قتله، وتخلص من بعض الزعماء الأتراك مثل وصيف وبغا باعتبارهما مسؤولين عن الحرب الأهلية التي وقعت بينه وبين المستعين[6].

وأدرك الأتراك مرامي الخليفة فتحركوا للمحافظة على حياتهم ومكتسباتهم، فأرغموه على خلع نفسه وأسندوا الخلافة إلى محمد بن الواثق ولقب بـ «المهتدي» وسلموا المعتز إلى من يعذبه حتى مات[7].

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٥٩.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤، ٢٧٨ ـ ٢٨٠.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٨١.
(٥) المسعودي: جـ ٤ ص ٧٩.
(٦) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٦٨ ـ ٤٧٠.
(٧) الطبري: جـ ٩ ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

كان المهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٧٠ م) ورعاً تقياً[١] شديد الرغبة في الإصلاح. فبدأ بنفسه. فتجرد من أبهة الحياة وزخرفها، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وحرّم الشراب، ونهى عن القيان وأظهر العدل، وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيخطب بالناس ويؤمهم، وأشرف على الدواوين، وأخذ ينظر في المظالم، فبنى قبة لها أربعة أبواب سماها قبة المظالم، كان يجلس فيها للعام والخاص[٢]. فثقلت وطأته على العامة والخاصة فاستطالوا خلافته حتى اعتراهم الضجر من تلك المدة.

توقع المهتدي أن تؤتي سياسته الإصلاحية ثمارها، لكن الأوضاع العامة داخل الدولة وخارجها لم تسمح بذلك، فقد ثار العامة في بغداد ضد حكمه، ثم تبعهم الجند بسبب التأخر في دفع أرزاقهم[٣]، وأذكى الطالبيون نار الثورة في كثير من الأقاليم[٤] ونشبت ثورة الزَّنج التي هدّدت كيان دولة الخلافة العباسية زهاء أربعة عشر عاماً، وثار الخوارج في الموصل، كما ثار أحمد بن عيسى بن الشيخ والي فلسطين والأردن.

لكن علة الخلافة الحقيقية كانت تكمن في هيمنة الأتراك عليها، وأضحى التخلص منهم ضرورة ملحة لنجاح الإصلاح، واستعادة الخلافة لهيبتها. لذلك قرر الخليفة، أن يضرب القادة الأتراك بعضهم ببعض. إلا أن محاولته باءت بالفشل واتفقت كلمة الأتراك على التخلص منه[٥].

وبايع الأتراك بعد قتل المهتدي، لأبي العباس أحمد بن المتوكل ولقب بـ «المعتمد» (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م)[٦]. ونتيجة لازدياد الخلافات الداخلية بينهم، طلب الأتراك من الخليفة أن يولي أحد إخوته إمرة الجيش، فولى أخاه أبا أحمد طلحة الموفق. ويُعدُّ هذا الرجل نبراس الفاعلية في انتعاش الخلافة منذ عهد

---

(١) ابن عمراني، محمد بن علي بن محمد: الأنباء في تاريخ الخلفاء ص ٩٨.
(٢) المسعودي: جـ ٤ ص ٩٦.
(٣) الطبري: جـ ٩ ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣، ٣٩٩ ـ ٤٠٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ٤١٠ ـ ٤٢٣.
(٥) راجع فيما يتعلق بخلع المهدي ثم موته: المصدر نفسه ص ٤٥٦ ـ ٤٦٩ حيث تجد تفاصيل وافية.
(٦) الطبري: جـ ٩ ص ٤٧٤.

المعتمد. فهو الرجل الذي جمع الأمور كلها في يده، وأبقى للخليفة الخطبة والسكة والتسمّي بإمرة المؤمنين. فانكسرت بذلك شوكة الأتراك خاصة بعد هزائمهم أمام الزَّنج وعجزهم عن مقاومة المد الانفصالي وقيام الدول الانفصالية.

لكن الموفق توفي في عام (٢٧٨ هـ/ ٨٩١ م)[١] وكانت الخلافة لا تزال بحاجة إلى رجل قوي يحافظ على مكتسباتها، لذلك خلع المعتمد ابنه المفوض من ولاية العهد بعد أن أظهر عجزاً في مجال الصراع الذي احتدم بين الخلافة وخصومها، وبايع لابن الموفق أبي العباس المعتضد ثم ما لبث الخليفة أن توفي فجأة بعد عدة أشهر[٢].

سلك المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م) نهج والده في حروبه وأعماله الإدارية بهدف استمرارية إنعاش الخلافة، وتثبيت هيبتها واستمر في عهده تراجع نفوذ الأتراك. خلف المعتضد بعد وفاته ابنه المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٨ م)[٣] وتفاقم في عهده أمر الحركات الانفصالية والثورية من إسماعيلية وقرامطة وعبيدية، وبذل الخليفة جهداً كبيراً في قمعها فنكل بالقرامطة وأقرّ سلطان الخلافة على بلاد الشام، وأزال نفوذ الطولونيين من مصر وأعادها إلى حظيرة الدولة.

لم يعمّر المكتفي طويلاً، وتوفي ولمّا يمضِ ستة أعوام على خلافته، فعادت الخلافة من بعده إلى ضعفها، بفعل الخلافات الأسرية داخل البيت العباسي، وتفاقم الحركات الانفصالية، مما أتاح للأتراك استعادة قوتهم وعادوا إلى نهجهم السابق في اختيار خلفاء ضعاف لاستمرار نفوذهم، فعارضوا ترشيح عبد الله بن المعتز لمنصب الخلافة لأنه كان كفئاً واختاروا أبا الفضل جعفر بن المعتضد وكان في الثالثة عشرة من عمره فولّوه الخلافة وتلقب بـ «المقتدر»[٤].

لم يكن المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ/ ٩٠٨ ـ ٩٣٢ م) على مستوى الأحداث الشائكة التي تحيط به، ولما شبّ عكف على لذاته، وترك أمور الدولة في إدارة مؤنس التركي، وبرزت في عهده ظاهرة تدخل النساء في أمور الدولة، وانتشرت في أيامه

---

(١) المصدر نفسه: جـ ١٠ ص ٢٠ ـ ٢٢.
(٢) المسعودي: جـ ٤ ص ١٤٢.
(٣) الطبري: جـ ١٠ ص ٨٧.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٣٩.

الفتن في الداخل والخارج. فثار عليه رجال الجيش بفعل سوء الأوضاع الداخلية وفساد الحكم، وخلعوه عن العرش وبايعوا عبد الله بن المعتز. ولقبوه بـ «الراضي»[1] ويبدو أن بعض القادة الأتراك ممن استمروا على ولائهم للمقتدر مثل مؤنس الخادم ومؤنس الخازن، وغريب خال المقتدر، نجحوا في إعادته إلى السلطة وسجنوا عبد الله بن المعتز[2].

عادت الأمور إلى ما كانت عليه من الفوضى والإسراف في المال من جانب الحاشية والخدم كما ازداد تسلط النساء، فاشتكى الجيش من هذه الحالة ووقعت الوحشة بين الخليفة ومؤنس الخادم وانتهى الأمر بقتل الأول لليلتين بقيتا من (شوال في عام ٣٢٠ هـ/ تشرين الثاني عام ٩٣٢ م) ومبايعة محمد بن المعتضد بالخلافة، ولقب بـ «القاهر»[3].

لم تكن خلافة القاهر القصيرة (٣٢٠ ـ ٣٢٢ هـ/ ٩٣٢ ـ ٩٣٤ م) خيراً من خلافة المقتدر، فقد استمر شغب الجند وغدا منصب الخلافة مرة أخرى، هدفاً للازدراء، وحاول مؤنس الخادم الاتفاق مع الوزير ابن مقلة الخروج على الخليفة، لكن القاهر الذي رأى في القادة الأتراك أعداء لدولته استطاع أن يتخلص من هذا القائد التركي[4] وعلى الرغم من قوة القاهر وقسوته فإن القادة تمكنوا أخيراً من القبض عليه وخلعوه وسملوا عينيه ولم يسمل قبله أحد من الخلفاء وبايعوا للخليفة الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٠ م)[5].

ب ـ ظهور نظام إمرة الأمراء: ٣٢٤ ـ ٣٣٤ هـ/ ٩٣٦ ـ ٩٤٦ م

لقد حدث تطور جديد في شؤون الحكم في عهد الخليفة الراضي حين بذلت

---

(١) الطبري: جـ ١٠ ص ١٤١. المسعودي: مروج الذهب: جـ ٤ ص ٢١٤.
(٢) ابن عمراني: ص ١٢١ ـ ١٢٢.
(٣) المسعودي: جـ ٤ ص ٢١٤، راجع تفاصيل هذه الأحداث عند: مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٣٣ ـ ٢٤١.
(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٨٦.
(٥) المسعودي: جـ ٤ ص ٢٢١، ٢٣١. مسكويه: جـ ١ ص ٢٨٦ ـ ٢٩١، حيث توجد تفاصيل وافية.

محاولة أخيرة لإنقاذ الخلافة تناولت مركز الخلافة والوزارة ووضع الأتراك. وانتهى هذا التطور بظهور منصب أمير الأمراء الذي سيطر متقلده على مقاليد الحكم وامتدت صلاحياته إلى الضرائب والإدارة فهيمن على الخلافة حتى أضحى الخليفة مجرد رمز ولم يعد له من صلاحيات فعلية في ممارسة الحكم، وأزال نفوذ الوزراء، وتوقف الصراع بين الخلافة والأتراك الذي شغل جانباً كبيراً من العصر العباسي الثاني.

ابتدأ هذا المنصب بالظهور في عام (٣٢٤ هـ/ ٩٣٦ م) على حساب منصب الوزارة. ذلك أن الراضي استعان في إدارة شؤون دولته ببعض وزراء كانوا ضعافاً عجزوا عن النهوض بأعباء الوزارة، وفقدوا ما كان لهم من نفوذ، حتى أضحوا عرضة للتنكيل والمصادرة. ومن جهة أخرى، تراجع نفوذ الأتراك بفعل التفكك الذي ساد بينهم، والتنافس على مركز الصدارة، وتفشي الحسد بين قادتهم.

شعرت الخلافة نتيجة هذه الأوضاع المتردية، بضعف الوزراء، وبعجز الأتراك، وبفراغ الخزانة؛ فأخذت تتطلع إلى حكام الإمارات القريبة من العراق لتستعين بهم على إنقاذ الموقف الذي بلغ درجة خطيرة من التدهور. فاستدعىٰ الخليفة الراضي، محمد بن رائق أمير واسط والبصرة وسلمه مقاليد الأمور، وأطلق يده في سلطات الدولة كلها ولقبه أمير الأمراء(١). وهذا المنصب هو عبارة عن نقل كل سلطات الخليفة إلى قائد تتوفر فيه صفات الرئاسة المدنية والقيادة العسكرية(٢).

وقد وصف ابن الأثير أوضاع دولة الخلافة العباسية في عهد الراضي فقال: «. . . ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم في جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم. وأما باقي الأطراف، فكانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدي، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان في يد أبي علي محمد بن الياس، والري وأصفهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخي مرداويج يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، والمغرب وإفريقية في يد أبي القاسم القائم بأمر الله بن

---

(١) مسكويه: جـ ١ ص ٣٥١ ـ ٣٥٢. ابن عمراني: مصدر سابق ص ١٢٨.
(٢) مسكويه: المصدر نفسه ص ٣٥١. وهو يعدد صلاحيات أمير الأمراء. محمود والشريف ص ٣٦٨.

المهدي العلوي، ويلقب بأمير المؤمنين، والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموي، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم. والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي»[١].

ويبدو أن نفوذ ابن رائق قد ضعف في عام (٣٢٦ هـ/ ٩٣٨ م) بفعل منافسة الأمراء له. فقد حاربه أبو عبد الله البريدي حاكم الأهواز، كما خرج عليه أحد قادته ويدعى بجكم الذي دخل بغداد في عام (٣٢٧ هـ/ ٩٣٩ م) واستولى على مقاليد الأمور وآلت إليه إمرة الأمراء. أما ابن رائق فقد فرّ إلى بلاد الشام[٢]. استمر بجكم في منصبه زهاء ثلاثة أعوام وصلت فيها الحالة العامة إلى درجة خطيرة من الفوضى والتدهور[٣]. وقتل بجكم في عام (٣٢٩ هـ/ ٩٤١ م) بيد أحد الأكراد[٤].

وقبل مقتل بجكم بأربعة أشهر تقريباً مات الخليفة الراضي في بغداد وعمره اثنتان وثلاثون سنة. وكانت مدة خلافته سبع سنوات تقريباً[٥]، فتشاور أعيان الدولة وأفراد البيت العباسي فيمن يصلح للخلافة. فرشحوا جعفر بن المقتدر لهذا المنصب وبايعوه في العشرين من (شهر ربيع الأول عام ٣٢٩ هـ/ شهر كانون الثاني عام ٩٤٠ م) ولقب بـ «المتقي»[٦].

كان المتقي (٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ/ ٩٤٠ ـ ٩٤٤ م) مجرد ألعوبة في أيدي القادة المتنافسين على السلطة خاصة أبو عبد الله البريدي وابن رائق والحمدانيين. وانتقلت في عهده صلاحيات منصب أمير الأمراء إلى يد البريدي الذي برز بعد مقتل بجكم لكن دون أن يقلده الخليفة هذا المنصب تقليداً رسمياً وذلك بفعل مواقفه المتقلبة، واكتفى بأن جعله وزيراً[٧] لكنه جمع إلى منصبه المدني قيادة الجيش فأضحى في حكم أمير الأمراء.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.
(٢) مسكويه: جـ ١ ص ٣٩٣ ـ ٣٩٦. ابن عمراني: ص ١٣٠.
(٣) يصف الصولي الحالة العامة في بغداد خلال حكم بجكم: أخبار الراضي بالله والمتقي بالله ص ١٠٦.
(٤) مسكويه: جـ ٢ ص ٩ ـ ١٠، ابن عمراني: ص ١٣٣ ـ ١٣٤.
(٥) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٢٧٦.
(٦) المصدر نفسه: ص ٢٢٧ ـ ٢٧٨.
(٧) مسكويه: جـ ٢ ص ٢٣.

ويبدو أنه عجز عن تلبية حاجات الجند ومطالبهم المتزايدة، وأضحى هدفاً لدسائسهم. فاضطربت الأمور في بغداد واضطر إلى مغادرتها وعاد إلى البصرة[1] فتقلد ابن رائق المنصب مرة ثانية[2] بعد أن استدعي من بلاد الشام فتفاهم مع البريدي وقلّده منصب الوزارة[3]. وظل الأمر على ذلك مدة، ثم اختلف الرجلان، فعزل ابن رائق البريدي من منصبه. فجمع هذا جيوشه وهاجم بغداد فاضطر الخليفة وابن رائق إلى الهرب والتجآ إلى بني حمدان في الموصل واستولى البريدي على منصب أمير الأمراء ودخل بغداد للمرة الثانية[4].

لكن البريدي وجماعته لم يظفروا بمحبة الناس بفعل إمعانهم في السلب والنهب ومن جهة أخرى عين الخليفة ناصر الدولة الحمداني أميراً للأمراء في عام (٣٣٠ هـ/ ٩٤٢ م) وأرسله على رأس جيش كثيف لمحاربة البريدي فأخرجه من بغداد وعاد إليها الخليفة في العام المذكور[5].

برز في هذه الأحداث القائد التركي توزون، فقلده المتقي شرطة بغداد ثم جعله أميراً للأمراء[6]. وسيطر الحمدانيون في هذا الوقت على مقدرات الأمور في بغداد. لكن الوضع العام لم يتحسّن بفعل استمرار النزاعات الداخلية[7]، فاضطر هؤلاء إلى ترك حاضرة الخلافة، خاصة وأنهم خسروا الحرب التي نشبت بينهم وبين توزون، وعادوا إلى الموصل بصحبة الخليفة[8].

ويعتبر توزون من أقوى الأمراء الذين تولوا الأمر في العصر العباسي الثاني. فقد استطاع هذا الرجل أن يستولي على الحكم من متنافسين قويين هما الحمدانيين والبريديين. وخشي من محاولة الخليفة التقرب من الإخشيديين في مصر، فتحايل عليه

---

(١) ابن عمراني: ص ١٣٤.
(٢) مسكويه: جـ ٢ ص ٢٢.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٣ ـ ٢٥. ابن الأثير: جـ ٦: ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.
(٤) المصدران نفساهما: ص ٢٥ ـ ٢٧. ص ٢٨٥.
(٥) مسكويه: المصدر نفسه: ص ٢٨.
(٦) المصدر نفسه: ص ٤٤.
(٧) راجع فيما يتعلق بأوضاع بغداد في هذه الفترة: الصولي ص ٢٣٤ ـ ٢٣٧.
(٨) السيوطي: ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

حتى عاد إلى بغداد مرة أخرى، فقدم له فروض الطاعة ظاهرياً، وأوعز سراً إلى بعض أصحابه فقبضوا عليه وأجبروه على خلع نفسه ثم سملوا عينيه وذلك في (شهر صفر عام ٣٣٣ هـ/ شهر تشرين الأول ٩٤٤ م) وسجنوه مدة خمس وعشرين سنة حتى توفي في عام (٣٥٧ هـ/ ٩٦٨ م). واختار توزرن عبد اللّه بن المكتفي خليفة ولقب بـ «المستكفي»[1].

لم تطل خلافة المستكفي (٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٤٦ م) فقد حكم سنة وأربعة أشهر استبد توزون خلالها بالسلطة، ثم خلفه ابن شيرزاد، وبقي في منصب أمير الأمراء حتى استولى معز الدولة بن بويه على بغداد وألغى منصب أمير الأمراء[2].

والواقع أن دولة الخلافة العباسية لم تستفد من هذا النظام الذي أنشأه الراضي لإقامة الخلافة من عثرتها. بل زادت أحوالها سوءاً، وأن من يستقصي عهد الراضي والمتقي والمستكفي يجده عبارة عن سلسلة منازعات لا تنقطع بين رجال الدولة العباسية الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة وتولي إمرة الأمراء[3].

جـ ـ حركة الزَّنج[4]: ٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٨٣ م

طبيعة الحركة وأهدافها

مما لا شك فيه أن حركة الزَّنج التي قامت في عام ٢٥٥ هـ وأنهكت دولة الخلافة العباسية، قبل أن تقضي عليها، تسترعي الانتباه، وتدعو الباحث إلى معالجتها من خلال البحث عن طبيعتها وأهدافها، ودوافع الاستجابة لها.

وللوقوف على طبيعة الحركة، لا بد لنا من سبر أغوار العناصر والفئات التي أيدتها أو شاركت فيها.

والواقع أن عماد الحركة، تمثل في بادىء الأمر، ببعض العرب المغامرين من

---

(١) ابن عمراني: ص ١٤١.
(٢) مسكويه: جـ ٢ ص ٨١ ـ ٨٢، ٨٤ ـ ٨٥.
(٣) حسن: جـ ٣ ص ٣٥.
(٤) الزَّنج بفتح الزاي، والزِّنج بكسرها، هم جيل من السودان. أما الزُّنج بالضم فهي من قرى نيسابور. الحموي، ياقوت: معجم البلدان: جـ ١ ص ١٥٣.

المهالبة والهمدانيين وغيرهم. أما الفئات التي شاركت فيها، فهي متنوعة، الزَّنج، أهل القرى، العرب الضعفاء، عشائر عربية ثائرة على السلطة.

أما فيما يتعلق بالشخصية التي قادت هذا الجمع، فهو علي بن محمد الفارسي الأصل[١]. وهو شخصية محيّرة فعلاً، حيث يلاقي الباحث صعوبات جمّة في معرفة نسبه، وذلك بفعل تقلباته السريعة، تبعاً للظروف التي كان يمر فيها. واتصف بأنه رجل طموح وموهوب جداً وبعيدٌ عن الزهد لأنه شارك في السلب والنهب.

ويبدو أن حياته كانت غير طبيعية، فقد بدأها كشاعر في بلاط الخليفة بسامراء، ثم حاول القيام بحركة ضد النظام في البحرين للوصول إلى الحكم، إلا أنه أخفق في تحقيق مبتغاه. فسلك نهجاً جديداً، وظهر كقائد ديني ومتنبىء ونبي، فادعى نسباً علوياً[٢] محاولاً أن يستثمر ما للشيعة من عطف وتأييد بين الناس، وقد أحله أتباعه من أنفسهم محل النبي حتى جبي له الخراج[٣].

ويبدو أن جماعة كثيرة العدد في البحرين قد تنكرت له، مما دفعه إلى مغادرتها إلى البادية ليستقطب الأعراب. وادّعى فيها النسب الشيعي على أنه يحيى بن عمر أبو الحسين، فالتف حوله بعض الأعراب، استغلهم بإعادة السيطرة على البحرين، إلا أنه هُزم وفرّ إلى البصرة[٤].

ووقف أثناء إقامته القصيرة فيها على أوضاعها الداخلية السياسية والاجتماعية، حيث كان المجتمع البصري منقسماً على نفسه[٥]. فحاول أن يستغل هذه الخلافات لصالحه إلا أنه فشل. وفي الوقت نفسه، رأى في حياة العبيد فيها الذين يعملون في المستنقعات المجاورة، فرصة لتحقيق طموحاته. لكنه طُرد منها، فذهب إلى بغداد[٦].

استنبط في بغداد نسباً علوياً جديداً فانتسب إلى أحمد بن عيسى بن زيد[٧]. ثم

---

(١) هو من قرية ورزنين إحدى قرى الري، قرب طهران الحالية.

(٢) ادعى أنه علي بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب.

(٣) الطبري: جـ ٩ ص ٤١٠.

(٤) هُزم في مكان يُعرف بالردم. راجع حول هذه الأحداث: الطبري: جـ ٩ ص ٤١٢.

(٥) كانت البصرة تعاني آنذاك انقساماً بين الفئتين المتناحرتين البلالية والسعدية. المصدر نفسه ص ٤١١.

(٦) المصدر نفسه: ص ٤١٢.

(٧) المصدر نفسه.

حاول الوثوب إلى السلطة مستغلاً الأوضاع المضطربة في حاضرة الخلافة. ولكنه لم يتمكّن من ذلك بفعل إحكام الأتراك قبضتهم على الوضع، فعاد إلى البصرة في عام (٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م) ليتزعم حركة ثورية، مدعياً أن الله أرسله لتحرير العبيد وإنقاذهم مما كانوا يعانونه من بؤس، كما ادّعى العلم بالغيب وانتحل النبوة[١].

والواقع أن فكرة المهدي المنتظر قد رافقت علي بن محمد في جميع مراحل حياته السياسية، فاستغلها بذكاء، وهو بادعائه المهدية، كان يضرب على وتر حساس في نفوذ جماعة العلويين الذين برح بهم الشقاء، فكانوا يأملون ظهور مهدي منقذ يزيل عنهم الغمة، ويفرج عن أيامهم كربتها[٢]. وركّز كثيراً على عراقة أصله وكتبها على نقوده، وسمى نفسه «المهدي علي بن محمد» المنقذ.

وجهر علي بن محمد في إحدى مراحل حياته بمذهب الخوارج الذي تلائم مبادئه ميول أصحابه الشورية، فحارب من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة[٣]. وكتب شعاراته على الرايات باللونين الأخضر والأحمر وهما لون العلويين ولون الخوارج.

لقد تعارضت أفكار علي بن محمد عن الخلافة مع مفهوم الشيعة لها، التي تؤكد على الوراثة، وتبنى رأي الخوارج القائم على الشورى، مما نفّر منه الأعراب البسطاء، وعرب البصرة والأهواز وواسط والمناطق المحيطة بها، كما رفض قرمط أن يرتبط معه بعوامل دينية، أما شدته وقسوته تجاه أعدائه، فقد جعلته خارجياً متطرفاً، يضاف إلى ذلك، فقد عامل أسرى الحرب معاملة الرقيق، ووعد أتباعه بأنه سيملّكهم المنازل والعبيد، وهذا يعني تحويل حياة الزنج من أرقاء إلى ملاكين للعبيد[٤].

والواضح أن هذا التناقض في عقيدة الحركة يفرغها من أي صيغة عقائدية،

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ٤١٢.

(٢) علبي، أحمد: ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد ص ٥٤.

(٣) لقد كتب على لوائه الآية الحادية عشرة بعد المائة من سورة التوبة، وهي الآية المفضلة لدى الخوارج، كما نقشها على نقوده. راجع: علبي: ص ٥٨.
Muir: The Caliphate: P 545

(٤) عمر، فاروق: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين: ص ٣٣٥.

ويجعلها حركة مسلحة ضد النظام، ليس إلا، كما يجعل من قائدها رجلاً مغامراً طموحاً إلى السلطة[١].

ومما لا شك فيه أن طموحات علي بن محمد السياسية المتمثلة بالاستيلاء على السلطة، تعتبر الدافع الحقيقي لحركته، مما حدّ من اندفاعها لدرجة كبيرة، وحصرها في فئة من الزَّنج، وأبعد عنها تدريجياً الفئات الأخرى التي شاركت فيها[٢].

دوافع الاستجابة لها

حركت هذه الجماعات المتعددة التي التفت حول علي بن محمد دوافع مختلفة، منها:

- تحدي الحكومة المركزية للخروج من دائرة البؤس والشقاء.
- الحصول على المغانم عن طريق السلب والنهب.
- التملص من العمل الشاق أو من ضنك العيش[٣].

أما دوافع الاستجابة الواسعة للحركة من قبل العبيد، فتكمن في ثلاثة: سياسية واقتصادية واجتماعية.

فمن حيث الدوافع السياسية[٤]، لقد سبق حركة الزّنج ورافقها نفوذٌ مارسه الأتراك على الخلافة. وقد غلب عليهم الارتزاق، وانحصر نشاطهم في تقدير الوسائل التي تمكنهم من ضرب خصومهم ومنافسيهم، والاستئثار بالسلطة[٥]؛ مما أدى إلى كثرة المؤامرات السياسية والانقلابات العسكرية، فانحدرت الخلافة إلى الحضيض، وغدا الخلفاء ضعفاء مسلوبي الإرادة.

نتيجة تردّي الأوضاع السياسية، اشتد ساعد المعارضة، الشيعية خاصة، فتعاظم النفوذ العلوي، وتغلغل بين الناس، وكان الاتجاه الحركي المعارض يجيش منذ مطلع القرن الثالث الهجري، فتكاثرت الحركات المناهضة للحكم المركزي، وتعددت

---

(١) المرجع نفسه.
(٢) عمر: ص ٣٣٥.
(٣) المرجع نفسه: ص ٣٢٨.
(٤) راجع علبي: ص ١٩٨ ـ ٢٠١.
(٥) عمر: ص ٣٣٣.

الحركات الانفصالية التي جاءت دليلاً على أن الانحلال أخذ يدب في مركزية الخلافة. فكان الجو السياسي العام ملائماً للرجال المغامرين، كي يفوزوا بالسلطان، في الوقت الذي كانت فيه المعركة على أشدها بين الحكومة المركزية والمعارضة العلوية، مع بروز حكام في بعض الولايات لم يعترفوا حتى اسمياً بسلطة الخلافة، وراحوا يعبرون عن أماني هذه الفئات المعارضة، إلى جانب صراع خفي بين الإقطاعية والعبيد، وجد متنفساً له في دعوة علي بن محمد الطامح إلى السلطة.

ومن حيث الدوافع الاقتصادية[١]، تبرز أمامنا ظاهرتان؛ ظاهرة الأوضاع المالية المتدهورة، وظاهرة التكوين الطبقي للمجتمع العباسي.

ففيما يتعلق بالظاهرة الأولى، فإن الأمور الملفتة للنظر في النصف الأول من القرن الثالث الهجري أن مالية الدولة كانت في تأخر مستمر بفعل إسراف الخلفاء والقادة الأتراك على أنفسهم. ومن مظاهر التعثر والانحطاط في مالية الدولة أن نظام الالتزام أو الضمان أضحى على ما يبدو النظام السائد[٢]. ومما زاد الأوضاع المالية تفاقماً، فصل بيت مال المسلمين عن خزانة الخليفة الخاصة، ومع اشتداد نفوذ الأتراك، فقد وضعوا أيديهم على بيت المال، في حين انصرف الخلفاء إلى تنمية موارد خزانتهم الخاصة.

أما فيما يتعلق بالظاهرة الثانية[٣]، فقد كان المجتمع العباسي يتألف في القرن الثالث الهجري من ثلاث طبقات اجتماعية هي:

١ ـ الطبقة الإقطاعية، وتتألف من الأسرة المالكة، والقادة الأتراك والوزراء الأثرياء وأصحاب المناصب، ويملك أفرادها الأراضي، ويعتمدون على الزراعة كمصدر لثرواتهم. وقد تطورت أوضاعهم الاقتصادية تطوراً كبيراً باتجاه التوسع والتكثيف، مما تطلب زيادة عدد العبيد الذين يعملون في هذا الحقل، خاصة في جنوبي العراق.

---

(١) راجع علبي: ص ٨٩ ـ ٩٩.
(٢) من ذلك أن آل طاهر التزموا في ذلك الوقت خراج خراسان وأعمالها.
(٣) لم يعرف الإسلام، نظرياً على الأقل، تصنيفاً اجتماعياً تسلسلياً إلا في إطار المهام التي كان الناس يؤدونها في المجتمع كما أن المفهوم الطبقي لم يقم على اعتبار الإنسان متحدراً من أصول نبيلة تحتفظ بحقوق متوارثة بل كانت الأهلية الشرعية هي المعيار الأساسي في تحديد الطبقة، سعد، فهمي: العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة: ١٢٤ ـ ١٢٥.

٢ ـ طبقة التجار.

٣ ـ الطبقة العامة العاملة.

وعرف أواسط القرن الثالث الهجري ازدياداً في دور الإقطاع[١] وتُعدُّ ضياع البصرة، حيث كان الزنج يعملون، في الأراضي الموات التي كان عليهم استصلاحها وتجفيفها، مما تطلب زيادة الاعتماد على العبيد المجلوبين من شرقي إفريقية، باعتبارهم أيدي عاملة رخيصة وذات بنية قوية تصلح للعمل في تلك السباخ أو الأراضي الملحية[٢]. وقد ترافق ذلك مع ازدياد دور التجارة. فقام التجار بشراء العبيد بأثمان رخيصة، وباعوهم لملاك الأراضي في البصرة الذين حشروهم في تلك المنطقة.

واتسعت الهوة، مع مرور الزمن، بين هؤلاء وبين الطبقة الإقطاعية. وبلغ التناقض الاجتماعي مداه، مما كان دافعاً للاستجابة لنداء الثورة الذي أطلقه علي بن محمد.

ومن حيث الدوافع الاجتماعية[٣]، فقد عاشت تلك الفئات من العبيد ظروفاً معيشية شاقة وسيئة، فكان عليهم العمل في تجفيف المستنقعات وإزالة السباخ عن الأراضي، ثم نقل الملح بواسطة الدواب إلى حيث يُعرض ويباع؛ لقاء وجبة طعام تتألف من الدقيق والسويق والتمر[٤]، ما كانت لتشبع، كما حُشروا في مخيمات لا تتوافر فيها الشروط الصحية العامة، فتعرضوا للأمراض الفتّاكة، كما تعرضوا لضغط عوامل نفسية شديدة الوطأة بفعل أنهم كانوا عزاباً أو متزوجين يعيشون بعيداً عن أسرهم.

وقد دفعت هذه الأوضاع الاجتماعية المتردية، هؤلاء العبيد، إلى الاستجابة لنداء علي بن محمد الذي وعدهم بقيادتهم إلى الحرية، وأن يهبهم الأملاك، وأن يبقى مخلصاً لهم حتى النهاية، مركزاً على بؤسهم وسوء حياتهم، ومنّاهم بمستقبل رائع، ومنازل لإيوائهم.

---

(١) مسكويه: جـ ٢ ص ٩٦.

(٢) السباخ هو الطبقة الملحية المتسربة من مياه الخليج العربي.

(٣) راجع: علبي: ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٤) الطبري: جـ ٩ ص ٤١٣. كانت منطقة شط العرب أرضاً مستنقعية تقطعها الأقنية المتعددة التي تتعرض لتقلبات المد والجزر. ومع مرور الزمن غطّت طبقة ملحية معظم الأراضي بحيث جعلت الزراعة مستحيلة. وهكذا استخدم رجال الأعمال البصريون اليد العاملة من الزّنج لإزالة الطبقة الملحية.

وما زال الزَّنج يلتفون حول علي بن محمد حتى كان يوم الفطر، فخطب فيهم، وصلى بهم، وأعاد إلى أذهانهم ما كانوا يلقونه من ظلم وعنت، ومنّاهم الأماني الطيبة، واتخذ من مدينة المختارة، التي بناها قاعدة انطلاق[1].

وقد برهن على أنه قائد مقتدر، إذ تميزت حملاته بكفاءة استطلاعية، فتوفرت له دائماً المعلومات عن تحركات جيوش الخلافة. واعطته السياسة القتالية التي اتبعها، والقائمة على نصب الكمائن، التفوق على قوات الخليفة. فدخل البصرة عام (٢٥٧ هـ/ ٨٧١م)، وقتل سكانها وأحرقها[2].

كانت الخلافة آنذاك منهمكة في حرب يعقوب بن الليث الصفّار مما أعطى علي بن محمد فرصة التمادي والتوسع والتدمير، فسيطر خلال عشرة أعوام (٢٥٥ ـ ٢٦٥ هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٧٩م) على رقعة واسعة تمتد بين الأهواز وواسط، وباتت بغداد مهددة.

عندئذ عهد الخليفة المعتمد إلى أخيه أبي أحمد الموفق طلحة، بمحاربة الزَّنج. فتولى هذا القائد قيادة العمليات العسكرية بنفسه. واستعمل كل ما لديه من إمكانيات سياسية واقتصادية وعسكرية ليكفل النجاح، فحاصرهم اقتصادياً ليضعف قدراتهم، فأحرق غلالهم ومؤنهم، وقطع التموين عنهم الذي كان يقدمه الأعراب لهم. فعضّهم الجوع، وخارت قواهم. فاستسلمت أعداد كبيرة منهم. ومن حيث الصدامات العسكرية، فقد تمكّن الموفق من إجلائهم عن الأهواز، وفتح مدينتهم المختارة، ثم توالت هزائمهم وسقوط مدنهم الأخرى حتى تم النصر النهائي عليهم في عام (٢٧٠ هـ/ ٨٨٣م). وقُتل علي بن محمد إبان المعارك واستسلم من بقي من أتباعه[3].

وبإخماد الثورة، أسدل الستار على هذه الحركة التي أقضت مضاجع الخلافة العباسية، وكلفتها الكثير من الجهد والأموال والأرواح، والتي دامت أكثر من أربعة عشر عاماً (٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٨٣ م).

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ٤١٤ ـ ٤١٥. حسن: جـ ٣ ص ٢١١. تقع المختارة على قناة نهر أبي الخصيب جنوبي شرقي البصرة.

(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٧٤. الطبري: المصدر نفسه ص ٤٧١ ـ ٤٧٢.

(٣) الطبري: جـ ٩: ص ٦٣١، ٦١٤ ـ ٦١٥.

تقييم حركة الزنج

لقد انطلقت حركة الزنج من واقع الألم والاضطهاد الاجتماعي والاقتصادي بين مستنقعات البصرة وسهولها. وكانت بدايتها ناجحة انسجمت فيها أهدافها مع أفعالها لكن النزعة الفوضوية التي طبعتها وهي في قمة مواجهتها أدت إلى تقلّص أبعادها الاجتماعية، وقد زاد من تلك النزعة، افتقارها إلى برنامج ثوري يصوغ تطلعات وأهداف القائمين بها، ويوضح العلاقة بين القيادة والأتباع. كما يلاحظ أن رجالها استهدفوا الانتقام لا الإصلاح، والانقلاب الاجتماعي لا التقويم؛ وأن قائدها لم يستطع أن يحرر ذاته من مسألة فكرة الزعامة القرشية، بالإضافة إلى أن أطرها الثورية كانت محلية ومحدودة ولم تكن لديها تطلعات شاملة، وندرك من هنا عدم نجاح علي بن محمد في اكتساب قطاعات كبيرة من المجتمع العراقي، كالفلاحين وكبار الملاك والتجار والحرفيين، وحتى القرامطة، فأصبح العبيد بمفردهم ضعفاء رغم عددهم الكبير.

ومن جهة ثانية، فإن سرعة الأحداث، وتصميم العباسيين على القضاء عليها، لم يعطيا قائدها مهلة لتنظيم صفوف قواته، وتمكنه من بناء مجتمع مستقر ذي أنظمة خاصة، لذلك، كان من الطبيعي أن تفقد هذه الحركة طابعها الإنساني والثوري مما دفعها إلى نهايتها المحتومة، لكن قاعدتها الثورية التي تشتّتت استطاعت أن تكوّن إحدى الدعائم الأساسية التي دفعت الحركة القرمطية إلى الظهور فيما بعد[(١)].

د ـ العلاقة مع الطالبيين

الزيدية

حفل العصر العباسي الثاني بكثير من الحركات السياسية والدينية التي كان لها أثر بعيد في تاريخ هذا العصر، والعصور اللاحقة، فقد قام الشيعة بحركات تمخّض عنها انفصال كثير من أجزاء الدولة، وانتشار المبادىء الشيعية، خاصة الإسماعيلية والقرامطة، وتكللت جهود الإسماعيلية بقيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب إلى جانب قيام الدولة العلوية الزيدية في طبرستان.

---

(١) راجع فيما يتعلق بأسباب فشل حركة الزنج: علبي: ص ١٤٥ ـ ١٦٧.

والواقع أن عهد المتوكل تميز بالتضييق على الشيعة عامة، وقد تأثر هذا الخليفة بآراء وزيره عبيد الله بن خاقان الذي اشتهر بكراهيته لهذه الفئة من المسلمين[١].

وقام الزيدية في عهد المستعين بعدة حركات ضد السلطة المركزية لعل أبرزها خروج يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد في الكوفة، ويبدو أن لخروجه علاقة مباشرة بتحسين أوضاعه المادية[٢].

وجمع يحيى حوله عدداً من الأعراب وجماعة من سكان الكوفة، ودخل هذه المدينة بعد أن هاجمها ودعا فيها إلى الرضا من آل محمد[٣]. لكن حركته لم يكتب لها النجاح، إذ اصطدم به القائد العباسي الحسين بن إسماعيل بن إبراهيم بن مصعب، وتغلب عليه، وقُتل يحيى في المعركة[٤].

أما الحركة الزيدية الأخرى التي تركت أثراً فكانت خروج الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل في نواحي طبرستان في (شهر رمضان عام ٢٥٠ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٨٤٦ م). وكان سوء تصرف الولاة العباسيين، في تلك المنطقة، السبب الأبرز لخروجه، مما دفع السكان إلى الارتماء في أحضان الطالبيين، وبايعوه، كما بايعه رؤساء الديلم، ولقب نفسه «داعي الخلق إلى الحق» أو «الداعي الكبير». وتمكن خلال مدة ثلاثة أعوام من الاستيلاء على جميع طبرستان وقسماً هاماً من الديلم والري. وأخذ الطالبيون يتقاطرون عليه من الحجاز والشام والعراق، بعد أن ذاع صيته واشتدت شوكته[٥].

الإسماعيلية

في الوقت الذي كانت حركة الزنج تحتضر ظهرت دعوة الإسماعيلية التي يعود تاريخ حضورها على المسرح السياسي إلى أواخر عهد دولة الخلافة الأموية عندما انضم عدد كبير من الزيدية إلى طائفة الإمامية من أنصار جعفر الصادق، وبعد وفاته

---

(١) الأصفهاني: ص ٤٧٨، ٤٩٠.
(٢) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣١٤.
(٣) الأصفهاني: ص ٥٠٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ٥٠٧، ٥٠٩. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣١٢.
(٥) إقبال عباس: تاريخ إيران بعد الإسلام: ص ٢٠ ـ ٢١.

انقسمت الشيعة الإمامية إلى قسمين بفعل اختلاف الرأي في كيفية تحديد الحق الوراثي لاختيار الإمام، وهما الإمامية الموسوية، وقد أطلق عليها فيما بعد الاثنا عشرية، اعتقد أتباعها بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهو عندهم الإمام السابع والإمامية الإسماعيلية الذين اعتقدوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وهو أكبر أولاد أبيه، ومع أن وفاته حصلت في حياة والده، فقد حوّل أتباعه الإمامة إلى ابنه محمد المستور، وهو عندهم الإمام السابع، ومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبعية لتمييزهم عن الاثني عشرية[١].

ومن أشهر نواب الأئمة الإسماعيلية الذين عملوا على نشر المذهب وترأسوا الدعوة ميمون القداح[٢] الذي وضع أسس المذهب الإسماعيلي، ممهداً السبيل لابنه عبد الله الذي أقام في سلمية من أعمال حماة في بلاد الشام، وانتشر دعاته في المناطق المضطربة لاستغلال تذمر بعض قطاعات من الناس من الإدارة العباسية.

انتظمت الدعوة منذ الثلث الأخير من القرن التاسع الميلادي في بلاد اليمن والعراق[٣]. والراجح أن الدعوة إلى هذا المذهب ظهرت عقب وفاة الحسن العسكري

---

(١) يُعدُّ الانشقاق الذي طرأ بعد وفاة الصادق من أكبر ما وقع من الانقسامات في صفوف الشيعة ليس فقط لأن طائفة الإسماعيلية، لا يزال لها أتباع إلى اليوم، ولكن لأنها تمكنت من أن تقيم دولة كانت في وقت ما أكبر الدويلات التي نشأت في العصر العباسي الثاني، وأعني بها الدولة الفاطمية. وليست خطورة هذا الانشقاق تعود إلى مجرد الخلاف حول الإمامة بعد جعفر الصادق، ذلك أن ظهور طائفة الإسماعيلية يرجع إلى عوامل كثيرة تتعدى مجرد اتهام إسماعيل بشرب الخمر أو وفاته في حياة أبيه. ويبدو أنه لا يمكن الفصل بين ظهورها وقيام دولة الخلافة العباسية التي قامت تحت ادعاء أحقية أهل البيت في الخلافة ثم تمكّن أبناء العباس أن يستأثروا بالأمر دون الطالبيين. وفي الوقت الذي جنح فيه الصادق الذي عاصر هذا التحول بكل ما يتضمنه من خيبة أمل كبرى للطالبيين إلى الابتعاد عن التيارات السياسية، كان إسماعيل ذا صلة وثيقة بالأوساط المتطرفة التي أوجدت الفرقة المسماة باسمه، وقد عزله جعفر الصادق. راجع: صبحي، أحمد محمود: نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية: ص ٣٨٠ ـ ٣٨٣.

(٢) ميمون القداح بن ديصان: هو رجل فارسي، ثنوي المذهب، أظهر الإسلام.

(٣) كاهن، كلود: تاريخ الشعوب الإسلامية: ص ١٧٨.

وهو الحادي عشر من أئمة الشيعة الاثنا عشرية في عام (٢٦٠ هـ/ ٨٧٤ م)[١].

تعرض الإسماعيليون للاضطهاد على أيدي السلطة، فاضطروا إلى الاعتصام في مواطن نائية ومنيعة يصعب على العباسيين اقتحامها. كما نشروا دعوتهم سراً، واجتهدوا لاستقطاب الأتباع منطلقين من سلمية إلى كافة البقاع الإسلامية. لكن ركون الحركة الإسماعيلية في تلك الفترة إلى العمل السري، لم يمنعها من ممارسة العمل السياسي فقد كانت تترجم أفكارها السرية في مضايقة الدولة كلما سمحت لها الظروف.

القرامطة

توجهت الدعوة الإسماعيلية إلى كافة طبقات المجتمع، لكن التجاوب كان متفاوتاً، في حين وجد الفرس فيها أسلوباً للتعبير عن كراهيتهم للعرب، وهكذا أضحت الدعوة الإسماعيلية حركة ثورية كبيرة تضم اتجاهات مختلفة لعل أبرزها:

- الاتجاه الاجتماعي لإقامة العدالة الاجتماعية.
- الاتجاه الشيعي الذي شكلت المبادىء الشيعية هدفه الأسمى.
- الاتجاه العنصري الفارسي الذي أدرك مناصروه أهمية تحقيق المبادىء المزدكية.

لكن جمعت هذه الاتجاهات غاية واحدة هي حلم الخلافة. وقد نتج عن اختلاف الأهداف استحالة اندماج الميول المتعددة بشكل كامل. وهذا يفسر السبب في تطور مراحل هذه الدعوة التي اتخذت طابعاً مختلفاً أو حتى متنافضاً. فقد نشأت عن المذهب الإسماعيلي قوتان كبيرتان هددتا دولة الخلافة العباسية؛ إحداهما الحركة القرمطية التي ضايقت العباسيين فعلاً، وهددتهم في عقر دارهم، والأخرى هي الدولة العبيدية التي انطلقت من سلمية وقامت في بلاد المغرب[٢].

ظهرت الحركة القرمطية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وهي استمرار للدعوة الإسماعيلية رغم الأطوار العصيبة التي مرت بها العلاقة بين الحركة

---

(١) الخضري: الدولة العباسية: ص ٣٠٠.

(٢) انقسمت فرقة السبعية إلى قسمين: أحدهما وقف عند محمد بن إسماعيل، وانتظر عودته مهدياً وهؤلاء هم القرامطة، والأخر اعترف بسلسلة متصلة من الأئمة من نسل إسماعيل وهؤلاء هم الإسماعيلية الذين أسسوا الدولة الفاطمية: عمر: ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

الأم (الإسماعيلية) والحركة الناشئة (القرمطية) ووصولها إلى حد المواجهة المسلحة. ولدى العودة إلى المصادر الإسماعيلية، نراها تنظر إلى القرامطة نظرة فئة تمردت على قيادتها وانشقت عنها[١].

نشأت الحركة في سواد العراق في عام (٢٦١ هـ/ ٨٧٥ م) في عهد الخليفة المعتمد[٢] ثم انتقلت إلى بلاد الشام والبحرين واليمن، وذلك في ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية هي نفسها التي قامت في ظلها حركة الزنج، والراجح أن الاتجاه الاجتماعي ـ الاقتصادي قد غلب على اتجاهها الديني بالرغم من أن دعاتها كانوا متطرفين في آرائهم الدينية المتعلقة بالشريعة الإسلامية[٣].

ويعتبر حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط، وهو من أهل الكوفة أحد دعاة القرامطة الأوائل. وقامت دعوته في أعقاب القضاء على حركة الزنج. واتجهت إلى أولئك الذين نجوا في المناطق التي عمّت فيها الحركة المذكورة، فصادفت رواجاً كبيراً في صفوف الأعراب الذين يتوقون للغنائم وفلاحي السواد والطبقات الفقيرة، وسُمي أتباعه بـ «القرامطة» نسبة إليه[٤].

ثم حدث أن خبت الحركة في العراق بفعل الاختلاف الذي حصل بين قيادتها والقيادة الإسماعيلية، وآلت قيادتها إلى زكرويه بن مهرويه الفارسي وهو أحد تلاميذ حمدان، الذي نقل نشاطه إلى بلاد الشام، وامتد إلى بادية السماوة.

وأخذ ابناه، يحيى بن زكرويه الملقب بصاحب الناقة، وحسين بن زكرويه الملقب بذي الشامة أو صاحب الخال، على التوالي، مهمة نشرها، وتلقب كل منهما بأمير المؤمنين،

---

(١) زكار، سهيل: الجامع في أخبار القرامطة: جـ ١ ص ١٠٩.
(٢) العش، يوسف: تاريخ عصر الخلافة العباسية ص ١٥٥.
(٣) استندت الدعوة الإسماعيلية على فكرة الباطنية، بمعنى أن لكل ظاهر باطناً. فآيات القرآن ظاهرها يعطي معنى، وباطنها يعطي معنى آخر يختلف كلياً عن المعنى الظاهري. وأن الإمام العلوي وريث النبوة والمطلع على الأسرار الإلهية، وهو وحده الذي يستطيع أن يؤول آيات القرآن. راجع فيما يتعلق بمبادىء الحركة القرمطية المنبثقة من الإسماعيلية: عنان، محمد عبد الله: تاريخ الجمعيات السرية الحركات الهدامة ص ٣١ ـ ٣٢، ٣٧ ـ ٣٨.
(٤) الطبري: جـ ١٠ ص ٢٥.

فهاجما المدن والقرى، وأثارا القلق والهلع في بلاد الشام، قبل أن تقضي الدولة عليهما في عامي (٢٩٠ و٢٩١ هـ/ ٩٠٣ ـ ٩٠٤ م)[١].

وقام زكرويه لينتقم لمقتل ابنيه، لكنه قتل في عام (٢٩٤ هـ/ ٩٠٧ م)[٢]. وانتهى بمقتله أمر القرامطة في بلاد الشام.

وتقترن الحركة القرمطية في البحرين باسم أبي سعيد الجنّابي الفارسي وابنه أبي طاهر، وقد بسط الأول هيمنة فعلية على هجر والأحساء والقطيف وسائر البحرين، وأنشأ دولة مستقلة عاصمتها المؤمنية، وقتل في عام (٣٠١ هـ/ ٩١٤ م). فتسلم ابنه أبو طاهر سليمان رئاسة الدعوة وتابع سياسة العنف بأساليب بالغة الخطورة. فعانت البصرة والكوفة من غاراته الوحشية. كما أغار على قوافل الحجاج، وهاجم مكة في عام (٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م)، فنهب أموال الحجاج وقتلهم في المسجد الحرام واقتلع الحجر الأسود من الكعبة، واحتجزه في هجر لعدة أعوام[٣] مع ما يمثل ذلك من تحد كبير لشعور المسلمين. وقد ندّد خصومه من أهل السنة، وحلفاؤه من الإسماعيليين والعبيديين بأعماله.

ويبدو أن هناك عاملين دفعا بالقرامطة إلى انتهاج هذا المنحى الديني والاقتصادي.

فمن الناحية الدينية حاول القيمون على الحركة باعتبارهم يمثلون فرقة باطنية غالية، إيجاد عقيدة جديدة توفق بين الإسلام والعقائد القديمة. فهم لم يعترفوا بالإسلام كدين، رغم تظاهرهم بذلك، بل أدخلوا عليه عقائد الحلول والتناسخ وقدسية الأئمة[٤].

أما من الناحية الاقتصادية، فيبدو أن القرامطة أرادوا إيقاف الحج ومهاجمة القوافل التجارية نظراً للمنافع المادية الناتجة عنه. كما أن هجماتهم التي نفذوها على

---

(١) الطبري: جـ ١٠ ص ٩٩ ـ ١٠٠، ١٠٨ ـ ١١١.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٣٠ ـ ١٣٤.
(٣) أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة في عام ٣٣٩ هـ بعد أن بقي في حوزتهم اثنان وعشرون عاماً.
(٤) عمر: ص ٣١٢.

البصرة كانت تهدف إلى بثّ الفوضى وعدم الاستقرار فيها لتحويل تجارتها إلى موانىء الخليج التي يسيطرون عليها بعد أن رفض الخليفة طلباً لأبي طاهر أن يتنازل عن الأهواز والبصرة، بالإضافة إلى الهيمنة على تجارة الهند البحرية وصناعة خوزستان[١].

ومهما يكن من أمر فقد فقدت الحركة القرمطية في البحرين تماسكها بعد وفاة أبي طاهر في عام (٣٣٢ هـ/ ٩٤٢ م)، بفعل الصراع على الزعامة، بالرغم من أن الدولة القرمطية استمرت حتى عام (٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ م) وسط تيارات معادية أوجدها تعصبهم الديني المتطرف.

قيام الدولة العبيدية الفاطمية

أرسل الحسين ابن حوشب، داعي الإسماعيليين في اليمن، أبا عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب في عام (٢٨٨ هـ/ ٩٠١ م). لنشر الدعوة في هذه البلاد، بعد وفاة داعيي الإسماعيلية فيها وهما الحلواني وأبو سفيان، ونجح أبو عبد الله هذا في استقطاب جماعة من حجاج كتامة وصحبهم إلى بلاد المغرب حيث بثّ دعوته بين الناس، وقوي أمره بما التفّ حوله من الأتباع واستولى على القيروان في عام (٢٩٦ هـ/ ٩٠٩ م) وأزال دولة الأغالبة. ثم أرسل إلى عبيد الله المهدي في سلمية يدعوه للحضور إلى إفريقية لتسلم الأمر. رحب عبيد الله بالدعوة، فترك سلمية وتوجه إلى المغرب، فوصل إليها في عام (٢٩٧ هـ/ ٩١٠) حيث بويع له بالخلافة، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين واضعاً بذلك الأساس الذي قامت عليه دولة الخلافة العبيدية[٢].

---

(١) المرجع نفسه: ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٢) راجع فيما يتعلق بنسب الخلفاء الفاطميين: عنان، محمد عبد الله: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ص ٤٧ ـ ٧٥. أما فيما يتعلق بقيام الدولة الفاطمية، فيمكن العودة إلى كتاب تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ١ ـ ٥٠.

الأوضاع الداخلية لدولة الخلافة العباسية

أولاً: العلاقات مع الدول الانفصالية في المشرق

الدولة الطاهرية: ٢٠٥ ـ ٢٥٩ هـ/ ٨٢٠ ـ ٨٧٣ م

أسماء الأمراء الطاهريين ومدة إمارة كل منهم:

١ ـ طاهر بن الحسين بن مصعب	٢٠٥ ـ ٢٠٧ هـ/ ٨٢٠ ـ ٨٢٢ م
٢ ـ طلحة بن طاهر	٢٠٧ ـ ٢١٣ هـ/ ٨٢٢ ـ ٨٢٨ م
٣ ـ عبد الله بن طاهر	٢١٣ ـ ٢٣٠ هـ/ ٨٢٨ ـ ٨٤٤ م
٤ ـ طاهر بن عبد الله	٢٣٠ ـ ٢٤٨ هـ/ ٨٤٤ ـ ٨٦٢ م
٥ ـ محمد بن طاهر	٢٤٨ ـ ٢٥٩ هـ/ ٨٦٢ ـ ٨٧٣ م

نشأت الدولة الطاهرية بإرادة الخلافة. أسسها طاهر بن الحسين أحد قادة المأمون الذي ولاّه على خراسان في عام (٢٠٥ هـ/ ٨٢٠ م) وأضاف إليه أعمال المشرق كلها من بغداد[١] ولم يتشدد كثيراً في مطالبته بالولاء.

اتخذ طاهر نيسابور قاعدة له وراودته منذ بداية توليته نزعة انفصالية، فخلع المأمون من الخلافة في عام (٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م)، وقطع الدعاء له، ثم طرح لبس السواد معلناً بذلك انفصاله عن بغداد[٢]. إلا أن طاهراً توفي فجأة بعد ذلك وقد حامت الشبهة حول الخليفة بأنه أمر بدس السم له[٣]. وعلى الرغم من وقوف المأمون على

---

(١) الطبري: جـ ٨ ص ٥٧٧. حكم الطاهريون خراسان والمناطق الواقعة شرقها وشمالها حتى الحدود الهندية وحدود الأتراك.

(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤١٣.

(٣) المصدر نفسه.

أطماع طاهر فإنه أقرّ ابنه طلحة على ولاية خراسان[1].

ومن جهتهم، حرص الطاهريون، خلفاء طاهر، على استمرار سياسة التعاون مع الخلافة معترفين بسلطانها. وتجلت هذه السياسة في:

- قيام طلحة بحرب الخوارج في سيستان.
- قيام عبد الله بن طاهر بالقضاء على الفتن الخارجية في مصر، وعلى الحركات الطالبية المناهضة للنظام في خراسان، كما تعاون مع الخلافة في القضاء على حركة المازيار في طبرستان.

وقد قدّر العباسيون هذه الخدمات، فقرّبوا آل طاهر ومالوا إلى جانبهم في صراعهم مع الصفّاريين.

تمتعت خراسان في عهدهم بالأمن والرخاء والازدهار، شجعوا الزراعة ونظموا الري. اهتموا بالتعليم حتى أضحت نيسابور في عهدهم، مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية.

أما من حيث العلاقات الخارجية، فقد حافظوا على الولايات الشرقية من تعديات الأتراك، ووسعوا رقعة البلاد، ووطدوا سلطان المسلمين بالقضاء على الخارجين. لكنهم وقفوا عاجزين أمام تفاقم الحركات الطالبية حتى سقطوا تحت ضربات الصفّاريين.

---

(١) الطبري: جـ٨ ص ٥٩٥. امتدت أملاك الطاهريين فشملت مقاطعة هراة جنوباً والساحل الجنوبي الشرقي من بحر قزوين غرباً، وأعالي وادي نهر جيحون في أسفل جبال هندوكوش شرقاً وشمل سلطانهم جميع بلاد ما وراء النهر.

الدولة الصفّارية: ٢٥٤ ـ ٢٩٨ هـ/ ٨٦٧ ـ ٩١١ م

أسماء الأمراء الصفّاريين ومدة إمارة كل منهم:

١ ـ أبو يوسف يعقوب بن الليث	٢٥٤ ـ ٢٦٥ هـ/ ٨٦٧ ـ ٨٧٨ م
٢ ـ عمرو بن الليث	٢٦٥ ـ ٢٨٧ هـ/ ٨٧٨ ـ ٩٠٠ م
٣ ـ أبو الحسن طاهر بن محمد بن عمر بن الليث	٢٨٧ ـ ٢٩٦ هـ/ ٩٠٠ ـ ٩٠٨ م
٤ ـ الليث بن علي بن الليث	٢٩٦ ـ ٢٩٨ هـ/ ٩٠٨ ـ ٩١٠ م
٥ ـ أبو علي محمد بن علي بن الليث	٢٩٨ هـ / ٩١١ م

تمثل هذه الدولة امتداداً سياسياً للحركات الانفصالية التي قامت في المشرق الإسلامي في جزء من أجزاء إيران الجغرافية وهو الجزء الجنوبي، أسسها يعقوب بن الليث الصفّار[١] الذي استغل فرصة ضعف الخلافة العباسية المنهمكة في قتال الزَّنج، فتغلب على أقاليم إيران الجنوبية وضمّ إليه بلاد فارس، وتوسع باتجاه خراسان بعد أن قضى على الدولة الطاهرية في عام (٢٥٩ هـ/ ٨٧٣ م) فاشتدت شوكته، وسيطر على سجستان في أقصى شرقي إيران الجنوبية ووادي كابل والسند ومكران[٢]. ثم كتب إلى الخليفة بما آلت إليه الأوضاع في المشرق. وتميز حكمه بالخصائص السائدة في ذلك العصر. فحقق الأمن والسلام في المناطق التي تحت سيطرته فتعلق الجيش به وسانده السكان.

ويبدو أن الخليفة لم يرض عن تصرفات يعقوب وتوسعاته. واعتبر أن الدولة الطاهرية هي القاعدة التي تعتمد عليها الخلافة في المشرق وأن القضاء عليها من شأنه أن يشكل تهديداً مباشراً لها، وخطراً على الوجود العباسي في الولايات الشرقية. لذلك جاء ردُّ الخليفة المعتمد على ازدياد نفوذ يعقوب سريعاً وقاسياً. فلعنه أمام حجاج خراسان والريّ وطبرستان وجرجان[٣].

أثار تصرف الخليفة هذا، غضب يعقوب فتحدى السلطة المركزية وتقدم نحو فارس واحتلها. وتابع تقدمه باتجاه العراق حتى وصل إلى الأهواز. فأرسل إلى الخليفة

---

(١) لقب بالصفّار لأنه بدأ حياته يعمل بصناعة الصفر أي تصفير الأواني النحاسية.

(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨، ٣٦٣.

(٣) ابن خلّكان: جـ ٦ ص ٤١٢.

يطلب منه أن يعقد له على ولايات المشرق وشرطتي بغداد وسامراء وأن يبطل لعنه أمام الحجاج[1].

شعرت الخلافة بعجزها عن التصدّي للزحف الصفاري، فمالت إلى المهادنة، وأجابت يعقوب إلى طلبه[2]، وكانت آنذاك بصدد الصدام مع الزّنج.

والحقيقة أن الخلافة لم تركن إلى المهادنة إلا بقدر حاجتها إلى التقاط أنفاسها، وسنوح فرصة أخرى، تستغلها للقضاء على قوة الصفاريين، وكانت قد أقامت حكماً موالياً لها في إقليم ما وراء النهر بقيادة نصر بن أحمد الساماني. فهدّدت بذلك الدولة الصفّارية من الخلف.

أدرك يعقوب بن الليث سياسة الخليفة العدائية تجاهه، فقرر أن يضع حداً نهائياً لهذه الحالة بالسيطرة على بغداد وإخضاع الخلافة لسلطته المباشرة.

وظهر عجز الخلافة مرة أخرى، فمالت إلى المهادنة كسباً للوقت فأرسلت إلى يعقوب تقليداً بأعمال فارس وخراسان وكرمان والري وأصفهان بالإضافة إلى شرطتي بغداد وسامراء، لكن هذا الأخير كان مريضاً، فلم يؤثر رفضه لتدابير الخليفة على الأحداث اللاحقة حيث توفي بعد ذلك في عام (٢٦٥ هـ/ ٨٧٨ م)[3] بعد أن تجاوز طموحه التبعية للخليفة العباسي إلى الانفصال التام عن دولة الخلافة العباسية.

خلف عمرو أخاه يعقوب باختيار الجند له[4] وقد اتصف بالبراعة السياسية. فلجأ إلى أسلوب آخر في نزاعه مع الخلافة متبعاً سياسة اللين والمهادنة واضعاً كل اعتبار لتغير الظروف. لذلك كتب إلى الخليفة المعتمد يعلن طاعته. فأرسل إليه الموفق التقليد بما كان بيد أخيه[5]، ثم أخذ يعمل على تدعيم مركزه وتثبيت سلطانه في الداخل. فأنشأ جيشاً خاصاً من المماليك الترك لحراسته[6]، وأهدى كثيراً منهم لقادته، وأغراهم بالمال ليوافوه سراً بالأخبار التي لا يستطيع الحصول عليها علناً.

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ٥١٤. ابن خلّكان: جـ ٦ ص ٤١٣.
(٢) المصدر نفسه: ص ٥١٦.
(٣) ابن الأثير: جـ ٦، ص ٢١.
(٤) ابن خلّكان: جـ ٦، ص ٤١٩.
(٥) ابن الأثير: جـ ٦، ص ٢٢.
(٦) كان يشتريهم صغاراً، ويربيهم ويدربهم على الأعمال العسكرية.

على أن العلاقات الطيبة مع الخلافة العباسية لم تلبث أن ساءت. ذلك أن المعتمد خشي من طموحات عمرو ونزعاته الانفصالية. وكان قد قضى لتوه على حركة الزَّنج، فأضحى طليق اليدين في التصرف تجاه الحركات الانفصالية. فأصدر قراراً بعزله عن البلاد التي ولاّه إياها، وأعلن هذا الخلع على ملأ من حجاج خراسان، ولعنه بحضرتهم، وقلّد محمداً بن طاهر، الذي حرّره الخليفة من أسره، بلاد خراسان[١]، ثم أرسل جيشاً إلى هذا البلد بقيادة الموفق لمحاربته فأجبره على التراجع إلى سجستان لكنه لم يستطع السيطرة على كرمان وسجستان، فعاد أدراجه[٢].

ولما ولي المعتضد الخلافة في عام (٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م) سارع عمرو إلى استرضائه. فأعلن ولاءه له وأرسل إليه الهدايا وسأله ولاية خراسان. فأجابه الخليفة إلى ذلك وعزلِ محمداً بن طاهر عنها[٣]، ثم طلب من الخليفة أن يوليه بلاد ما وراء النهر دون أن يقدّر الصعاب التي تعترض ذلك. وهنا وجد الخليفة فرصته للقضاء على قوة الصفّاريين المتزايدة. فأراد أن يضرب عَمْراً بالقوة السامانية النامية. لذلك أجابه إلى طلبه، وهو يتوقع حصول صدام بين القوتين للفوز بحكم هذا الإقليم. وفعلاً صدقت توقعات الخليفة، فقد اصطدم السامانيون بالصفّاريين في عام (٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م) وتغلبوا عليهم، وأسر عمرو، وأُرسل إلى الخليفة الذي سجنه. ومات في سجنه في عام (٢٨٩ هـ/ ٩٠٢ م)[٤].

وأخذت الخلافة ترسل الجيوش تلو الجيوش إلى الولايات الشرقية لبسط سيطرتها الفعلية عليها حتى استطاعت القضاء على خلفاء عمرو. وتمكن أحمد بن إسماعيل الساماني من السيطرة على سجستان في عام (٢٩٨ هـ/ ٩١١ م)[٥] ومن ثمّ زالت الدولة الصفّارية، بعد هذه الفترة القصيرة من الحكم على الرغم من قوة جيوشها واتساع رقعة البلاد التي حكمتها، وحسن إدارة قادتها. والسبب الرئيس لزوالها هو تهديدها للخلافة العباسية، وموقف هذه الأخيرة العدائي منها، وما بذلته من الجهود المتصلة للقضاء عليها.

---

(١) الطبري: جـ ١٠، ص ٧.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٣. ابن الأثير: جـ ٦، ص ٦٢.
(٣) المصدر نفسه: ص ٤٩ ـ ٥٠. ابن خلّكان: جـ ٦، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥.
(٤) المصدران نفساهما: ص ٧٦. ص ٤٢٦.
(٥) الطبري المصدر نفسه: ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

الدولة السامانية: ٢٦١ ـ ٣٨٩ هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٩٩ م

أسماء الأمراء السامانيين ومدة إمارة كل منهم:

١ ـ نصر بن أحمد: نصر الأول	٢٦١ ـ ٢٧٩ هـ/ ٨٧٤ ـ ٨٩٢ م
٢ ـ إسماعيل بن أحمد	٢٧٩ ـ ٢٩٥ هـ/ ٩٨٢ ـ ٩٠٧ م
٣ ـ أحمد بن إسماعيل	٢٩٥ ـ ٣٠١ هـ/ ٩٠٧ ـ ٩١٣ م
٤ ـ نصر بن أحمد: نصر الثاني	٣٠١ ـ ٣٣١ هـ/ ٩١٣ ـ ٩٤٢ م
٥ ـ نوح بن نصر: نوح الأول	٣٣١ ـ ٣٤٣ هـ/ ٩٤٢ ـ ٩٥٤ م
٦ ـ عبد الملك بن نوح: عبد الملك الأول	٣٤٣ ـ ٣٥٠ هـ/ ٩٥٤ ـ ٩٦١ م
٧ ـ منصور بن نوح: منصور الأول	٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ/ ٩٦١ ـ ٩٧٦ م
٨ ـ نوح بن منصور: نوح الثاني	٣٦٦ ـ ٣٨٧ هـ/ ٩٧٦ ـ ٩٩٧ م
٩ ـ منصور بن نوح: منصور الثاني	٣٨٧ ـ ٣٨٩ هـ/ ٩٩٧ ـ ٩٩٩ م
١٠ ـ عبد الملك بن نوح: عبد الملك الثاني	٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م.

ينتسب السامانيون إلى إحدى الأسر الفارسية العريقة التي كانت تدين بالديانة الزرادشتية. ثم أسلم جدهم سامان خداه، وهو أحد أشراف مدينة بلخ في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك. وانضم إلى الدعوة العباسية في خراسان وعمل في صفوف أبي مسلم(١).

كان لسامان ابن يدعى أسد وقد سمّاه بهذا الاسم تيمناً باسم أسد بن عبد الله القسري والي الأمويين على خراسان الذي أسلم على يديه(٢).

قامت الدولة السامانية في إقليم ما وراء النهر، وامتدت إلى إيران، وبسطت سلطانها على خراسان كما ضمت طبرستان والري والجبل وسجستان. واتجهت إلى تبنّي النزعات الانفصالية الفارسية بشكل أكثر بروزاً من خلال إحياء اللغة والثقافة الفارسية(٣).

وأدّى أولاد أسد وهم نوح وأحمد ويحيى وإلياس دوراً بارزاً في وضع حد لحركة

---

(١) إقبال: ص ١٣٣.

(٢) ذبيح الله، صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جـ١ ص ٢٠٤.

(٣) Brown: literary Hist. of persia, I, pp 356, 369, 399.

رافع بن الليث بن نصر بن سيار في عهد الخليفة المأمون. فكافأهم ورفع من شأنهم وعينهم ولاة على أهم مدن بلاد ما وراء النهر[1].

ونجح الأخوة في التصدي لغارات الأتراك الوثنيين على مناطق الحدود بالتعاون مع الطاهريين، كما شاركوا في النزاع الذي قام بين هؤلاء والصفّاريين، فساندوهم وشدوا أزرهم، الأمر الذي جعل الطاهريين يقرونهم على أعمالهم بشكل دائم.

ولما زالت الدولة الطاهرية في عام (٢٥٩ هـ/ ٨٧٣ م) استقل السامانيون بحكم إقليم ما وراء النهر، وحكموه باسم الخلافة مباشرة. واعترفت هذه الأخيرة بجهودهم وإخلاصهم، ففصلت هذا الإقليم عن إقليم خراسان وأقرتهم عليه. وقد هدفت إلى مكافأتهم من جهة، وإيجاد قوة موالية لها وراء المنطقة الخاضعة للصفّاريين حتى تستفيد منها عند الحاجة، من جهة ثانية.

حرص السامانيون خلال حياتهم السياسية على التمسك بطاعة الخلافة العباسية، وكسب مودتها. والحقيقة أن تطلعاتهم، اتجهت نحو التوسع الخارجي متجنبين ما أمكن الدخول في النزاعات الداخلية مع الدول الإسلامية الأخرى، فكانوا بذلك المتممين الطبيعيين للمهمة التي بدأها الطاهريون، حماة للأمن والنظام. فمدوا نفوذ العالم الاسلامي فيما وراء الحدود الشرقية، إلى أواسط أسيا. وتركّزت فتوحاتهم في التركستان شرقي نهر جيحون. ونشروا الحضارة الإسلامية في تلك البلاد الوثنية، ودخل على أيديهم عدد كبير من الأتراك الوثنيين في الإسلام. فأمدوا العالم الإسلامي بعنصر جديد سيؤدي في المستقبل دوراً فعالاً في الحياة الإسلامية.

ومن جهتها، فقد وجدت الخلافة في السامانيين ولاة مخلصين إلا أنهم تمتعوا داخل بلادهم بالاستقلال والسيادة التامة. وكانت تعتمد عليهم في إقرار سلطانها في المشرق. فكانوا يدها لضرب الخارجين عليها. من ذلك، فقد قمع نصر الثاني ـ الذي وصلت قوة السامانيين في عهده أوجها ـ حركات وشمكير بن زيّار وماكان بن كالي وغيرهما من الخارجين على السلطة. وضمّ نتيجة انتصاراته عليهم أبهر وقزوين وقم وهمذان ونهاوند والدينور، وبلغ حلوان[2].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٤.

(٢) إقبال: ص ١٤٦.

لقد اتسمت علاقات السامانيين بجيرانهم المسلمين بالعدائية بفعل عداء هؤلاء للعباسيين. فدخلوا مضطرين في صراع مع الصفّاريين وقضوا على دولتهم كما اصطدموا بالطالبيين. فقد قضى إسماعيل بن أحمد الساماني على محمد بن زيد العلوي أمير طبرستان في عام (٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م) بعد أن طمع هذا الأمير في بلاد خراسان[١].

والحقيقة أن الدعوة الشيعية لم تنقطع في خراسان، حيث تمتّع الطالبيون بعطف كبير من جانب السكان، خاصة بعد قيام دولة الخلافة العبيدية في المغرب حيث وجد الدعاة العبيديون طريقهم إلى هذه المنطقة لنشر الدعوة في ربوعها، وتمكنوا من استقطاب الأمير نصر الثاني بن أحمد[٢].

ويبدو أن الأمير تعرّض لحركة معارضة لهذا التوجه من جانب قادة الحرس التركي والحاشية. فتآمروا عليه للتخلص منه، إلا أنهم فشلوا في ذلك. ومن جهة أخرى كان التعاطف الساماني مع الاتجاه الإسماعيلي مرحلياً، إذ بعد وفاة نصر قضى ابنه نوح على المذهب الإسماعيلي في ردة فعل عارمة[٣].

عمّرت الدولة السامانية مائة وثمانية وعشرين عاماً، وكادت أن تعمر أكثر من ذلك، لولا أن البيت الساماني تعرض لمشاكل داخلية، وضغوطاً خارجية أدّت إلى زواله.

فمن حيث المشاكل الداخلية، فقد نشبت الصراعات الأسرية بين أفراد البيت الساماني، أدّت إلى اندلاع الفتن والانتفاضات، كما خرج القادة وعمّال الأقاليم على حكمهم مستعينين ببني بويه[٤].

ومن حيث الضغوط الخارجية، فقد تعرضت الدولة السامانية لضغط متزايد من الديلم، والطالبيين، والبويهيين، وخانات الترك، والغزنويين، مما أدى إلى ضعفها وطمع جيرانها بها، لينقسم ملكها أخيراً بين قوتين ناميتين قوة الغزنويين، وقوة خانات الترك[٥].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٢) إقبال: ص ١٤٣.

(٣) المرجع نفسه: ص ١٤٤.

(٤) راجع فيما يتعلق بالنزاعات الأسرية داخل البيت الساماني: بارتولد: ص ٣٧١ ـ ٣٧٣.

(٥) راجع فيما يتعلق بانهيار الدولة السامانية: إقبال، ص ١٦٢.

ويبقى أن نذكر أن السامانيين أدّوا دوراً حضارياً وسياسياً بارزاً. فامتاز عصرهم بنهضة علمية وأدبية رائعة جعلت عاصمتهم بخارى من أهم المراكز العلمية الإسلامية. واتجهوا إلى إحياء الثقافة الفارسية والأدب الفارسي، الذي بدأ ينتعش منذ القرن الثالث الهجري، وظهرت في عهدهم الكتابة باللغة الفارسية إلى جانب اللغة العربية.

واشتهرت مكتبة الأمير نوح بن نصر، التي يقول عنها ابن خلكان أنها كانت «عديمة المثل، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا سُمع باسمه فضلاً عن معرفته»(١).

وشهد العصر الساماني نهضة صناعية تجلت في صناعة الخزف والورق والسجاد والمنسوجات الحريرية.

ومن الناحية السياسية، فقد دافع السامانيون عن منطقة الثغور الشرقية، ومدّوا النفوذ الإسلامي إلى بلاد الترك، ولم يخرجوا يوماً عن تبعية الخلافة العباسية في بغداد، واعتبروا أنفسهم الأداة المطبقة الطيّعة المنفذة لأوامر الخلفاء العباسيين.

وتمثل فترة حكمهم العصر الذهبي لتاريخ آسيا الوسطى الإسلامية.

---

(١) ابن خلكان: جـ ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

ثانياً: العلاقات مع الدول الانفصالية في مصر وبلاد الشام

الدولة الطولونية: ٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م

أسماء الأمراء الطولونيين ومدة إمارة كل منهم:

١ ـ أحمد بن طولون	٢٥٤ ـ ٢٧٠ هـ/ ٨٦٨ ـ ٨٨٤ م
٢ ـ خمارويه بن أحمد	٢٧٠ ـ ٢٨٢ هـ/ ٨٨٤ ـ ٨٩٥ م
٣ ـ أبو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢ ـ ٢٨٣ هـ/ ٨٩٥ ـ ٨٩٦ م
٤ ـ هارون بن خمارويه	٢٨٣ ـ ٢٩٢ هـ/ ٨٩٦ ـ ٩٠٤ م
٥ ـ شيبان بن أحمد	٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م

تأسيس الدولة الطولونية

أسس الدولة الطولونية أحمد بن طولون، وهو من المماليك الأتراك ولد عام (٢١٤ هـ/ ٨٢٩ م) كان أبوه طولون قد أُهدي إلى الخليفة المأمون عام (٢٠٠ هـ/ ٨١٦ م) من قبل صاحب بخارى نوح بن أسد الساماني، وتوفي والده عام (٢٣٠ هـ/ ٨٤٥ م). نشأ أحمد نشأة دينية، فكان يعيب على الأتراك ما يرتكبونه من منكرات، كثير الصدقات، كريماً عادلاً في الرعية. قضى حياته السياسية والعسكرية الأولى في ثغر طرسوس، أهم الثغور الإسلامية على الإطلاق. وتعرّف عن قرب على بلاد الشام. وربما كانت هذه الأيام الأولى من حياته دافعاً لتطلعاته المستقبلية وطموحه السياسي. ويبدو أنه تمتع منذ البداية، باحترام الأتراك في حاضرة الخلافة، كما حَظي بتأييد الجند وقادتهم من أصدقاء أبيه، ونال ثقة الخليفة المتوكل الذي فوض إليه ماكان بيد أبيه بعد وفاته، كما حظي بثقة الخليفة المستعين[1].

تزوجت والدته بعد وفاة والده الأمير بايكباك التركي الذي عيّنه الخليفة المعتز والياً على مصر في عام (٢٥٤ هـ/ ٨٦٨ م) فأرسل أحمد ليتولى حكمها بالنيابة عنه. ولم يكن له كامل الولاية، وإنما كان على الصلاة، وله الحاضرة المصرية الفسطاط.

---

(١) البلوي: سيرة ابن طولون: ص ٤٠.

إلا أنه جاء إلى مصر حاملاً معه تطلعات سياسية واسعة[1].

وساندته الظروف السياسية والأوضاع الاقتصادية المتدهورة في تثبيت أقدامه في مصر. فقد حدث أن قتل بايكباك في عام (٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م)، فأسندت ولاية مصر إلى بارجوخ الذي كانت تربطه بابن طولون علاقات طيبة ومصاهرة. فأقره على ما بيده، وزاد في سلطته بأن استخلفه على مصر كلها[2]، باستثناء الخراج الذي ظل بيد منافسه أحمد ابن المدبر الذي اشتهر بسوء السيرة، مما دفع بابن طولون إلى الطلب من الخليفة المهتدي بأن يقيله من خراج مصر ويوليه إياه. فاستجاب الخليفة لطلبه، كما ولاّه أمرة الثغور الشامية على أثر اضطراب أوضاعها[3].

ولما توفي بارجوخ في عام (٢٥٩ هـ/ ٨٧٣ م)، أضحى ابن طولون حاكم مصر الشرعي من قبل الخلافة مباشرة[4] فتولى مقاليد الأمور كلها. ودانت له الإسكندرية وبرقة، وقدّم له أمراء الكور الخضوع والطاعة[5].

وبذلك جمع ابن طولون كافة أعمال مصر الإدارية والقضائية والعسكرية والمالية. وأضحى طليق اليدين، حر التصرف، ثم شرع في القيام بأعمال عمرانية تعبر عن مدى اهتمامه الشديد بهذا البلد، ومتطلعاً من خلالها إلى إقامة دولة خاصة به، منفصلة عن الخلافة، وأخذ يعمل جاداً للارتقاء بالفسطاط ليضاهي بها مركز الخلافة بغداد[6] فأسس ضاحية جديدة لها عام (٢٥٧ هـ/ ٨٧١ م) في أقصى الشمال الشرقي، اشتملت على منازل وأسواق وحمامات ودواوين الحكومة، وأقطعها جنده، لذلك سميت القطائع، وبنى فيها مسجده الذي عرف باسمه ولا يزال قائماً حتى اليوم، وأقام بجواره دار الإمارة[7]، كما بنى مستشفى لمعالجة المرضى وألحق بها صيدلية.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣٣٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن سعيد علي بن المغربي: المغرب في حلى المغرب، والمشرق في حلى المشرق: جـ ١ القسم الخاص بمصر ص ٧٩. الكندي: ص ٢١٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جـ ٣: ص ٧.

(٤) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣٦٧.

(٥) ابن تغري بردي: جـ ٣ ص ٧.

(٦) زيّود، محمد أحمد: العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والأخشيدي: ص ٢٦.

(٧) لين بول: سيرة القاهرة. ص ٨٢.

وحصّن ابن طولون الجبهة الداخلية من خلال تنمية موارد الثروة، ومضاعفة الدخل في ميادين الإنتاج الزراعي والصناعي والتجاري، فأصلح أقنية الري، وحفر الجديد منها، كما أصلح السدود الخربة ومنع ممارسات متعهدي الضرائب على الفلاحين، وحظّر على الموظفين قبول الهدايا وأموال المساعدة، فتحسنت أوضاع مصر الزراعية، ونشطت التجارة، وازدادت الحركة الصناعية، ورُفع الظلم عن الناس، فعم البلاد الرخاء، وكسب ابن طولون محبّة المصريين.

تجمّع لابن طولون نتيجة هذه الإصلاحات، أموال ضخمة أعانته في إنشاء جيش قوي يدين له بالولاء ويساعده في تحقيق مشروعاته والدفاع عنها.

وهكذا أتيحت لابن طولون الفرصة لإقامة دولة انفصالية في مصر، لكنه ظل مرتبطاً بالخلافة ببعض المظاهر الشكلية وهي:

- الدعاء للخليفة في الخطبة.
- نقش اسم الخليفة على النقود.
- إرسال جزء من الخراج إلى دار الخلافة[1].

علاقة أحمد بن طولون بالخلافة العباسية

لعل المشكلة الكبيرة التي واجهها أحمد بن طولون، وكادت تقضي على منجزاته وآماله، علاقته بالأمير الموفق، أبي أحمد، والد الخليفة أحمد المعتضد الذي سيطر على الشؤون العامة في دار الخلافة، وقاد حركة إصلاحية بهدف النهوض بالسلطة المركزية وتقوية قبضتها على ولاياتها، ومن بينها مصر.

لذلك سعى جاداً للقضاء على الدولة الطولونية التي انفصلت عن الإدارة المركزية، واستقلت بحكم مصر، وبدأت تتطلع نحو بلاد الشام، وظهر التنافر واضحاً بين الطرفين، وقد تصرف الموفق على محورين لتحقيق غايته:

الأول: أنه حاول عزل ابن طولون عن ولاية مصر بواسطة أماجور حاكم بلاد الشام الذي خشي هو الآخر، من مطامع ابن طولون ورغبته في التوسع على حسابه،

---

(١) العبادي: ص ١٢٩.

وعلى الرغم من أن الخليفة المعتمد كان يتعاطف مع ابن طولون، وتربطه به صداقات ومصالح مشتركة؛ إلا أنه أُرغم على الموافقة على استدعائه إلى بغداد، وإبعاده عن مصر، ووضعه تحت رقابة السلطة مباشرة[١] وأعاد ابن المدبر على خراج مصر[٢].

ويبدو أن أماجور فشل في الصمود أمام الطولونيين، فعاد أدراجه إلى بلاد الشام، وكذلك فشل موسى بن بغا، الذي كلفه الموفق بإخضاع هؤلاء، بعد فشل أماجور[٣]. ويبدو أن الخليفة لم يتجاوب أكثر من ذلك مع الموفق، خاصة وأن الأحداث السياسية والعسكرية أثبتت فشل القادة الذين حلوا محل ابن طولون في السيطرة على الأوضاع، مما دفعه إلى إعادة ابن طولون إلى حكم مصر في عام (٢٦٢ هـ/ ٨٧٦ م)[٤].

الثاني: حاول الموفق إبعاد ابن طولون عن منطقة الثغور الشامية، فاتهم الطولونيين بالتقصير في حماية المنطقة من هجمات الأعداء، واستقر الأمر على تعيين ولاة من خارج البيت الطولوني[٥]. لكن الأمر لم يستتب بسبب تسلط الأتراك وعجزهم عن تهدئة الوضع. وقد شعر سكان المنطقة الثغرية بهذا الفراغ العسكري والاضطراب السياسي، مما دفع سكان لؤلؤة إلى تسليم القلعة إلى البيزنطيين[٦]. فاستاء الخليفة من ذلك، ورأى من الأفضل إعادة تسليم المنطقة لابن طولون[٧].

وهكذا أخفقت مساعي الموفق في القضاء على الطولونيين، وأضحى ابن طولون من أهم العاملين في رسم السياسة في بلاد الشام، وحصل من الخليفة، بفضل علاقته الحسنة به، وفي غمرة الصراع مع الموفق، على تقليد له لبلاد الشام بالإضافة إلى ثغورها[٨].

---

(١) البلوي: ص ٥٧.
(٢) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥.
(٣) ابن الأثير: جـ ٦ ص ١٣.
(٤) البلوي: ص ٥٧. ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ١٣.
(٥) الطبري: جـ ٩ ص ٥٣٢. ابن الأثير المصدر نفسه: ص ١٤ ـ ١٥.
(٦) المصدر نفسه: ابن سعيد: ص ٩١. ابن الأثير: المصدر نفسه.
(٧) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ١٥.
(٨) ابن الأثير: جـ ٦ ص ١٨.

واعتباراً من عام (٢٦٤ هـ/ ٨٧٧ م)، بدأ ابن طولون رحلته إلى المنطقة لاستلامها. فسيطر على فلسطين ودمشق، وحمص، وحماة، وحلب، وأنطاكية، والمصيصة، وأذنة وطرسوس، والرقة التي جعلها مقراً لحكمه ليكون قريباً من بغداد حتى أضحت مناطق نفوذه تجاور تماماً حدود العراق[١].

لكن الموفق لم يركن إلى الهدوء وظل يعاند ابن طولون ويضايقه، متبعاً هذه المرة أسلوباً جديداً في التعامل، يرتكز على إثارة الفتن داخل الأجهزة الطولونية، وقد قطع شوطاً بعيداً في هذا المجال مما أقلق ابن طولون.

فقد تمرد عليه ابنه العباس في عام (٢٦٥ هـ/ ٨٧٨ م)[٢]، كما خرج عليه في عام (٢٦٨ هـ/ ٨٨١ م) غلامه لؤلؤ، الحاكم على حمص وحلب وقنسرين وديار مضر والثغور الشامية[٣].

في غمرة هذه الصراعات، اعتمد ابن طولون الأسلوب السياسي في محاولة للتصدي لمؤامرات الموفق، فاستغل الجفاء بينه وبين الخليفة المعتمد ودعا هذا الأخير في عام (٢٦٩ هـ/ ٨٨٢ م) للتوجه إلى مصر والأقامة فيها للتخلص من سيطرة أخيه. ووعده بحمايته ونصرته، وأقدم في الوقت نفسه على إسقاط اسم الموفق من الخطبة كولي للعهد، ومحا اسمه من الطراز أيضاً، باعتباره خرج على السلطات المخوّلة له، وتعدّى صلاحياته[٤].

استجاب الخليفة لإغراءات ابن طولون، وحاول الخروج إلى مصر، لكن الموفق كشف المؤامرة وأعاد الخليفة إلى سامراء[٥]، وأقدم ابن طولون، في الوقت نفسه، على عمل عسكري، منتهزاً فرصة انهماك الموفق بحرب الزّنج، فأعاد تثبيت سيطرته على بلاد الشام ومنطقة الثغور ثم تقدم نحو الحجاز، واصطدم بقوات الموفق في مكة[٦].

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) الطبري: جـ ٩ ص ٥٤٥.
(٣) ابن الأثير: جـ ٦، ص ١٨. ابن خلدون: العبر... المعروف بتاريخ ابن خلدون: جـ ٣ ص ٣٣١.
(٤) الطبري: جـ ٩ ص ٦٢٠ ـ ٦٢١. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٤٩.
(٥) الكندي: ص ٢٢٥، ٢٢٩.
(٦) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٤٩.

ردّ الموفق على موقف خصمه، فمنع الدعاء له، ولعنه على المنابر، واعتبره من المفسدين، وعزله عن مصر والشام، وولّى إسحاق بن كنداج على أعماله[1].

وهكذا أعطى ابن طولون لنفسه سلطات واسعة تمثل واقع الفترة، وتعبّر عن مدى التسلط التركي بما يتلاءم مع قوتهم العسكرية، وقد أدّى دخول الطرفان في دوامة النزاع إلى إضعاف كل من العراق ومصر، فظهر عجزهما عن مواجهة المستجدات الأخرى على الساحتين الداخلية والخارجية.

وفعلاً، تراجعت قوة ابن طولون، فانهزمت قوته في مكة ولعن في المسجد الحرام[2] كما تراجع في منطقة الثغور تحت ضغط حركات التمرد، ومن جهته، فقد وجد الموفق نفسه عاجزاً عن مواصلة النزاع، بفعل إنهاك قواته، مدركاً في الوقت نفسه أنه لم يكن موجهاً لصالح القوة الإسلامية، إنما لمصلحة الاتجاهين المتنازعين؛ لذلك مال الطرفان إلى التفاهم.

وبدأت المفاوضات بينهما بهدف إحلال السلام. لكن المنية عاجلت ابن طولون في أوائل شهر ذي القعدة قبل أن تنتهي، وذلك في عام (٢٧٠ هـ/ ٨٤٠ م)[3].

علاقة خمارويه بالخلافة العباسية

بايع الجند، بعد وفاة أحمد بن طولون. ابنه خمارويه[4]. وقد ورث مهمة الدفاع عن الدولة التي أسسها والده في مصر، والاحتفاظ ببلاد الشام خاصة، مع استمرار عداء الخلافة للطولونيين، وطمع الأمراء الأتراك المتنافسين، في حكم مصر والشام.

كان أول عمل قام به خمارويه هو تنظيم أمور بلاد الشام بسبب أهميتها في دعم سلطته في مصر. فأسند قيادة أهم مدنها ومناطقها لأفضل قادته، كما ترك معظم جيشه في منطقة حلب، وأرسل قوة عسكرية رابطت في شيزر[5].

---

(١) ابن خلدون: جـ ٣ ص ٦٩٥.
(٢) الكندي: ص ٢٢٩.
(٣) المصدر نفسه. البلوي: ص ٣٠٥. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٥٥ ـ ٥٦.
(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٥٦.
(٥) ابن خلدون: جـ ٣ ص ٦٩٩. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٥٦. ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ ١ ص ٨٠.

وكاتب في الوقت نفسه، الخلافة العباسية لكي تقرّه على ما بيده من المناطق، مقابل الدعاء والطاعة، إلا أن الموفق رفض طلبه مما كان سبباً لاستمرار النزاع والصدام بين الجانبين[١].

ونجح الموفق في تأليب القوى وتجميعها في حلف ضم خصوم الطولونيين وبعض قادتهم الذين انقلبوا عليهم، ثم دعم هذا الحلف بجيش عباسي بقيادة ابنه أبي العباس، ودفع الجميع باتجاه بلاد الشام.

حققت قوى التحالف انتصارات سريعة أمام تراجع الطولونيين في الرقة والعواصم. ودخلت انطاكية وحلب، وملكت دمشق. واجتاحت فلسطين ووصلت إلى الحدود المصرية حيث أشرفت على مصر.

نتيجة هذا النجاح خرج خمارويه بنفسه لوقف تقدم قوى التحالف خاصة بعد انضمام القوة التي أرسلها للتصدي لهذه القوات بقيادة الواسطي، إليها. والتقى بأبي العباس على نهر أبي فطرس في جنوبي فلسطين في مكان يعرف بالطواحين وذلك في عام (٢٧١ هـ/ ٨٨٤ م)، هُزم فيها خمارويه وفرّ إلى مصر إلا أن ثبات قائده سعد الأيسر أعطاه فرصة أخرى للنصر، حيث كرّ على قوات التحالف وتغلب عليها وفرّ أبو العباس وقُتل قادته[٢]، واستقر الأمر مجدداً للطولونيين في بلاد الشام. وواصل خمارويه توسعه في الجزيرة والموصل حتى أعاد حدود الدولة إلى ما كانت عليه في أيام والده، من برقة إلى الفرات، ومن آسيا الصغرى حتى بلاد النوبة، وشملت سلطته منطقة أرمينيا[٣]، وأضحت الدولة الطولونية قوة تملأ مكانها بجدارة. ورغم هذه الانتصارات التي حققها خمارويه، فقد مال إلى السلام، وبادر إلى طلب الصلح[٤] مفتتحاً بذلك مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات بين الطولونيين والخلافة العباسية. ومن جهته، شعر الموفق بضرورة إحلال السلام والوفاق بين الطرفين. ومنح الخليفة خمارويه حكم مصر وبلاد الشام الوراثي له ولأولاده من بعده مدة ثلاثين عاماً، على أن

---

(١) ابن خلدون المصدر نفسه.
(٢) الطبري: جـ ١٠، ص ٨.
(٣) محمود، حسن أحمد: حضارة مصر في العصر الطولوني، ص ١١٥.
(٤) الكندي: ص ٢٣٧. ابن تغري بردي: جـ ٣ ص ٥١.

يتوقف عن لعن الموفق على المنابر، وأن يدعوا له مع الخليفة[1].

وساعدت الظروف خمارويه في تمتين علاقاته بدار الخلافة بعد وفاة الموفق في عام (٢٧٨ هـ/ ٨٩١ م)، والخليفة المعتمد في عام (٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م) واعتلاء المعتضد سدة الخلافة[2]. وتدعمت هذه العلاقات بالمصاهرة، حيث تزوج الخليفة ابنة خمارويه قطر الندى[3]. فكسب البيت الطولوني بذلك نفوذاً، كما كسبت الخلافة حليفاً قوياً يقف إلى جانبها ويشد إزرها مادياً وعسكرياً.

نهاية الدولة الطولونية

توفي خمارويه في عام (٢٨٢ هـ/ ٨٩٦ م) مقتولاً على يد بعض غلمانه في دمشق[4]، فاضطربت بوفاته الدولة الطولونية، واستمرت بعد ذلك بالانحدار طيلة السنين العشر الأخيرة من عمرها، وذلك بسبب تدخل الجند، وتنافس الأمراء الطولونيين فيما بينهم. إذ لم يكد ينهض خلفه أبو العساكر جيش بن خمارويه بأعباء الحكم، حتى خلعه أخوه هارون قبل أن تنقضي تسعة أشهر على ولايته. وتبين بعد ذلك أن هذا الأخير لم يكن يصلح للولاية والحكم[5].

وظهرت في ذلك الوقت، قوتان هددتا مصر من الشرق والغرب. إحداهما القوة القرمطية التي شرعت جيوشها تعيث فساداً في بلاد الشام، حتى استولت على جنوبه. والأخرى هي قوة العبيديين التي قامت في المغرب.

ولم يكن هارون بقادر على مقاومة هاتين القوتين، وظهر عجزه في القضاء على القرامطة، وأضحى من المؤكد أن الطولونيين فقدوا عنصر القوة الذي كان يتمتع به أحمد بن طولون وابنه خمارويه، وأصبحوا ألعوبة في أيدي الجند، ولم يبق من مبرر لبقاء دولتهم.

---

(١) ابن تغري بردي: المصدر نفسه: ص ٥٠ ـ ٥١.
(٢) الطبري: جـ ١٠، ص ٢٠ ـ ٢١، ٢٩ ـ ٣٠.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٠.
(٤) ابن تغري بردي: جـ ٣ ص ٨٨ ـ ٨٩.
(٥) المصدر نفسه.

تنبهت الخلافة العباسية إلى ضعف الطولونيين، مما دفعها إلى تجديد رغبتها في أعادة بلاد الشام ومصر إلى سلطانها المباشر. فنجح الخليفة المعتضد في انتزاع منطقة الثغور وبلاد الشام من الحكم الطولوني[1]. وهاجم الخليفة المكتفي مصر في عام (٢٩٢ هـ/ ٩٠٥ م)، ولم تقو القوات الطولونية على الصمود أمام الجيش العباسي الذي دخل مدينة القطائع ودمرها، باستثناء الجامع، منهياً بذلك الحكم الطولوني. وعاد هذا البلد إلى حكم الخلافة المباشر[2].

---

(١) راجع فيما يتعلق بالأحداث في الثغور وأثرها على الحكم الطولوني: زيّود: ص ١٤٠ ـ ١٤٦. راجع فيما بتعلق بالأحداث في بلاد الشام وأثرها على الحكم الطولوني: المرجع نفسه: ص ١٤٦ ـ ١٥٢.

(٢) ابن تغري بردي: جـ٣، ص ١٣٤ ـ ١٤٠.

الدولة الأخشيدية: ٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩ م

أسماء الأمراء الأخشيديين ومدة إمارة كل منهم:

١ ـ محمد الأخشيد بن طغج	٣٢٣ ـ ٣٣٤ هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٤٦ م
٢ ـ أبو القاسم أنوجور بن الأخشيد	٣٣٤ ـ ٣٤٩ هـ/ ٩٤٦ ـ ٩٦٠ م
٣ ـ أبو الحسن علي بن الأخشيد	٣٤٩ ـ ٣٥٥ هـ/ ٩٦٠ ـ ٩٦٦ م
٤ ـ أبو المسك كافور	٣٥٥ ـ ٣٥٧ هـ/ ٩٦٦ ـ ٩٦٧ م
٥ ـ أبو الفوارس أحمد بن علي	٣٥٧ ـ ٣٥٨ هـ/ ٩٦٧ ـ ٩٦٩ م

تأسيس الدولة الأخشيدية

عادت مصر إلى أحضان الخلافة العباسية، تحكمها مباشرة بواسطة ولاة تعينهم من قِبَلها. لكن هذه الخلافة أصابها الوهن مرة أخرى في عهد المقتدر، وظهر عجزها في المحافظة على سلطانها في ولاياتها، ومنها مصر. فتجدّدت المنافسة بين الولاة وعمّال الخراج، مما تسبّب في تدهور الوضع الداخلي. وصاحب ذلك ظهور خطر خارجي تمثل في محاولات العبيديين غزو مصر، فتطلب الوضع وجود حاكم قوي يملأ الفراغ، ويتصدى لهذه الأخطار، ويجعل من مصر دولة حاجزة أمام الزحف الفاطمي باتجاه الشرق، فولّى الخليفة الراضي، محمد بن طغج بن جف[1] على مصر في عام (٣٢٣ هـ/ ٩٣٥ م)، وكلفه بهذه المهمة[2].

علاقة الأخشيديين بالخلافة العباسية

اهتم محمد بن طغج، في بادىء الأمر، بتقوية مركزه في الداخل. فأنشأ جيشاً على غرار الجيش الطولوني. كما انتهج سياسة اقتصادية مشابهة لسياسة ابن طولون في منهجه وأعماله فحقق الازدهار الاقتصادي للبلاد واكتسب مودة المصريين. ونجح في

---

(١) كان جده جف أحد الضباط الأتراك الذين أكثرت الخلافة من اقتنائهم. وقد برز والده طغج عندما خدم أحمد بن طولون، وأصل هذه العائلة من فرغانة.

(٢) ابن تغري بردي: جـ ٣ ص ٢٥١.

التصدي للحملات العبيدية التي هاجمت مصر بين أعوام (٣١٢ ـ ٣٢٤ هـ/ ٩٢٤ ـ ٩٣٦ م)، وحافظ في الوقت نفسه على علاقته الطيبة مع الخلافة العباسية فولّاه الخليفة بلاد الشام أيضاً، ولقّبه «الأخشيد» ودُعي له به على منابر مصر والشام في عام (٣٢٧ هـ/ ٩٣٩)[١].

كانت الخلافة العباسية، آنذاك، تشهد تطورات سريعة بفعل الصراع من أجل الحصول على منصب أمير الأمراء، وقد تولاّه بجكم في عام (٣٢٦ هـ/ ٩٣٨ م) بعد أن تغلب على ابن رائق الذي تطلع إلى ولايتي مصر والشام ليعوّض بهما عن خسارته. وتمكن من الحصول على تقليد الخليفة الراضي على حلب وأعمالها[٢].

ولا شك بأن الخليفة كان يرى في هذا التقليد تحقيق مصلحة العباسيين القائمة على زرع بذور التفرقة بين الولاة، وتعبيراً عن رغبة الخلافة في ألا تسمح بقيام نفوذ في الشام ومصر، يمكن أن يهدد مصالحها. ولم تكن تطمئن إلى وجود الأخشيديين في هذه المناطق القريبة من العراق، بالرغم من الموقف الحسن لابن طغج الذي يخدم المصالح العباسية[٣] ولا يُستبعد أن تكون هذه الخلافة قد وجهت ابن رائق إلى بلاد الشام لينافس الأخشيد ويحد من سلطته ونفوذه[٤].

وما أن تسلم ابن رائق منصبه الجديد حتى طمع في الشام كلها. وراح يتدخل في أمور الأخشيديين. ورغم أن الأخشيد أظهر قلقه، وأبدى استياءه من ذلك، إلا أنه سلك معه مسلكاً حسناً، وحاول استرضاءه.

ويبدو أن ابن رائق لم يخف نواياه التوسعية، فتقدم باتجاه بلاد الشام واستولى على حمص ودمشق ثم سار إلى الرملة فالعريش في محاولة لدخول مصر. وهناك اصطدم بالقوات الأخشيدية في عام (٣٢٨ هـ/ ٩٤٠ م)، لكنه هزم وتمكّن من النجاة[٥].

أراد الأخشيد، رغم انتصاره، تغليب المصلحة العامة للمسلمين على مصلحته

---

(١) الكندي: ص ٢٨٨.
(٢) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ ١ ص ٩٩.
(٣) زيّود: العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والأخشيدي. ص ٢٩٣.
(٤) كرد علي، محمد: خطط الشام جـ ١ ص ١٨٤ ـ ١٨٥.
(٥) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

الخاصة مقدّراً ظروف الخلافة العباسية المتدهورة، والتهديد المستمر لدولته من جانب الدولة العبيدية، ومن جهته، أدرك ابن رائق أن الموقف يقضي بالعودة إلى العقل والدخول في الصلح.

وفعلاً، عُقد الصلح بين الجانبين، وقد تضمن أن يترك الأخشيد، لابن رائق، الأراضي الشامية الواقعة شمالي الرملة، وتعهد بأن يدفع له مبلغ مائة وأربعين ألف دينار سنوياً عن الرملة[١].

وبعد عامين من إبرام المعاهدة، قتل ابن رائق في عام (٣٣٠ هـ/ ٩٤٢ م) على يد ناصر الدولة الحمداني[٢]. فانتهز الأخشيد هذه الفرصة، وسيطر على بلاد الشام، دون مقاومة، وتقدم شمالاً حتى جاور الدولة الحمدانية، كما دخلت مكة والمدينة تحت سلطانه[٣] فأضحى من أكبر القوى في العالم الإسلامي. واضطر الخليفة المتقي إلى الاعتراف بوراثية ولايته على مصر، وأقرّه على بلاد الشام[٤].

أدى تجاور الدولتين الأخشيدية والحمدانية الطامعة في بلاد الشام إلى احتدام النزاع بينهما. فقاد سيف الدولة حملة عسكرية وسيطر على حلب ودمشق في عام (٣٣٣ هـ/ ٩٤٥ م)، وأخذ يستعد لغزو مصر، مما دفع الأخشيد إلى الخروج بنفسه إلى بلاد الشام لوقف التقدم الحمداني[٥].

ونتيجة للاشتباك الذي حصل بين الطرفين في قنسرين، هُزم سيف الدولة، ودخل الأخشيد حلب، واسترد دمشق، لكنه آثر مجدداً تغليب المصحلة العامة للمسلمين على مصلحته الشخصية. فعقد صلحاً مع سيف الدولة تنازل له بموجبه عن حلب وشمالي الشام[٦].

ويبدو أن الأخشيد أدرك ضرورة وجود قوة إسلامية في شمالي الشام، كقوة

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٣ ص ٢٥٣.
(٢) مسكويه: جـ ٢ ص ٢٧ ـ ٢٨.
(٣) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٢٨٤.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه: ص ٣١٢.
(٦) ابن تغري بردي: جـ ٣ ص ٢٥٥.

الحمدانيين، للتصدي لغارات البيزنطيين على المناطق الإسلامية، بالإضافة إلى أن الأخشيديين في مصر كانوا يقعون تحت ضغط خارجي كبير من جهة العبيديين، كما أخذوا يواجهون بعض الحركات الاضطرابية مثل حركة غلبون في منطقة الأشمونيين[1]. ومن ناحية أخرى فإن الخلافة العباسية لم تكن صادقة النية معه، فكانت ترسل الولاة إلى بلاد الشام لتهدد النفوذ الأخشيدي فيها. لذلك جنح إلى الصلح.

وكما حاول ابن طولون، من قبل نقل مقر الخلافة العباسية إلى مصر، كذلك كرر الأخشيد هذه المحاولة في عام (٣٣٢ هـ/ ٩٤٤ م). وذلك حين استبد الأمراء الأتراك بالخليفة المتقي، وأحجم الحمدانيون عن مساعدته. فاضطر إلى الاستنجاد بالأخشيديين.

لكن الخليفة أبى أن يترك عاصمته، وبالتالي رفض طلب الأخشيد[2]. وبالرغم من فشله إلا أنه حصل منه على اعتراف بوراثية مصر له ولذريته من بعده، كما أقرّه على بلاد الشام. وتجدّد هذا الإقرار في عهد الخليفة المستكفي في عام (٣٣٣ هـ/ ٩٤٤ م). وقام الأخشيد بدوره بالدعاء للخليفة العباسي على المنابر في أنحاء ولايته[3].

توفي الأخشيد في عام (٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م)[4]، وكان قد أوصى بالملك من بعده لولديه الصغيرين أنوجور وعلي، على أن يتولى كافور الحبشي الوصاية عليهما. وفعلاً حكم كافور مصر اثنين وعشرين عاماً كوصي، حتى إذا توفي كل من أنوجور وعلي في عامي (٣٤٩ هـ/ ٩٦٠ م) و(٣٥٥ هـ/ ٩٦٦ م)، استبد بالحكم. واعترفت الخلافة العباسية به حاكماً على مصر[5].

استطاع كافور خلال مدة وصايته أن يحافظ على تماسك الدولة، وأن يدافع عنها

---

(١) الكندي: ص ٢٩٦.

(٢) الأنطاكي، يحيى بن سعيد: تاريخ الأنطاكي: ص ٤٦. ابن تغري بردي: جـ ٣، ص ٢٥٤.

(٣) المصدران نفساهما.

(٤) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٣١٨.

(٥) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ٢.

ضد خطر الحمدانيين في الشمال، والقرامطة الذين أغاروا على جنوبي بلاد الشام، وأمراء النوبة في الجنوب. كما تصدى للزحف العبيدي باتجاه مصر.

لكن غارات العبيديين توالت على هذا البلد، كما نجح دعاتهم في بثّ الدعوة داخل المجتمع المصري. فدعا الخليفة العبيدي المعز، كافور للدخول في طاعته، إلا أنه استطاع بدهائه وكياسته، أن يؤخر الغزو العبيدي لمصر طوال عهده.

ثم حدث أن اضطربت الأوضاع في مصر بعد وفاة كافور في عام (٣٥٧ هـ/ ٩٦٨ م) بفعل صغر سن حفيده وخلفه أبو الفوارس أحمد، وعدم وجود شخصية قوية بين رجال البلاط تستطيع ملء الفراغ الذي تركه.

أدرك الخليفة العبيدي المعز، سوء الحالة السياسية والاقتصادية في مصر، فاستغلها واستولى على البلاد في عام (٣٥٨ هـ/ ٩٦٩ م)[١].

والواقع أن النفوذ الأخشيدي أضحى بعد وفاة كافور في حكم الزائل. واقتضت الضرورة وجود قوة تملأ الفراغ الذي تركته القوة الأخشيدية، ومن ثم كان دخول العبيديين إلى كل من مصر وبلاد الشام بداية مرحلة جديدة من العلاقات التاريخية بين الخلافتين العباسية والعبيدية.

(١) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٨، ٢٤ ـ ٢٥.

الأوضاع الخارجية لدولة الخلافة العباسية

العلاقة مع البيزنطيين

استغل البيزنطيون سوء الحالة السياسية في دولة الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني، للإغارة على الولايات الإسلامية. وارتبط القتال بين المسلمين والبيزنطيين منذ عهد المتوكل، بالصراع الداخلي بين السلطات البيزنطية والبيالصة بسبب النزاع حول عبادة الصور المقدسة(١).

ونظراً لما تعرض له البيالصة من اضطهاد على يد السلطات البيزنطية الموالية لعبادة الصور المقدسة؛ لجأوا إلى حماية أمير ملطية عمر بن عبدالله الأقطع(٢) واستقروا في ثلاث مدن رئيسية على حدود أرمينيا في منطقة سيواس الجبلية، واتخذوا من مدينة تفريق عاصمة لهم حيث أقام بها زعيمهم قربياص. وتعاونوا مع المسلمين في قتال البيزنطيين(٣).

وتولى القائدان الإسلاميان عمر بن عبدالله الأقطع أمير ملطية وعلي بن يحيى أمير طرسوس، عبء القتال، في هذه المرحلة. وقد أدّى التعاون بين الجانبين(٤) إلى الحد من اندفاع البيزنطيين باتجاه الأراضي الإسلامية. في حين برز في الجانب

---

(١) انتشر مذهب البيالصة في سائر أنحاء آسيا الصغرى من فريجيا حتى أرمينيا. وتعاون أتباع هذا المذهب مع الأباطرة اللا أيقونيين، أي المعادين لعبادة الصور المقدسة منذ أيام قسطنطين الخامس في القرن الثامن الميلادي. لكن سرعان ما بدأ اضطهادهم منذ انتصار النزعة المؤيدة للأيقونات في عهد الإمبراطور ثيوفيل الأول وابنه ميخائيل الثالث. راجع. العريني: الدولة البيزنطية، ص ٣٠٠.

(٢) فازيلييف: العرب والروم، ص ٢٠٣.

(٣) Ostrogorsky: op. cit, P 197

(٤) المسلمين والبيالصة.

البيزنطي الأمبراطور ميخائيل الثالث والقائدان بارداس وبتروناس كأعداء أقوياء أخذوا على عاتقهم مهاجمة المسلمين.

ففي عام (٢٤١ هـ/ ٨٥٥ م)، أغار البيزنطييون على عين زربة وأسروا من كان فيها. وتبودل، في هذه السنة، الأسرى بين الجانبين[١].

وفي عام (٢٤٢ هـ/ ٨٥٦ م) أغار البيزنطيون على الأراضي الواقعة شمالي العراق. فهاجموا سميساط وآمد وتفريق، وأسروا عشرة آلاف من المسلمين ثم عادوا إلى داخل الأراضي البيزنطية. فطاردتهم قوى التحالف[٢]. ولم ينج الإمبراطور ميخائيل الثالث إلاّ بصعوبة بالغة[٣].

وتعتبر هذه الغارة النشطة بداية لفترة من الاصطدامات المستمرة بين الجانبين. فهاجم أميرا ملطية وطرسوس الأراضي البيزنطية كرد على غارة البيزنطيين على شمالي العراق. كما أرسل الخليفة المتوكل في عام (٢٤٤ هـ/ ٨٥٨ م) جيشاً دخل الأراضي البيزنطية ونجح في فتح عدة حصون أهمها سمالو[٤].

وظلت الأوضاع على الحدود قلقة، وتبادل الطرفان الكر والفر وأنزل المسلمون بقيادة عمر بن عبد الله الأقطع هزيمة قاسية بالأمبراطور البيزنطي في عام (٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م) في توقات، توغلوا على أثرها في عمق الأراضي البيزنطية، فخربوا ثغر الأرمنياك وفتحوا سامسون، أكبر موانيء قبادوقيا على البحر الأسود[٥].

نتيجة لهذا التوغل في آسيا الصغرى، الذي يعتبر بداية مؤشر لخطر داهم على الأمبراطورية قام الأمبراطور بالرد. فأعد جيشاً ضخماً بلغ خمسين ألف مقاتل بقيادة بتروناس للتصدي للمسلمين. ونظراً للفارق العددي بين القوتين، تلقى عمر بن عبدالله نصيحة من أركان حربه بالانسحاب من المنطقة، وعدم الاشتباك مع العدو الذي يفوقهم عدداً. لكن الأمير المسلم رفض هذه النصيحة وآثر الاصطدام بالجيش البيزنطي.

والتقى الجيشان في بوزون، بين بحيرة تاتا ونهر هاليس، فحاصر بتروناس

---

(١) الطبري: جـ ٩، ص ٢٠٢.

(٢) أميرا ملطية وطرسوس وزعيم البيالصة.

(٣) Bury: Hist of Eastern Roman Empire, P. 279

(٤) الطبري: جـ ٩ ص ٢١٠.

(٥) Bury: op. cit. P 282

الجيش الإسلامي وطوقه من جميع الجهات، وفق خطة عسكرية محكمة. وحاول عمر أن يشق له طريقاً وسط الحشود البيزنطية، ويكسر الطوق العسكري، إلاّ إنه لم يتمكن من ذلك، وسقط على أرض المعركة بعد قتال بطولي[١].

ولقي علي بن يحيى أمير طرسوس مصرعه في العام التالي، في وقعة ميافارقين في أعلى الفرات. وكان قد خرج لينتقم لمقتل عمر بن عبد الله[٢].

كان لمقتل هذين القائدين أثر كبير في إذكاء روح الجهاد في قلوب المسلمين. فقامت العامة في بغداد وسامراء بانتفاضات شعبية، وتعالت الصيحات في المساجد والطرقات معلنة الجهاد والنفير[٣].

وبالرغم من انتصار البيزنطيين إلاّ أن مناطق الحدود لم تتعرض لتغيير كبير. فقد أضاف المسلمون إلى أملاكهم حصوناً عديدة، ورسخوا أقدامهم في قبادوقيا شرقي نهر هاليس[٤].

ثم تلا ذلك انحسار المد الإسلامي بسبب تفكك دولة الخلافة العباسية على أثر تسلط الأتراك على مقدراتها، وقيام الدول الانفصالية. وبالتالي فقدت تأثيرها في ربط المسلمين سياسياً تحت سلطة مركزية واحدة، ومن جهتها، استهلت الدولة البيزنطية عصراً جديداً من القوة والتوسع في عهد الأسرة المقدونية التي حكمت بين أعوام (٢٥٣ ـ ٤٤٨ هـ/ ٨٦٧ ـ ١٠٥٦ م).

استغل الإمبراطور باسيل الأول الوضع المتدهور لدولة الخلافة العباسية، واستهل نشاطه العسكري فاحتل قلعة لؤلؤة الواقعة غربي جبال طوروس، ثم احتل الممرات الجبلية، وعمل على القضاء على البيالصة. فاصطدم بهم في عام (٢٥٨ هـ/ ٨٧٢ م) بين سيواس وملطية، وأحرز انتصاراً حاسماً عليهم، ودمر معقلهم تفريق وقتل زعيمهم خريسو خيروس[٥].

ترتب على هذا الانتصار أن واصل البيزنطيون زحفهم باتجاه الشرق. واندفع

---

(١) ڤازيلييف: ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٢) الطبري: جـ ٩، ص ٢٦١.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.
(٤) Bury: op. cit. p 285
(٥) Ostrogorsky: op. cit. p 211

باسيل في العام التالي باتجاه إقليم الفرات واحتل سميساط وزبطرة لكنه تعرض لهزيمة قاسية عند ملطية[١].

وعلى الرغم من أنه اكتفى بهذا الانتصار، الجزئي، إلاّ إنه تمكن من السيطرة على مساحات شاسعة تشمل لؤلؤة، وجميع ما يقع بين قيصرية في الشمال الغربي، إلى مرعش في الجنوب الشرقي. ويعتبر عمله هذا بداية مرحلة جديدة من مراحل الزحف والتقدم المنظم التي قامت بها الإمبراطورية البيزنطية على الأطراف الشرقية[٢]. وقد حمل أحمد بن طولون الذي تولى إدارة الثغور الشامية، عبء الدفاع عن المناطق الإسلامية وشكّل في إحدى مراحل الصراع خطراً على البيزنطيين الذين هادنوه في عام (٢٦٥ هـ/ ٨٧٨ م)[٣] إلاّ أن المناوشات بين الطرفين، استمرت على شكل غارات متبادلة، وما حدث من نشوب الخلافات داخل البلاط البيزنطي بسبب مشكلة زيجات الإمبراطور ليو السادس، جعل الصراع مع المسلمين شاقاً[٤]. ففي الأربع عشرة سنة الأولى من حكم ليو السادس، تعرض البيزنطيون لهزائم عديدة عند أبواب كيليكيا وفي غربها، مما أتاح للمسلمين أن يزحفوا على امتداد الساحل وأن يتوغلوا في جوف آسيا الصغرى[٥]، ولم يتمكن القائد نقفور فوكاس الذي استدعاه الإمبراطور على عجل، من وقف الغارات الإسلامية بالرغم من انتصاره في أدنه في عام (٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م)[٦].

واستمر كل طرف في استغلال الفرص المتاحة له للإغارة على أملاك الطرف الآخر. وقد أتاح انهماك الخلافة بقتال الزّنج والقرامطة الفرصة للبيزنطيين، فأغاروا على مناطق الحدود في عام (٢٩١ هـ/ ٩٠٤ م) وعاثوا فساداً في مدن الثغور الشامية، فتصدى لهم المسلمون وفتحوا انطاكية وبلغوا قونية في عام (٢٩٤ هـ/ ٩٠٧ م) وخربوها. فاضطر الأمبراطور إلى طلب الصلح، وتبادل الأسرى مع المسلمين[٧].

---

(١) Ibid

(٢) رمضان: مرجع سابق، ص ٢٢٣. Ostrogorsky: p 211

(٣) الطبري: جـ ٩ ص ٥٤٥.

(٤) Camb Med Hist: IV P 140

(٥) Ibid

(٦) الطبري: جـ ١٠ ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٧) ابن الأثير: جـ ٦ ص ١٠٩، ١١١.

وفي عام (٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م) اتخذ البيزنطيون من ثورة الحسين بن حمدان على بني بويه، فرصة، للإغارة على الثغور الجزرية. فهاجموا حصن منصور وسبوا من كان فيه، وأوقعوا بالمسلمين في طرسوس، وعاثوا فساداً في مرعش[(١)].

رد المسلمون في العام التالي، فهاجموا ملطية بقيادة مؤنس الخادم، وفتحوا عدة حصون واضطر البيزنطيون إلى طلب الهدنة في عام (٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م)[(٢)].

ووقف البيزنطيون على ضعف الخلافة في عهد المقتدر الذي عجز عن إمداد الثغور بالرجال والعتاد، فتجرأ الإمبراطور قسطنطين السابع، وطلب من أهل الثغور أداء الخراج إليه، وهدّدهم إذا امتنعوا عن ذلك[(٣)]. وقد ترتب على هذه الحالة أن دخل البيزنطيون ملطية في عام (٣١٤ هـ/ ٩٢٦ م) بعد أن فرّ أهلها إلى بغداد مستغيثين بالخلافة[(٤)].

لم تكن دولة الخلافة العباسية في عهد إمرة الأمراء (٣٢٤ـ٣٣٤هـ/ ٩٣٦ـ٩٤٦م) بأفضل حالاً. وكانت بيزنطية قد تخلصت من الخطر البلغاري، فشرعت في تنفيذ خطة هجومية في الشرق. وقد تولى عملية التنفيذ القائد الشهير يوحنا كوركواس. وتركزت الاشتباكات في أرمينيا وأعالي الجزيرة[(٥)].

والواقع أن ما حدث في دار الخلافة من القلاقل والفتن، بالإضافة إلى تهديد القرامطة للعراق؛ شلّ جانباً كبيراً من القوى الإسلامية ومنعها من القيام بأي مجهود حربي.

ولعل أول انتصار أحرزه يوحنا كوركواس يتمثل في استيلائه على ملطية التي ظلت هدفاً للمحاولات البيزنطية المتكررة، بفضل أهميتها الاستراتيجية. غير أن كوركواس وجد نداً له في شخص سيف الدولة الحمداني الذي تولى آنذاك قيادة الجهاد الإسلامي ضد البيزنطيين. وتمكن في عام (٣٢٧ هـ/ ٩٣٩ م) من إحراز انتصار واضح

---

(١) المصدر نفسه: ص ١٥٢.
(٢) ابن الأثير: جـ ٦ ص ١٥٨ ـ ١٥٩.
(٣) مسكويه: تجارب الأمم، جـ ١ ص ١٤٦.
(٤) ابن الأثير: جـ ٦ ص ١٨٢، ١٨٥.
(٥) Ostrogorsky: P 244.

على القائد البيزنطي في إقليم أعالي الجزيرة بين حصني زياد وسلام[١] ثم غزا أرمينيا وأرغم عدداً من الأرمن على الاعتراف بسيادته. وظهر في أرمينيا البيزنطية، فخرّب الجهات المحيطة بكولونيا في عام (٣٢٩ هـ/ ٩٤١ م).

كان هدف سيف الدولة منع بيزنطية من فرض سيطرتها على أرمينيا، واستعادة الأراضي التي استولت عليها من المسلمين في إقليم الجزيرة[٢]، على أن ما حدث من منازعات داخلية في دار الخلافة، وأدّى إلى الاصطدام بين الحمدانيين والأخشيديين؛ منع سيف الدولة عن المضي في غزواته. فاستغل كوركواس هذه الحالة واستأنف القتال. فأغار على حلب في عام (٣٣٠ هـ/ ٩٤٢ م)، واستولى في العام التالي على ميافارقين وآمد ودارا ونصيبين ودخل أرزن، وحاصر الرها وأحرق رأس العين في عام (٣٣٢ هـ/ ٩٤٤ م)[٣].

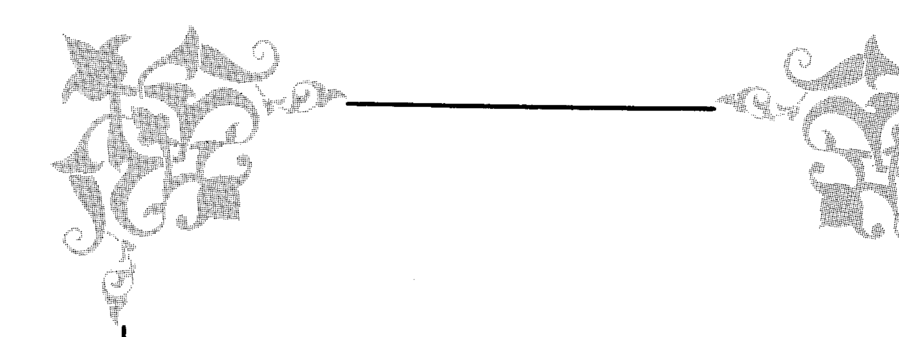
وبفضل جهوده ازداد امتداد الأراضي البيزنطية نحو الشرق، وأضحى لبيزنطية مكانة ومهابة في آسيا الصغرى مما مهد الطريق للهجوم الواسع الذي سيقوم به الإمبراطور نقفور فوكاس ويوحنا زمسكيس فيما بعد. وعندما انتهت حالة العداء بين الحمدانيين والأخشيديين أضحى سيف الدولة مطلق اليدين في التصدي للبيزنطيين، وتفرغ لقتالهم.

---

(١) Canard, M: Histoire de la Dynastie de Hamdanides de Jazira et de Syrie I P 743.

(٢) العريني: ص ٤٠٥.

(٣) الإنطاكي، يحيى بن سعيد: تاريخ الإنطاكي، ص ٤١، ٤٤.



العصر العباسي الثالث

عصر النفوذ البويهي الفارسي

٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ/ ٩٤٦ ـ ١٠٥٥ م

خلفاء العصر العباسي الثالث ومدة خلافة كل منهم:

أبو القاسم عبد الله المستكفي	٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٤٦ م
أبو القاسم الفضل المطيع	٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ/ ٩٤٦ ـ ٩٧٤ م
أبو بكر عبد الكريم الطائع	٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ/ ٩٧٤ ـ ٩٩١ م
أبو العباس أحمد القادر	٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٣١ م
أبو جعفر عبدالله القائم	٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٥ م

أسماء أمراء آل بويه ومدة إمارة كل منهم[1]

أ ـ في فارس

١ ـ عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه ٣٢٠ ـ ٣٣٨ هـ/ ٩٣٢ ـ ٩٤٦ م
٢ ـ عضد الدولة أبو شجاع خسرو ٣٣٨ ـ ٣٧٢ هـ/ ٩٤٦ ـ ٩٨٢ م
٣ ـ شرف الدولة أبو الفوارس شيرزاد ٣٧٢ ـ ٣٧٩ هـ/ ٩٨٢ ـ ٩٨٩ م
٤ ـ صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان ٣٧٩ ـ ٣٨٨ هـ/ ٩٨٩ ـ ٩٩٨ م
٥ ـ بهاء الدولة أبو نصر ٣٨٨ ـ ٤٠٣ هـ/ ٩٩٨ ـ ١٠١٢ م
٦ ـ سلطان الدولة أبو شجاع ٤٠٣ـ٤١٥ هـ/ ١٠١٢ـ١٠٢١ م
٧ ـ عضد الدولة أبو كاليجار المرزبان ٤١٥ـ٤٤٠ هـ/ ١٠٢٤ـ١٠٤٨ م
٨ ـ الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز ٤٤٠ـ٤٤٧ هـ/ ١٠٤٨ـ١٠٥٥ م

ب ـ في العراق والأهواز وكرمان

١ ـ معز الدولة أبو الحسين أحمد ٣٢٠ ـ ٣٥٦ هـ/ ٩٣٢ ـ ٩٦٧ م
٢ ـ عز الدولة بختيار ٣٥٦ ـ ٣٦٧ هـ/ ٩٦٧ ـ ٩٧٧ م
٣ ـ عضد الدولة أبو شجاع خسرو ٣٦٧ ـ ٣٧٢ هـ/ ٩٧٧ ـ ٩٨٢ م
٤ ـ شرف الدولة أبو الفوارس شيرزاد ٣٧٢ ـ ٣٧٩ هـ/ ٩٨٢ ـ ٩٨٩ م
٥ ـ بهاء الدولة أبو نصر ٣٧٩ ـ ٤٠٣ هـ/ ٩٨٩ ـ ١٠١٢ م
٦ ـ سلطان الدولة أبو شجاع ٤٠٣ـ٤١٢ هـ/ ١٠١٢ـ١٠٢١م
٧ ـ مشرف الدولة أبو علي ٤١٢ـ٤١٦ هـ/ ١٠٢١ـ١٠٢٥م
٨ ـ أبو طاهر جلال الدولة ٤١٦ـ٤٣٥ هـ/ ١٠٢٥ـ١٠٤٣م
٩ ـ أبو كاليجار مرزبان ٤٣٥ـ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٣ـ١٠٤٨م
١٠ ـ الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز ٤٤٠ـ٤٤٧ هـ/ ١٠٤٨ـ١٠٥٥م

---

(١) انظر كتاب تاريخ إيران بعد الإسلام لعباس إقبال ص٩٣ ـ ٩٥.

جـ ـ في الري وأصفهان وهمذان

١ ـ ركن الدولة أبو علي حسن	٣٢٠ ـ ٣٦٦ هـ/ ٩٣٢ ـ ٩٧٦ م
٢ ـ مؤيد الدولة أبو منصور	٣٦٦ ـ ٣٧٣ هـ/ ٩٧٦ ـ ٩٨٣ م
٣ ـ فخر الدولة أبو الحسن علي	٣٦٦ ـ ٣٨٧ هـ/ ٩٨٣ ـ ٩٩٧ م
٤ ـ شمس الدولة أبو طاهر (في همذان فقط)	٣٨٧ ـ ٤١٢ هـ/ ٩٩٧ ـ ١٠٢١ م
٥ ـ مجد الدولة أبو طالب رستم (في الري فقط)	٣٨٧ ـ ٤٢٠ هـ/ ٩٩٧ ـ ١٠٢٩ م
٦ ـ سماء الدولة أبو الحسن (في همذان فقط)	٤١٢ـ ٤١٤ هـ/ ١٠٢١ـ١٠٢٣م

الخلافة العباسية والبويهيين

تأسيس الدولة البويهية

شكّل العصر العباسي الثالث ردة فعل مناهضة للنفوذ التركي الذي تمكن من السيطرة على مقدرات الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني. ومثّل حركة فارسية شيعية زيدية[1] لإعادة الاعتبار الذي تراجع خلال القرن الثالث الهجري. واختلف هذا العصر في مظاهره عن العصر العباسي الثاني من حيث التركيز على المشرق.

ظهر بنو بويه على مسرح الأحداث في أوائل القرن الرابع الهجري[2] وأسسوا دولاً انفصالية في فارس والأهواز وكرمان والري وأصفهان وهمذان. وبسطوا هيمنة فعلية على العراق، فشاركوا الخلافة العباسية في حكمه. وعظم نفوذ هذه الأسرة حتى سمي باسمها عصر من عصور الخلافة العباسية.

هاجرت هذه الأسرة من الشمال، من بلاد الديلم المنطقة المجاورة لبحر قزوين، واشتهرت على يد الأخ الأكبر من الإخوة البويهيين الثلاثة، وهو علي بن شجاع بن بويه، الذي ولاّه مرداويج الزياري[3] بلاد الكَرَجْ[4].

ويبدو أن عليّاً كانت تراوده نزعات تتعدى الاستقلالية إلى التوسع على حساب

---

(١) مع الإشارة إلى أن البويهيين ليسوا من أصل فارسي، وهم يمثلون العنصر الديلمي الذي كان يسكن في جنوبي بحر قزوين. ولعلهم مزيج من الإيرانيين والأتراك وشعوب أخرى. وتشكل منطقتهم القسم الجبلي من جيلان التي تحدها ولاية قزوين جنوباً ومنطقة جالوس شرقاً.

(٢) راجع فيما يتعلق بظروف ظهور الأسرة البويهية مسكويه: جـ ١ ص، ٢٧٥ ـ ٢٧٩.

(٣) مؤسس الدولة الزيارية الانفصالية في طبرستان في عام ٣١٦ هـ.

(٤) الكرج مدينة بين همذان وأصفهان في منتصف الطريق. ياقوت: جـ ٤، ص ٤٤٦. راجع مسكويه: جـ ١ ص ٢٧.

جيرانه بالإضافة إلى الطموح السياسي الذي تحقق له سريعاً، حيث ما لبث أن أصبح صاحب شوكة في هذه النواحي، واستمال الناس بحسن سياسته، وتمكّن بفضل مقدرته العسكرية، والإدارية، وكرمه، وحسن معاملته لأتباعه؛ من بناء جيش قوي، انتزع به معظم بلاد فارس، في خلال فترة قصيرة. واتخذ مدينة شيراز قاعدة لحكمه[١].

كان علي يستولي على هذه البلاد باسم الخليفة العباسي ظاهراً، لكن في باطن الأمر كان يهدف إلى إقامة دولة خاصة به مستغلاً ضعف الخلافة السياسي والعسكري وعجزها عن التدخل في هذه المناطق لترتيب أوضاعها[٢]. ثم أرسل إلى الخليفة الراضي يطلب منه الاعتراف بسلطانه[٣] وهذا طبيعي، فإنه كان عليه أن يأمن جانب الخلافة لأنه سيطر على إحدى ولاياتها رغم إرادتها، فأراد أن يكسب حكمه صفة شرعية. وقد تم له ما أراد[٤].

ثم التفت إلى مرداويج، فعمل على كسب رضاه هو أيضاً فعرض عليه أن يدخل في طاعته، وأن يكون ما بيده من بلاد تابعة له يخطب له فيها. وبالطبع رحّب مرداويج بهذا العرض، فقلّده أرّجان، وأرسل علي إليه أخاه حَسَن رهينة[٥] ليكفل له حُسنَ التنفيذ.

أما فيما يتعلق بالعلاقة بينه وبين الخلافة العباسية، في هذه الفترة، فقد تحددت بمقتضى التقليد الذي أرسله الخليفة، لكن الخلافة حاولت أن تستعيد هيبتها، فأرسلت جيشاً بلغ مشارف فارس، لكنه رُدَّ على أعقابه بعد وقعة أرّجان في عام (٣٢٣ هـ/ ٩٣٥ م)[٦] وثبّت علي بن بويه أقدامه في المنطقة، وأقام دولته فيها.

ويبدو أن الظروف السياسية كانت تعمل لمصلحة البويهيين ففي عام (٣٢٣ هـ/ ٩٣٥ م) قتل مرداويج، فاستفاد علي من هذه الفرصة، وسيطر على بلاد الجبل التي كانت تحت سيادة وشمكير الزياري شقيق مرداويج. وأرسل أخاه حسن، الذي فرَّ بعد

---

(١) ابن الأثير: جـ ٦، ٢٣٤ ـ ٢٣٥.
(٢) إقبال: ص ٤٠.
(٣) ابن الأثير: جـ ٦، ص ٢٣٥.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه: ص ٢٣٩.
(٦) كان هذا الجيش بقيادة ياقوت.

مقتل مرداويج، إلى عراق العجم، فسيطر على أصفهان والري وهمذان والكَرَج وبقية بلاد العراق العجمي، واتخذ أبا الفضل بن العميد وزيراً له[1].

تطلع علي بن بويه بعد ذلك إلى تأمين حدود الأقاليم التي استولى عليها وتطلبت سياسته الاستيلاء على كرمان والأهواز قبل الدخول إلى العراق الذي كان محط أنظاره، على اعتبار أن هذين الإقليمين يشكلان ممراً طبيعياً لأي غزو محتمل لإقليم فارس إن من ناحية الشرق أو من ناحية الشمال.

لذلك، أرسل أخاه أحمد على رأس قوة عسكرية، فاستولى على كرمان في عام (٣٢٤ هـ/ ٩٣٦ م) بعد معركة القنطرة[2] وأضافها إلى أملاك آل بويه، ثم سيطر على الأهواز[3].

لم تقف الخلافة العباسية مكتوفة اليدين إزاء هذه التطورات السياسية والعسكرية. لذلك انتهزت فرصة هذا الصراع البويهي ـ الزياري وحاولت استعادة الأهواز، فأرسلت قواتاً بقيادة بجكم لاستردادها وطرد البويهيين منها. ووقف هذا عند حدود الأهواز القريبة من العراق منتهزاً الفرصة للتدخل. لكن القائد العباسي اضطر إلى التراجع تحت ضغط الأحداث العسكرية بعدما مالت كفة البويهيين للرجحان. وأضحت الأهواز نتيجة ذلك في يد آل بويه الذين ضموها إلى أملاكهم[4]. نتيجة لهذه التطورات، تمّ لبني بويه توسيع قاعدتهم بما يتماشى مع تطلعاتهم التوسعية وأضحى نزولهم من الأهواز إلى العراق أمراً ميسوراً، فراحوا يراقبون الأحداث في عاصمة الخلافة، حتى تسنح لهم الفرصة لدخولها[5].

كانت الحالة في العراق مضطربة نتيجة اشتداد الخلافات بين ابن رائق والي البصرة وأمير الأمراء من جهة، وبين أبو عبدالله البريدي والي الأهواز السابق والفار من وجه قوات الخلافة من جهة ثانية، وقد التجأ إلى علي بن بويه وأطمعه في دخول العراق. ومن جهة أخرى، كانت الخلافة واقعة تحت نفوذ الأتراك. وظهر عجزها في

---

(١) ابن خلكان: جـ ٢، ص ١١٨.
(٢) ابن الأثير: جـ ٦، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) محمود والشريف: ص ٥١٢.

إقرار الأمور في العراق. فشعر الناس بهذا الفراغ السياسي، وبفشل أمراء الأمراء. كما اختلّت المالية العامة في الدولة، وفرغت خزائن الخلافة، ووقع الخلفاء في ضائقة مالية شديدة نتيجة لتحكم الأتراك وجشعهم.

نتيجة لذلك، تطلع الناس إلى هذه القوة الجديدة التي ظهرت بالقرب منهم وأثبتت جدارتها، لتنشلهم من الفوضى، كما تطلع بعض القادة المغلوب على أمرهم إلى قوة البويهيين النامية، آملين أن يحصلوا بواسطتها على الامتيازات التي حرموا منها أو أُبعدوا عنها. وأخيراً مال الخليفة المتقي لطلب المساعدة من البويهيين لوضع حدٍّ للنزاعات الداخلية بين الأمراء، خاصة بعد ما ساءت العلاقات بينه وبين توزون.

وفعلاً دعا الخليفة، أحمد بن بويه وطلب منه دخول بغداد، كما كاتبه بعض القادة للغاية نفسها. فسار إليها في عام (٣٣٢ هـ/ ٩٤٤ م) ودخلها في عام (٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م) بعدما خرج الأتراك منها، واستقبله الخليفة المستكفي واحتفى به وخلع عليه، وعينه أميراً للأمراء، ولقبه معز الدولة، ولقب أخاه علياً عماد الدولة، كما لقب أخاه حسن ركن الدولة[1]. ومن ثمّ أضحت هذه الألقاب الفخمة، التسمية المألوفة للأمراء البويهيين.

وهكذا أسس البويهيون في فارس والعراق والأهواز وكرمان والري وهمذان وأصفهان إمارات وراثية دامت حتى عام (٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م) وقد أدّى نظام الوراثة هذا، إلى إيجاد نوع من الاستقرار السياسي في دولة الخلافة العباسية، سيطر البويهيون أثناءها على مقاليد الأمور، وتصرفوا بشكل مطلق. لكن هذا الاستقرار كانت تشوبه بعض الاضطرابات الناتجة عن النزاعات المذهبية بفعل تشيع الأسرة البويهية.

علاقة الخلافة العباسية بالبويهيين

كان من المتوقع أن يعيد البويهيون الاستقرار والوحدة إلى أقاليم الخلافة بفرض سيطرتهم عليها، وكبح جماح جندهم، وإفساح المجال أمام الخلافة كي تضطلع بمسؤولياتها وتجنب إثارة الفتن المذهبية. إلا أن ذلك لم يتحقق لأنهم دخلوا بغداد يحملون روح العداء للخلفاء العباسيين المخالفين لهم في المذهب. وقد فكّر معز

---

(١) ابن الأثير: جـ٦، ص ٢٦٣، ٢٩٢، ٢٩٥ ـ ٢٩٦، ٣١٤.

الدولة بعد دخوله بغداد، وسيطرته على مقاليد الأمور فيها، في إلغاء الخلافة العباسية وإقامة خلافة شيعية على أنقاضها، وتنصيب أحد الزعماء الشيعة الزيدية[1] وكان بإمكانه تحقيق ذلك. إلاّ أنه أحجم، بعد استشارة أصحابه، لأن مثل هذا التغيير كان سيعرض العالم الإسلامي لهزات عنيفة بالإضافة إلى زعزعة الحكم البويهي. وبالتالي فإنّ شيعة العراق الذين حاول معز الدولة استمالتهم إليه، كانوا على مذهب الإمامية وهذا يدل على أن تنصيب خليفة زيدي سيكون مماثلاً في نظرهم، بالمقارنة مع الخليفة العباسي. لهذا أدرك معز الدولة من خلال فكرته السياسية الثاقبة بأن البقاء على الخلافة العباسية أجدر، متبعاً المبدأ الزيدي القائل: «بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل» وأجاز على هذا الأساس الذي أقرّه المبدأ الزيدي، وعلى أساس المصلحة السياسية، أن يدين بالولاء لخليفة سني[2] إلاّ أنه اتبع سياسة ترمي إلى الحد من سلطته مقابل تقوية نفوذه.

لقد ساد العهد البويهي شيء من الاستقرار السياسي من حيث مدة حكم الخلفاء. فقد تولى الخلفاء الحكم سنوات طويلة قبل أن يعزلوا. من ذلك، فقد تولى الخليفة المطيع الحكم مدة ٢٩ عاماً (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ/ ٩٤٦ ـ ٩٧٤م)، والطائع ١٨ عاماً (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ/ ٩٧٤ ـ ٩٩١ م)، والقادر ٤١ عاماً (٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٣١ م). ولعل مرد ذلك يعود إلى أن إمرة الأمراء التي تولاها البويهيون، كانت تتحمل كافة تبعات الحكم، وأضحوا في ظلها مطلقي التصرف في العراق مقابل استمرار تحديد نفوذ الخليفة الذي ظل رمزاً لا يتولى من مقاليد الأمور شيئاً يمكن أن ينازعه فيه أحد، واقتصر عمله على إضفاء الصفة الشرعية على أعمالهم.

يذكر كثير من المؤرخين بأن بني بويه أذلّوا الخلفاء العباسيين، وسلبوهم سلطانهم، ولم يتورعوا عن التعدي على أشخاصهم، أحياناً، وأن الخلافة فقدت هيبتها، وضعف شأنها، في عهدهم، وأن الخليفة أضحى ألعوبة في أيديهم، يمثل رمزاً دينياً، ليس له من السلطة سوى الاسم فقط، أما السلطة الفعلية في الدولة فكانت في يد الأمير البويهي[3].

---

(١) استشار معز الدولة أصحابه في تنصيب أبا الحسن محمد بن يحيى الزيدي.

(٢) ابن الأثير: جـ ٦، ص ٣١٥، وراجع هامش رقم ٢ ص ٣١٥ ـ ٣١٦.

(٣) محمود والشريف: ص ٥٢٤.

والحقيقة أن بني بويه لم يكونوا السبب المباشر لضعف الخلافة العباسية، وفقدانها لهيبتها، إنهم ورثوا وضعاً قائماً بدأ قبل عهدهم، فقد الخليفة في أثنائه كل اختصاصاته كمصدر أول للسلطة في الدولة[1].

وهكذا، يمكن القول أن بني بويه حين تولوا منصب إمرة الأمراء، لم يغيروا شيئاً من صلاحيات ومسؤوليات من يتولى هذا المنصب، ولعل التغيير الذي حدث هو جعل إمرة الأمراء وراثية في بيتهم، بل إن معاملتهم للخلفاء جرت على النسق الذي كان متبعاً قبلهم.

ولعل أوضاع الخلافة في عهدهم، كانت أفضل مما كانت عليه في عصر النفوذ التركي، وذلك بفعل، استقرار الحكم لبني بويه، مما أبعد الخلفاء عن المشاكل التي كانوا عرضة لها في الأيام السابقة، نتيجة لتنازع القادة وأمراء الأمراء حيث كان ذلك سبباً مباشراً لخلعهم في أوقات متقاربة، والاعتداء عليهم. بل إن الأمراء البويهيين حرصوا على إظهار الطاعة والولاء لمقام الخليفة العباسي أمام الناس، نظراً للنفوذ الديني الذي كان يتمتع به بين المسلمين باعتباره الرئيس الأعلى للجماعة الإسلامية[2].

ولما انتهى الصراع على السلطة، وأصبح منصب أمير الأمراء وراثياً في أسرة بني بويه، لم يعد هناك من داع للاحتكاك بالخليفة[3].

ومن جهة أخرى، فقد فوّض الخليفة إلى الأمير البويهي إدارة الدولة بصفة رسمية مما أضفى الصفة الشرعية على تصرفاتهم وأعمالهم.

والواقع أن الأمراء البويهيين لم يتدخلوا في اختيار الخليفة العباسي، وفي عزله من منصب الخلافة سوى مرتين[4] كانت أولاهما في عام (٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م) أي عقب دخولهم بغداد مباشرة. فقد قبض معز الدولة البويهي على الخليفة المستكفي وخلعه

---

(١) البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص ١٣٢. ابن الأثير: جـ٦، ص ٣١٥. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام... مرجع سابق جـ٣ ص ٤١. Arnold: The caliphate: P 68

(٢) العبادي: ص ١٦٣.

(٣) الزهراني: ص ٢٤.

(٤) المرجع نفسه.

من الخلافة، وبايع للمطيع[1]، والراجح أن الأمير البويهي سلك هذا النهج مع الخليفة بفعل عاملين سياسي وديني[2].

أما السبب السياسي، فمرده إلى أن الخليفة المستكفي كان يُراسل ناصر الدولة الحمداني أثناء الصراع العسكري الذي كان دائراً بينه وبين معز الدولة في الموصل، ويخبره بأسرار الجيش البويهي العسكرية وتحركاته[3].

وأما السبب الديني، فقد قبض الخليفة على رئيس الشيعة، وكان يتولى الإفتاء في بغداد، وأهانه أمام معز الدولة. فاستاء هذا الأخير لأنه كان شيعياً. فأقدم على خلع المستكفي الذي أظهر عدم احترام لمذهبه[4].

وأما المرة الثانية التي تدخل فيها البويهيون في خلع الخليفة العباسي، فكانت في عام (٣٨١ هـ ـ ٩٩١ م)، عندما خلع بهاء الدولة الخليفة الطائع وأجلس القادر على سدة الخلافة[5]. وقد عزا السيوطي ذلك إلى أن الخليفة قبض على أبي الحسن بن المعلم، وكان من خواص بهاء الدولة، وسجنه. فعظم ذلك على بهاء الدولة فقبض على الخليفة، وخلعه واستولى على أمواله، وعلى كل ما وجده في دار الخلافة[6].

لكن الراجح أن وراء حادثة الخلع قضية مالية. فقد وقع بهاء الدولة في ضائقة مالية، وكثر شغب الجند عليه، فزيّن له أبو الحسن بن المعلّم بالقبض على الخليفة والاستيلاء على أمواله[7].

أما فيما يتعلق بنفقات الخليفة، فإن أمراء الأمراء كانوا قد خصصوا لتلك النفقات ضياعاً تسمي الضياع المستخلصة[8] أما بنو بويه فجعلوا للخليفة راتباً. فقد

---

(١) المسعودي: جـ ٤ ص ٢٧٦.
(٢) الزهراني: ص ٢٤.
(٣) المسعودي: جـ ٤ ص ٢٧٦.
(٤) مسكويه: جـ ٢ ص ٨٦. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٣١٥.
(٥) ابن عمراني: الأنباء في تاريخ الخلفاء: ص ١٤٨.
(٦) السيوطي: ص ١٧٢. كان ابن المعلم فقيه الإمامية.
(٧) ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٤٧. وقارن بالأنطاكي الذي يذكر أن بهاء الدولة خلع الخليفة الطائع بغير ذنب. ص ٢٢١.
(٨) الصولي: ص ١٣١ ـ ١٤٥.

خصص معز الدولة للخليفة المستكفي راتباً يومياً حدّده بمبلغ خمسة آلاف درهم[١]، ويبدو أنه وجد أن ذلك غير عملي، لأن الأموال قد تتأخر، لذلك أضاف إلى المياومة، بعد فتح البصرة في عام (٣٣٦ هـ/ ٩٤٧ م) ضياعاً مستخلصة بمثابة إقطاعات[٢] ومع ذلك فقد كانت أموال الخليفة عرضة للمصادرة.

تمتع الأمراء البويهيون ببعض الامتيازات التي دلّت على قوتهم وعلى تميزهم عمن سبقهم من الأمراء والقواد، منها:

- لقد جرت العادة عند تعيين الخليفة لأمير ما، أن يحضر ذلك الأمير إلى مجلس الخليفة، فيطوقه، ويسوره، ويقلده سيفاً، ويعقد له لواء مطعماً بالفضة، ويكتب له عهداً بالإمارة أو الولاية[٣]. إلاّ أنه حدث تغيير في هذه العادة في العهد البويهي في عام (٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م) إذ حضر الأمير عضد الدولة إلى دار الإمارة، يصحبه عدد من الجند والأشراف والقضاة والأعيان، فقلّده الخليفة الطائع الخلع السلطانية، وعقد له لوائين بيده أحدهما مفضّض على رسم الأمراء، والآخر مُذهّب على رسم ولاة العهود. ولقّبه تاج الملة، إضافة إلى عضد الدولة، وولاّه إلى ما وراء بابه. وكتب له عهداً قُرِىء بحضرته[٤]، ولم تجر العادة بذلك، إنما كانت العهود تُدفع إلى الولاة بحضرة الخلفاء، فإذا أخذه الرجل منهم قال له: هذا عهدي إليك، فاعمل به[٥]. وأضحت هذه العادة وهي عقد لوائين، وقراءة عهد الإمارة بحضرة الخليفة، حقاً من حقوق الأمراء البويهيين الذين تعاقبوا على السلطة بعد عضد الدولة.

- واكتسب البويهيون ميزة أخرى وهي ضرب الطبول أمام دورهم إيذاناً بدخول وقت الصلاة وكانت هذه العادة من أهم مظاهر السيادة العباسية، وهي أن تضرب الطبول أمام دار الخليفة خمس مرات في أوقات الصلاة. ولم يشاركه فيها أحد، حتى أولياء العهد[٦].

---

(١) ابن الأثير: جـ٦، ص ٣١٤.
(٢) ابن الأثير: جـ٦، ص ٣١٤.
(٣) الزهراني: ص ٢٦.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم: جـ٧ ص ٨٧. السيوطي: ص ٤٠٧.
(٥) ابن الجوزي المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه: ص ٩٢ وجـ٨، ص ٣٠.

وقد حاول الأمراء البويهيون منذ عهد معز الدولة التمتع بهذه العادة لكنهم فشلوا. حتى إذا تولى عضد الدولة أمور العراق في عام (٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م) طلب من الخليفة الطائع أن يمنحه حقَّ ضرب الطبول أمام داره، فأجاز له ذلك ثلاث مرات يومياً في أوقات الصبح والمغرب والعشاء[١] ويبدو أن الخلاف الذي نشأ بين الرجلين عند النزاع بين بني بويه والأتراك، كان الدافع للخليفة على منح هذه الميزة، بهدف تحسين علاقته به[٢].

أضحت هذه الميزة بعد ذلك، حقاً من حقوق الأمراء البويهيين. فكانت الطبول تضرب أمام دورهم ثلاث مرات يومياً. حتى إذا تولى سلطان الدولة الحكم في عام (٤٠٣ هـ/ ١٠١٢) أمر بأن تضرب الطبول أمام داره خمس مرات في اليوم، وذلك دون أن يستأذن الخليفة[٣]. وحذا حذوه جلال الدولة في عام (٤١٨ هـ/ ١٠٢٧ م)، بالرغم من احتجاج الخليفة الذي اضطر بعد ذلك، إلى الموافقة تحت الضغط[٤].

- أما فيما يتعلق بالخطبة والسكة، فقد جرت العادة بأن يخطب للخلفاء ولأمراء الأمراء معهم على جميع المنابر في الولايات، باستثناء بغداد حيث كان يخطب للخليفة وحده لكن في عام (٣٦٨ هـ/ ٩٧٨ م) أمر الخليفة الطائع بأن يخطب لعضد الدولة على منابر بغداد بعد الخطبة للخليفة[٥] أما كتابة اسم أمير الأمراء البويهي على السكة، فقد كان أمراً جرت به العادة من قبل[٦].

- واكتسب الأمراء البويهيون ميزة أخرى تمثّلت في التلقب بالألقاب. والواقع أن تلقيب هؤلاء الأمراء بلقب ملك أو غيره يعود إلى مقدرتهم العسكرية، وتحسسهم بقوميتهم الفارسية، بإحياء التراث الفارسي القديم[٧]. ففي عام (٣٥١ هـ/ ٩٦٢ م)

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧، ص ٩٠ - ٩١.
(٢) الزهراني: ص ٢٧.
(٣) ابن الجوزي جـ ٨، ص ٣٠.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) محمود والشريف: ص ٥٢٠.
(٧) الزهراني: ص ٢٢.

لقب الخليفة المطيع الأمير شجاع فناخسرو بلقب عضد الدولة[١]، وفي عام (٣٥٥ هـ/ ٩٦٦ م) لقب أحمد بن بويه مؤيد الدولة[٢]؛ ولقّب الأمير بختيار عز الدولة[٣]؛ وفي عام (٣٦٤ هـ/ ٩٧٥ م) لقب أبا الحسن علي بن ركن الدولة بـ فخر الدولة[٤].

ويبدو أن الخليفة كان يختار بنفسه اللقب للأمير البويهي، وعلى الأخير قبوله، وعدم الاعتراض عليه[٥]. غير أن ذلك لم يدم طويلاً فمنذ عام (٣٦٩ هـ/ ٩٧٩ م) أضحى الأمير البويهي هو الذي يختار لنفسه ما يشاء من الألقاب، ثم يحصل على موافقة الخليفة عليها.

فقد طلب عضد الدولة، عندما قدم إلى بغداد، في العام المذكور، من الخليفة أن يضيف إلى لقبه «تاج الملة»، فوافق الخليفة ومنحه اللقب[٦]. وعندما اشتد ساعدهم تمادى الأمراء البويهيون في إضفاء العظمة على هيبتهم من خلال الألقاب. فقد تلقب عضد الدولة بلقب «ملك الملوك» ولم يكن الخليفة راضياً عن ذلك. وتلقب أبو كاليجار بلقب ملك الأمة[٧].

وزيد في ألقاب جلال الدولة في عام (٤٢٩ هـ/ ١٠٣٨ م) لقب شاهنشاه الأعظم ملك الملوك وذلك بموافقة الخليفة وخطب له بذلك على المنابر. فنفرت العامة من ذلك ورموا الخطباء بالآجر، ووقعت فتنة شديدة بسبب ذلك[٨].

وتلقب الأمير خسرو فيروز في عام (٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م) بلقب «الملك الرحيم». وقد امتنع الخليفة، في بادىء الأمر، عن منحه هذا اللقب، ثم وافق بعد ذلك مرغماً[٩].

---

(١) مسكويه: جـ ٢، ص ١٩٢. ابن الأثير: جـ ٧، ص ٥.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٢١.
(٣) ابن الأثير: جـ ٧، ص ٢١ ـ ٢٢.
(٤) ابن الأثير: جـ ٧، ص ٦٥ هامش رقم ١.
(٥) الزهراني: ص ٢٨.
(٦) ابن الجوزي: جـ ٧، ص ٩٨.
(٧) المصدر نفسه: ص ١١٣ ـ ١١٤.
(٨) ابن كثير: جـ ١٢، ص ٤٣. إنه يورد أقوال الفقهاء والقضاة في التلّقب بهذا اللقب.
(٩) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٨.

نهاية البويهيين

اضطربت أوضاع البويهيين بعد وفاة بهاء الدولة في عام (٤٠٣ هـ ١٠١٢ م) ولعل مرد ذلك يعود إلى:

- تنازع أبنائه. ذلك أن البيت البويهي لم يتبن قاعدة ثابتة لولاية الأمر. فاختلف أفراده فيما بينهم، ولم يحتفظوا بتضامنهم، وفقدوا جزءاً من حيويتهم ومن نشاطهم. فقد استأثر كل واحد من أبناء بهاء الدولة بناحية. فأقام سلطان الدولة في شيراز، وولّى أخاه مشرف الدولة أمرة الأمراء في بغداد، كما ولّى أخاه جلال الدولة منطقة البصرة، وأخاه أبا الفوارس كرمان[1]. فتطلع كل منهم إلى الاستقلال بما في يده، وطمع بانتزاع ما بيد أخيه، حتى دّب الشقاق داخل الأسرة.

- اعتمد البويهيون منذ عهد معز الدولة على الأتراك. فجندوا الكثير منهم، ووصل بعضهم إلى مناصب قيادية. وبالرغم من أن السيادة ظلت في يد البويهيين، إلاّ أن قوة الجند الأتراك ازدادت باستمرار تحت حكم البويهيين المتأخرين بعد عضد الدولة وأضحت قوة لا يمكن الاستغناء عنها وشكل الأتراك وحدات الفرسان في حين شكّل البويهيون المشاة.

كان من الطبيعي في ظل هذا الوضع أن ينشأ التنافس بين الطرفين مما سبّب الكثير من المتاعب للبويهيين، إذ كثيراً ما أدى ذلك إلى اندلاع الثورات والحروب الأهلية ولم يتورع الجند الأتراك عن نهب العاصمة أحياناً، كما لم يتورعوا حتى عن نهب قصور أمرائهم، مطالبين بزيادة مرتباتهم، وبتعويضات إضافية.

ونظراً لعجزهم عن معالجة هذه المشاكل وتلبية حاجات جنودهم، لجأ البويهيون إلى تبني سياسة جديدة تمثّلت بظهور نظام اجتماعي جديد هو نظام الإقطاع. فلجأوا إلى منحهم القرى مقابل خدماتهم. وتميز هذا الإقطاع بالمرحلية أي أنه أقطع لفترة محددة لتأمين حياة الجند، مما جعل التغير المتكرر في المستفيدين من الإقطاعية السمة البارزة. فأهمل المقطعون، الذين أدركوا أن القرى ستؤخذ منهم بعد وقت قصير، صيانتها مما جلب الخراب للقرى، وتدهوراً اقتصادياً تأثرت به الخزانة البويهية فضلاً عن خزانة الخلافة العامة.

---

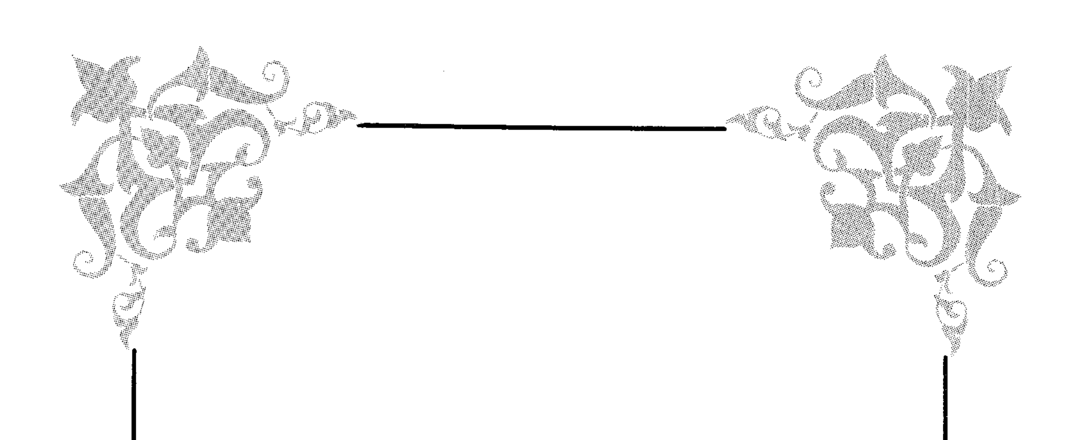
(١) ابن الأثير: جـ ٧، ص ٢٦٨

ـ انكمش البويهييون على أنفسهم ضمن دائرة نفوذهم. وأهملوا في الوقت نفسه، الاهتمام بما كان يجري من أحداث في مناطق أخرى من العالم الإسلامي، فلم يشاركوا فيها، مما أفسح المجال إلى نشوء إمارات أخرى، أخذت على عاتقها القيام بهذه المهمة. أمثال العقيليين في شمالي العراق وبعض مناطق الجزيرة، والنميريين في حران والرها والرقة، والمروانيين في ديار بكر وميافارقين وغيرهم. وقد نتج عن ذلك، حدوث اصطدامات بينهم وبين هذه القوى الناشئة.

ـ أما على الصعيد الخارجي، فإن البويهيين لم يعيروا اهتماماً لتنامي القوة البيزنطية المتجدّدة في عهد الأسرة المقدونية، كما لم يتطلعوا إلى بلاد الشام التي شهدت، في بعض الأحيان، نزاعات حادة بين الطولونيين والأخشيديين من جهة، وبين الخلافة العباسية والدولة الحمدانية من جهة أخرى.

ـ أما في الشرق، فإنهم لم يشاركوا السامانيين والغزنويين في الدفاع عن مناطق الحدود مع الهند والترك الوثنيين. والراجح أن الخلافات الداخلية التي كانت تنشأ داخل الأسرة، منعتهم من الاهتمام بالأمور الخارجية، أو الحرص على أن يكون لهم دور فعّال في العالم الإسلامي.

سقطت الدولة البويهية في العراق وفارس تحت ضربات السلاجقة، ووقع الملك الرحيم أسيراً في يد طغرلبك السلجوقي أثناء دخوله بغداد في عام (٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م) كما سنرى.



العصر العباسي الرابع

عصر النفوذ السلجوقي التركي

٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ/ ١٠٥٥ ـ ١٢٥٨ م

خلفاء العصر العباسي الرابع ومدة خلافة كل منهم:

أبو جعفر عبدالله القائم ٤٢٢ـ٤٦٧هـ/ ١٠٣١ـ١٠٧٥ م

أبو القاسم محمد المقتدي ٤٦٧ـ٤٨٧هـ/ ١٠٧٥ـ١٠٩٤ م

أبو العباس أحمد المستظهر ٤٨٧ـ٥١٢هـ/ ١٠٩٤ـ١١١٨م

أبو منصور الفضل المسترشد ٥١٢ـ٥٢٩هـ/ ١١١٨ـ١١٣٥ م

أبو جعفر منصور الراشد ٥٢٩ـ٥٣٠هـ/ ١١٣٥ـ١١٣٦ م

أبو عبدالله محمد المقتفي ٥٣٠ـ٥٥٥هـ/ ١١٣٦ـ١١٦٠ م

أبو المظفر يوسف المستنجد ٥٥٥ـ٥٦٦هـ/ ١١٦٠ـ١١٧٠ م

أبو محمد الحسن المستضيء ٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ ١١٧٠ ـ ١١٨٠ م

أبو العباس أحمد الناصر ٥٧٥ـ٦٢٢هـ/ ١١٨٠ـ١٢٢٥ م

أبو نصر محمد الظاهر ٦٢٢ـ٦٢٣هـ/ ١٢٢٥ـ١٢٢٦ م

أبو جعفر منصور المستنصر ٦٢٣ـ٦٤٠هـ/ ١٢٢٦ـ١٢٤٢ م

أبو أحمد عبدالله المستعصم ٦٤٠ـ٦٥٦هـ/ ١٢٤٢ـ١٢٥٨ م

عصر الأتراك السلاجقة

السلاجقة العظام في خراسان وإيران

١ ـ ركن الدين أبو طالب طغرلبك	٤٢٩ـ٤٥٥هـ/ ١٠٣٧ـ١٠٦٣ م
٢ ـ عضد الدولة أبو شجاع الب أرسلان	٤٥٥ـ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣ـ١٠٧٢ م
٣ ـ معز الدين أبو الفتح ملكشاه الأول	٤٦٥ـ٤٨٥هـ/ ١٠٧٢ـ١٠٩٢ م
٤ ـ ناصر الدين محمود	٤٨٥ـ٤٨٧هـ/ ١٠٩٢ـ١٠٩٤ م
٥ ـ ركن الدين أبو المظفر بركياروق	٤٨٧ـ٤٩٨هـ/ ١٠٩٤ـ١١٠٤ م
٦ ـ جلال الدولة ملكشاه الثاني	٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م
٧ ـ غياث الدين أبو شجاع محمد	٤٩٨ـ٥١١هـ/ ١١٠٤ـ١١١٧ م
٨ ـ معز الدين أبو الحارث سنجر	٥١١ـ٥٥٢هـ/ ١١١٧ـ١١٥٧ م

سلاجقة العراق

١ ـ مغيث الدين محمود	٥١١ـ٥٢٥هـ/ ١١١٧ـ١١٣١ م
٢ ـ غياث الدين داود	٥٢٥ـ٥٢٦هـ/ ١١٣١ـ١١٣٢ م
٣ ـ ركن الدين أبو طالب طغرل الثاني	٥٢٦ـ٥٢٩هـ/ ١١٣٢ـ١١٣٥ م
٤ ـ غياث الدين أبو الفتح مسعود	٥٢٩ـ٥٤٧هـ/ ١١٣٥ـ١١٥٢ م
٥ ـ معز الدين أبو الفتح ملكشاه الثاني	٥٤٧هـ / ١١٥٢ م
٦ ـ غياث الدين أبو شجاع محمد الثاني	٥٤٨ـ٥٥٤هـ/ ١١٥٣ـ١١٥٩ م
٧ ـ غياث الدين أبو شجاع سليمان شاه	٥٥٤ـ٥٥٦هـ/ ١١٥٩ـ١١٦١ م
٨ ـ ركن الدين أبو المظفر أرسلان شاه	٥٥٦ـ٥٧١هـ/ ١١٦١ـ١١٧٥ م
٩ ـ ركن الدين أبو طالب طغرل الثالث	٥٧١ـ٥٩٠هـ/ ١١٧٥ ـ ١١٩٤م

نهاية دولة الخلافة العباسية

الخلافة العباسية والأتراك السلاجقة

قيام الدولة السلجوقية

بقيام السلاجقة الترك، بزغ عصر جديد هام في تاريخ الخلافة والإسلام. ولما ظهروا من الشرق في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي كان الخليفة لا يتمتع بشيء من سلطة الخلافة الحقيقية وكانت دولة الخلافة العباسية قد تمزقت إرباً إرباً.

فالأمويون قد استتب أمرهم في الأندلس، وكذلك العبيديون في مصر وشمالي إفريقية، ولم يعدْ لبغداد من سبيل إلاّ القضاء على شوكة هؤلاء جميعاً.

أما شمالي سورية والجزيرة الفراتية فقد رأينا كيف آل أمرهما إلى أيدي زعماء من الثائرين العرب نجح بعضهم في تأسيس دولة قوية. ثم إن فارس وما وراء النهر قد تقاسمها بنو بويه أو امتلكها حكام مختلفون يترقب كل منهم الفرصة للفتك بمنافسه، حتى عمّت الفوضى السياسية والعسكرية جميع الأنحاء. وتفاقم الخطب المذهبي بين السُنّة والشيعة بحيث خُيل للناظر أن دولة الإسلام في طور النزع الأخير.

تلك كانت حال الخلافة الإسلامية حين ظهرت على مسرحها السياسي، وعلى أنقاض أسلافهم البويهيين «الإمارة السلجوقية».

ينحدر السلاجقة من قبيلة قنق الغزية التركية، وينتسبون إلى جد هو سلجوق بن دقاق[1] وكانت منازلهم في الصحراء الواسعة والسهوب الممتدة من الصين حتى

---

(١) الحسيني، صدر الدين بن علي: أخبار الدولة السلجوقية ص ٢ ـ ٣. المستوفي: تاريخ كزيدة: ص ٤٣٤. خواند أمير: حبيب السير جـ ٢ ص ٤٧٩.

شواطىء بحر الخزر[1] اعتنقوا المذهب السنّي ونصروه بغيرة وحماسة. وفي عام (٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م) نزحوا من موطنهم الأصلي إلى بلاد ما وراء النهر وخراسان بسبب الظروف الاقتصادية السيئة في هذه المناطق الصحراوية أو بسبب الحروب التي كانت تدور بين القبائل المختلفة عادة، فاصطدموا بالغزنويين الذين كانوا يسيطرون على المنطقة، وطردوهم منها بعد سلسلة من الاصطدامات.

وأسس السلطان السلجوقي طغرلبك دولة في خراسان في عام (٤٣١ هـ/ ١٠٤٠ م) على أثر انتصاره على السلطان مسعود الغزنوي في معركة داندانقان[2]. واعترف الخليفة العباسي القائم به سلطاناً في العام التالي[3].

واصل السلاجقة سياستهم التوسعية في فارس ضمن دائرة اعتراف الخلافة العباسية، بهدف القضاء على قوة البويهيين، تمهيداً لمد نفوذهم إلى العراق. فاستولوا على الري في عام (٤٣٢ هـ/ ١٠٤١ م)[4] ودخلوا في العام التالي جرجان وطبرستان[5] واستولى السلطان طغرلبك في عام (٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠ م) على أصفهان واتخذها عاصمة له[6]، ثم ضمَّ بعد أربع سنوات إقليم أذربيجان[7].

وهكذا قامت دولة السلاجقة العظام في خراسان وفارس، وأضحت جيوشهم على أهبة الاستعداد لدخول العراق.

الوضع الداخلي في بغداد عشية زحف السلاجقة باتجاه الغرب

كان الوضع الداخلي في بغداد، آنذاك مزعزعاً، تشوبه حالة من الفوضى وعدم الاستقرار مما ساعد على تعبيد الطريق أمام مهمة دخول السلاجقة إليها، وضم العراق

---

(١) فامبري ارمينيوس: تاريخ بخارى: ص ١٢٧.
(٢) تقع داندانقان بين سرخس ومرو.
(٣) الراوندي، أبو بكر محمد بن علي: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية: ص ١٦٨ ـ ١٦٩.
(٤) الحسيني: ص ١٠.
(٥) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٠.
(٦) المصدر نفسه: ص ٥٤.
(٧) ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين: تاريخ الزمان، ص ٩٠.

إلى دولتهم التي أسسوها في خراسان وإيران، وذلك بفعل الخلافات الأسرية داخل البيت البويهي. إذ قامت النزاعات والتنافسات بين الأمراء البويهيين من جهة وبينهم وبين الجند من جهة أخرى، كما انتشرت الفتن بين الجند[١].

ففي عام (٤٢٤ هـ/ ١٠٣٣ م) ظهر التنافس واضحاً بين جلال الدولة البويهي وبين ابن أخيه أبي كاليجار، وخُطب لهذا الأخير في بغداد[٢]. وغدت المدينة مسرحاً للشغب والمنازعات المذهبية والأسرية.

ولما توفي جلال الدولة في عام (٤٣٥ هـ/ ١٠٤٤ م)، لم يتمكّن ابنه الملك العزيز من الاحتفاظ بالحكم طويلاً، مما دفع أبو كاليجار إلى تثبيت أقدامه في الحكم، واستقر في بغداد في عام (٤٣٦ هـ/ ١٠٤٥ م)[٣].

نتيجة لهذا التنافس الأسري، وبفعل ثورات الجند المستمرة، فقد الأمن في بغداد. وقد شعر الخليفة العباسي بهذا التفكك والانحلال، ورأى أن الدولة البويهية عاجزة عن إقرار الأمور في العراق.

دخول السلاجقة بغداد

حين شارف السلاجقة العظام على العراق، كان أبو الحارث أرسلان البساسيري، أحد قادة بني بويه الأتراك المتشيعين، يسيطر على بغداد وما جاورها، ويتمتع بنفوذ كبير لدرجة أنه أضحى يُخطب له على المنابر في العراق والأهواز.

ولم يعد بإمكان أيّ من الخليفة العباسي أو الملك البويهي، إتخاذ أي قرار يتعلق بأمور الدولة إلاّ بعد موافقته. وقد شكّل هذا القائد خطراً حقيقياً على الخلافة العباسية والدولة البويهية.

أما خطره على الخلافة العباسية، فقد تجلّى في عام (٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ م)، حين نشب الخلاف بينه وبين الخليفة، القائم، مما دفعه للاتجاه نحو الفاطميين، واستعان بهم[٤].

---

(١) سرور، محمد جمال الدين: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ١٧٩.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٧، ٤٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٨٣.

وأما خطره على الدولة البويهية، فقد تجلّى في الخلاف الذي نشأ بينه وبين الملك الرحيم البويهي، مما هدّد النفوذ البويهي في العراق بعد ضياع أملاك البويهيين في إيران على يد السلاجقة.

في هذا الجو المضطرب، أخذ كل طرف يسعى لمصلحته. أما الخليفة الذي فقد ثقته بمن حوله، رأى أن مصلحته تقضي عليه الاتصال بالقوة الغالبة، خاصة وأنها كانت تدين بالمذهب السني، وتحترم الخلافة، وتدين لها بالولاء. فاستنجد بالسلطان السلجوقي طغرلبك طالباً مساعدته ضد البساسيري[1].

انتهز السلطان هذه الفرصة، وسار بجيوشه إلى بغداد، ودخلها في عام (٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م). واعترف الخليفة به سلطاناً على جميع المناطق التي تحت يده، وأمر بأن يُذكر اسمه في الخطبة[2].

وهكذا دخل العراق ضمن دائرة نفوذ السلاجقة العظام.

العلاقة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية

أقام طغرلبك في بغداد ثلاثة عشر شهراً، عمل في أثنائها على تدعيم النفوذ السلجوقي في عاصمة الخلافة، وتوثيق صلة السلاجقة بالخليفة. كما عملت الخلافة من جانبها، على تقوية الروابط بينها وبين هذه القوة الجديدة. فتزوج الخليفة القائم من أرسلان خاتون خديجة ابنة داوود جفري بك، أخ طغرلبك وذلك في عام (٤٤٨ هـ/ ١٠٥١ م)[3] فتم بذلك، التقارب بين البيتين العباسي والسلجوقي، واستقر نفوذ السلاجقة في العراق[4].

في غمرة هذه الانتصارات التي حققها طغرلبك، قام البساسيري، من مقره

---

(١) الحسيني: ص ١٨.
(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٧١.
(٣) البنداري، الفتح بن علي بن محمد: اختصار تاريخ دولة آل سلجوق. للإمام عماد الدين محمد الأصفهاني: ص ١٣.
(٤) محمود والشريف: مرجع سابق ص ٥٦٢.

الجديد؛ الرحبة، بعدة حركات ارتدادية عسكرية وسياسية، بهدف إخراج السلاجقة من بغداد.

فعلى الصعيد العسكري، نجح في الاستيلاء على الموصل، بعد أن هزم السلاجقة قرب سنجار في عام (٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م) وأخذ يستعد لدخول بغداد[١].

وعلى الصعيد السياسي، أعلن انضمامه إلى الفاطميين، وخطب للخليفة الفاطمي الذي أرسل إليه الخلع، مما أحدث اضطرابات مذهبية عنيفة[٢].

في هذا الوقت، عانى طغرلبك من عدة صعوبات داخلية، اضطرته للخروج من بغداد في عام (٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م)، وسار إلى الموصل لوضع حد للمشاكل التي أثارها البساسيري ضده، فبسط نفوذه على ديار بكر[٣]، ثم عاد إلى بغداد، حيث استقبله الخليفة بالترحاب ولقبّه «ملك المشرق والمغرب»[٤] ويدل هذا التلقيب على أن الخليفة، اعترف لطغرلبك بما أضحى تحت يده من البلاد في المشرق، وأذن له باستخلاص المغرب من الفاطميين[٥].

ثم حدث أن واجه طغرلبك مشكلة جديدة تمثلت بتمرد قام به أخوه إبراهيم اينال في بلاد الجبل. فاضطر للخروج من بغداد، مرة أخرى، لقمع هذا التمرد. فانتهز البساسيري ذلك، ودخل بغداد في (شهر ذي القعدة عام ٤٥٠ هـ/ شهر كانون الأول عام ١٠٥٨ م) وخطب فيها للخليفة الفاطمي مدة عام كامل[٦]، وخرج الخليفة منها إلى عانة[٧] ملتجئاً إلى قريش بن بدران. وأخذ يراسل طغرلبك يستغيث به[٨].

ويبدو أن الخلافة الفاطمية، لم تكن تملك القوة الكافية لإمداد البساسيري حتى

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٧٧.
(٢) المصدر نفسه: ص ٧٧، ٨٣.
(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٧٧.
(٤) المصدر نفسه: ص ٨٠.
(٥) محمود والشريف: ص ٥٦٣.
(٦) البنداري: ص ١٨. الحسيني: ص ١٩.
(٧) عانة بلد مشهور بين الرقة وهيث، يعد من أعمال الجزيرة. وهي مشرفة على الفرات قرب حديثة الفرات أو حديثة النورة. الحموي: جـ ٤ ص ٧٢.
(٨) ابن العبري: ص ١٠٤.

تحتفظ بما وصلت إليه، كما يبدو أن ثقتها في هذا الرجل، لم تكن كبيرة، لذلك، لم تتحرك للقيام بعمل جدّي، وتركته يواجه الموقف منفرداً أمام قوة السلطان الذي ما لبث أن عاد إلى العراق، بعد أن فرغ من إخماد تمرد أخيه. واضطر البساسيري إلى الخروج من بغداد لعدم قدرته على الوقوف في وجه الجيش السلجوقي، ومن ثم قتل في عام (٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م).

وبعد أن دخل طغرلبك بغداد، دعا الخليفة للعودة إلى عاصمته واستقبله في النهراوان، وأبدى اغتباطه بعودته[١]. وبذلك استتب الأمر للسلاجقة في العراق وأصبحوا يمثلون ظاهرة جديدة في حياة دولة الخلافة العباسية. فقد اختلف موقفهم تجاه الخلافة عن موقف البويهيين، بشكل عام، فكانوا يحترمون الخلفاء تديناً ينبع من عقيدتهم ونشأتهم السنية.

ومن جهة أخرى، استطاع السلاجقة أن يوحدوا المشرق الإسلامي من جديد تحت رايتهم ويمدوا رقعته في غربي آسيا إلى حدود البوسفور عن طريق جهاد الدولة البيزنطية، ويستولوا على معظم بلاد الشام من الفاطميين.

ظلت العلاقات الطيبة قائمة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ما يقارب ثمانية عشر عاماً منذ أن أعلن طغرلبك قيام دولته في خراسان. والراجح أن الظروف السياسية التي ذكرت، والتي أحاطت بالطرفين حتمت أن تكون هذه العلاقات وثيقة.

لكن سرعان ما نشب الخلاف بين الطرفين، بسبب محاولة طغرلبك الاستئثار بجميع السلطات في العراق، حتى تلك المتعلقة بالخليفة، بالإضافة إلى أنه حمل موارد العراق المالية إلى الخزانة السلجوقية. فقد أناب عنه في حكم بغداد، قبل أن يعود إلى عاصمته الري، موظفاً سلجوقياً أطلق عليه اسم «العميد»[٢]. كما عيّن موظفاً آخر لحفظ الأمن يعرف بـ «الشحنة»[٣]، يأتمر بأمره، ويتمتع بنفوذ كبير حتى على الخليفة. وترك في بغداد حامية عسكرية، وضمّن بعض المدن لخواصه[٤].

---

(١) ابن عمراني: ص ١٦١.
(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٨٧.
(٣) المصدر نفسه: ص ٨٩.
(٤) المصدر نفسه: ص ٧٢، ٨٩.

وهكذا أضحى الخليفة العباسي مجرداً تماماً من سلطاته، واستأثر نواب السلطان بالسلطة.

ومما زاد الأمور تفاقماً، محاولة السلطان ربط البيتين العباسي والسلجوقي بالمصاهرة. فخطب ابنة الخليفة، متجاوزاً بذلك، تقاليد الخلافة العباسية، وهذا مطمح لم يسع إليه أحد من قبل[1].

ويبدو أن إقدامه على هذه الخطوة، كان وسيلة لتدعيم نفوذه السياسي برابطة أدبية قوية مع الخلافة العباسية. لكن الراجح أن السلاجقة طمعوا في منصب الخلافة، إلاّ أنهم افتقروا إلى شرط النسب باعتبارهم أعاجم. وهدى التفكير طغرلبك إلى الزواج من ابنة الخليفة أملاً في أن يلد منها ولداً يكون له من شرعية النسب وقوة السلاجقة ما يوصله إلى سدّة الخلافة[2].

كانت ردة الفعل سلبية، فقد انزعج الخليفة القائم من ذلك واستعفى السلطان، فلم يعفه. واضطر إلي قبول طلبه وزوّجه ابنته في عام (٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م)[3].

ولما آلت سلطنة السلاجقة العظام إلى ألب أرسلان في عام (٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م)، ظلّت الأوضاع كما هي عليه من استئثار السلطان بالسلطة دون الخليفة. ففي عام(٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م)، عيّن السلطان ابنه ملكشاه وليّاً للعهد من بعده، وأمر بأن يخطب له في جميع البلاد التي يحكم فيها، ومنها بغداد؛ دون أن يأخذ رأي الخليفة، في ذلك التعيين، وفي تلك الخطبة. ولم يبلّغه رسمياً إلاّ في عام (٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢ م) أي بعد ستة أعوام[4].

وعيّن السلطان في العام المذكور أبا العلاء محمد بن الحسين وزيراً دون علم الخليفة، الذي استاء من هذا التصرف، واعتبره تدخلاً في شؤون الخلافة الخاصة، ورفض استقباله[5].

---

(١) البنداري: ص ٢١.
(٢) أمين، حسين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٣) الحسيني: ص ٢١.
(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص ١٠٣، ١١١.
(٥) البنداري: ص ٤٥.

وتعرّض الخليفة في عهد السلطان ملكشاه، لكثير من الامتهان، وتجرّأ بعض نواب السلطان على مشاركته في بعض مظاهر سيادته الدينية. فضرب سعد الدولة كوهرائين شحنة بغداد، الطبول على باب داره رغماً عن الخليفة[١].

وفي أواخر حكم هذا السلطان، ازدادت علاقة الخليفة به سوءاً، حتى عزم على طرده من بغداد، ونقل عاصمة الخلافة إلى أصفهان، تمهيداً لتعيين ابن ابنته خليفة[٢]. لكن القدر كان بانتظار السلطان. فكفى الخليفة شر عزله[٣].

تعرضت دولة السلاجقة العظام، بعد وفاة ملكشاه في عام (٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م) للانقسام والضعف بسبب النزاعات التي نشبت بين أولاده[٤]. وقد انعكس ذلك على أوضاع الخلافة العباسية التي تصرفت وفق ما تمليه مصلحتها للانعتاق من الطوق السلجوقي. فوقفت موقف المتفرج أحياناً من هذه النزاعات، في حين تأرجحت باعترافها بين مراكز القوة أحياناً أخرى، وأحياناً كانت تمنحه لأكثر من شخص، في وقت واحد، أو للغالب؛ في محاولة لضرب القوى السلجوقية بعضها ببعض.

فانتهز الخليفة المسترشد ومن أتى بعده من الخلفاء، هذه الفرصة، وأخذوا يعملون على استعادة ما كان للخلافة من سلطات[٥] وساعدهم على ذلك ابتعاد السلاجقة العظام عن بغداد بحيث أضحى الخليفة بعيداً عن تأثير النفوذ المباشر للسلطان السلجوقي، وقد سار هذا الخليفة خطوات في هذا الطريق إلاّ أنه في النهاية ذهب ضحية محاولته[٦] ثم استطاع المقتفي في السنوات الأخيرة من حكمه، أن يحقق جزءاً كبيراً من الهدف الذي أخفق المسترشد في تحقيقه مستغلاً تطور الأوضاع السياسية لغير مصلحة السلاجقة.

---

(١) البنداري: ص ٥٥.
(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٣) ابن عمراني: ص ١٧٠. ابن خلكان: جـ ٥ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.
(٤) كان من بين نتائج هذه الخلافات أن انفصل السلطان محمود بن ملكشاه بحكم العراق، مؤسساً بذلك دولة سلاجقة العراق التي انفصلت عن دولة السلاجقة العظام التي حكمت في خرسان وإيران.
(٥) Arnold: The Caliphate: P 80.
(٦) حاول الخليفة المسترشد أن يستفيد من النزاع الذي كان محتدماً بين السلطان طغرل بن محمد وأخيه السلطان مسعود. راجع حول هذه الأحداث ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٩.

ففي عام (٥٣٦ هـ/ ١١٤١ م)، انهزم السلطان سنجر، آخر السلاطين السلاجقة العظام، أمام القراخطائيين. كما تجدّدت الخلافات السلجوقية الأسرية في كل من خراسان والعراق في عام (٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م).

هذا في الوقت الذي أخذ الخليفة يقوّي مركز الخلافة من الناحية العسكرية. فأمر العامة. بجمع السلاح، وحفر الخنادق حول بغداد وأصلح أسوارها[١].

ويُعتبر عام (٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م) البداية الفعلية لانتعاش الخلافة العباسية، وكان ذلك نتيجة عجز السلطان مسعود السلجوقي حاكم العراق، عن إخضاع أمراء الأطراف الذين ثاروا عليه، مما أعطى الخليفة فرصة النهوض بالدولة.

ولما توفي السلطان مسعود في عام (٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ م)، فقدت الدولة السلجوقية في العراق، ركناً كبيراً. فأصابها الوهن، وأخذت بالتداعي، وعمّتها الاضطرابات، مما أدّى إلى تقلص النفوذ السلجوقي في العراق شيئاً فشيئاً حتى زال في النهاية.

كان أول عمل قام به الخليفة المقتفي، بعد وفاة السلطان مسعود، هو أنه استولى على ممتلكات شحنة بغداد، وعزل الموظفين الذين ولاّهم السلطان، وعين بدلاً عنهم موظفين يثق بهم[٢]، ثم جّهز جيشاً حارب به شحنة بغداد وهزمه واستعاد منه الحلة والكوفة وواسط[٣].

وانتهج الخليفة سياسة ضرب القوى السلجوقية بعضها ببعض للاستفادة من انقسام أمراء البيت السلجوقي، فولّىٰ في عام (٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م) سليمان شاه بن محمود سلطاناً على العراق، كما عقد لأخيه ملكشاه بولاية العهد، ثم سيَّرهما إلى همذان لقتال السلطان محمد الثاني[٤].

ازدادت أوضاع دولة سلاجقة العراق تدهوراً بعد وفاة محمد الثاني في عام (٥٥٤ هـ/ ١١٥٩ م). وقد حاول خلفاؤه إعادة نفوذهم السابق، لكنهم جوبهوا

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٥٢.
(٢) المصدر نفسه: جـ ٩ ص ٣١ ـ ٣٢.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٢.
(٤) الراوندي: ص ٣٨٢. ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٤٨ ـ ٤٩.

بمعارضة الخلفاء القوية وقد عبّر المؤرخ السلجوقي البنداري عن هذا الموقف المتداعي بقوله: «ووقعت في أنفسهم من بغداد الهيبة، ومن حصولها الخيبة، فلم يقدم ملك إليها ولا سلطان عليها»[1].

واستمر الخلفاء في النضال للتحرر من الطوق السلجوقي حتى تحّقق لهم الاستقلال التام عن السلاجقة في عهد الخليفة الناصر حيث وصلت سلطة ونفوذ الخلافة المتجّددة إلى الأوج. وتلاشت السلطة السلجوقية من العراق وغربي فارس، لكن محاولات الخلافة فرض سلطتها على فارس، أثبتت إخفاقها رغم أنها نجحت في استعادة الأهواز.

زالت دولة السلاجقة العظام في عام (٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م). بمقتل السلطان سنجر على أيدي الغز في حين زالت دولة سلاجقة العراق في عام (٥٩٠ هـ/ ١١٩٤ م) بمقتل السلطان طغرل الثالث على يد علاء الدين تكش خوارزمشاه[2]. ونتيجة لهذا التطور دخلت دولة الخلافة العباسية في فترة استقلال فعلي دامت حتى عام (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م)[3].

---

(١) البنداري: ص ٢٦٨.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٥٥ ٢٣٠.
(٣) الزهراني: مرجع سابق: ص ٦٧.

المرحلة الأخيرة من حكم دولة الخلافة العباسية

٥٩٠ ـ ٦٥٦ هـ/ ١١٩٤ ـ ١٢٥٨ م

الدول الأتابكية ـ الشاهات ـ المغول

نتيجة لضعف السلاجقة، برزت في أواخر عهدهم ظاهرة قيام دول منفصلة على حسابهم، دارت في فلك دولة الخلافة العباسية، عرفت بالدول الأتابكية، وهي ذات أصول تركية. (أتابك: كلمة تركية مركبة من كلمتين، أتا: مربي، بك: أمير، ومعنى الكلمة: مربي الأمير).

نشأ الأتابكة في البلاط السلجوقي نتيجة للنظام الذي استحدثه السلاجقة القائم على شراء المماليك الأتراك، وإدخالهم في خدمة القصور السلطانية، خاصة فيما يتعلق بتربية أبنائهم، بالإضافة إلى تولي الوظائف العامة.

وترقى هؤلاء في المناصب الإدارية والعسكرية حتى وصلوا إلى المناصب القيادية واتخذوا من نشوب النزاعات داخل البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان ملكشاه الأول، فرصة لفرض سيطرتهم على المناطق التي تحت حكمهم. وتسابقوا في توسعة رقعتها كل على حساب الآخر. وبذلك نشأ نزاع أتابكي داخلي سار في خط مواز للنزاع السلجوقي الداخلي.

أشهر هذه الأتابكيات: كيفا وماردين ودمشق ودانشمند والموصل والجزيرة وأذربيجان وفارس.

وقامت إلى جانب الأتابيكات دول أخرى، نتيجة تولية السلاطين السلاجقة نواباً لهم في الأقاليم التي كانت تحت حكمهم، فاستأثر هؤلاء النواب بحكم هذه الأقاليم وأورثوها أبناءهم، وقد تلقبوا بـ «الشاهات». أشهر هؤلاء الشاهات: شاهات خوارزم وشاهات أرمينيا.

وهكذا ورثت الدول الأتابكية وشاهات خوارزم أملاك السلاجقة، مما مهد السبيل لقيام مرحلة استقل فيها الخلفاء العباسيون، واستردوا ما كان لهم من سلطات، كما أتاح هذا الضعف والانقسام للغرب الأوروبي الفرصة لشن الحروب الصليبية ضد البلاد الإسلامية من جهة، ودفع المغول لاجتياح العالم الإسلامي في أقاليم بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق من جهة ثانية، فدمروا بغداد وقضوا على دولة الخلافة العباسية.

ولما كان سقوط هذه الدولة قد تم على أيدي هؤلاء المغول، فلا بد من أن نلم إلمامة وجيزة بتاريخ هذا الشعب قبل أن نتحدث عن ظروف سقوط دولة الخلافة العباسية.

نشأة المغول

الواقع أن ظروف خروج المغول من موطنهم الأصلي في جوف آسيا باتجاه العالم الإسلامي، له علاقة بالمدى الذي وصلت إليه العلاقات بينهم وبين الدولة الخوارزمية. فما إن انبثق فجر القرن السابع الهجري، حتى شهد العالم الإسلامي اندفاع الجيوش المغولية الجرارة من شمالي شرقي آسيا على دفعات متقاربة ومتباعدة، وكان لها أثرها القريب والبعيد من النواحي السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية.

لم يكن المغول إلاّ مجموعة من القبائل الرحل، نشأت في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالي صحراء غوبي. وعاشت على روافد نهر آمور، وسيطرت على الأراضي الواقعة بين بحيرة بايكال في الغرب وجبال كانكان على حدود منشوريا في الشرق[١].

نبغ من بين أفراد المغول تيموجين الذي اختارته القبائل المغولية زعيماً عليها، واتخذ اسم جنكيز خان أي قاهر العالم. وقد أنشأ إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت من بلاد الصين شرقاً حتى حدود العراق وبحر الخزر وبلاد الروس غرباً، وبلاد الهند جنوباً.

ظروف توسع المغول باتجاه العالم الإسلامي

في هذه الأثناء، حلّ الخوارزميون محل السلاجقة في حكم المناطق الشرقية من العالم الإسلامي، في بلاد ما وراء النهر وخراسان وإيران، وراح زعماؤهم يتدخلون في شؤون الخلافة العباسية حتى عزموا الاستيلاء على بغداد[٢].

---

(١) الجويني، عطا ملك: تاريخ قاهر العالم جـ١ ص ٦٠.
(٢) المصدر نفسه: جـ٢ ص ٢٩ ـ ٣٠.

فقد طمع علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي خلف أباه تكش في تحقيق هذه الرغبة، وانتزاع السلطة من يد الخليفة العباسي الناصر[١]. إلاّ أنه اضطر إلى التراجع تحت الضغط المغولي الذي أخذ يجتاح بلاده، بالإضافة إلى مضايقة الأمراء له[٢].

وكان من أثر تفاقم الخلاف بينه وبين الخليفة، أن أقدم هذا الأخير على الاستعانة بالمغول ليشغل بهم السلطان الخوارزمي حتى يأمن شره ويبعده عن العراق[٣]. فكتب إلى جنكيزخان يحثه على العبور إلى البلاد الإسلامية ووعده بالتعاون معه لضرب الخوارزميين[٤].

لكن رغم وصول هذه الرسالة إلى المغول، فإنها لم تكن السبب في غزو جنكيزخان للدولة الخوارزمية. إذ في الوقت الذي وصلت فيه رسالة الخليفة، كان الزعيم المغولي قد توسع في فتوحاته نحو الغرب حتى تاخمت حدود بلاده حدود الدولة الخوارزمية، واستطاع أن يعقد معاهدة تجارية مع الخوارزميين. ولذلك لم يُعر رسالة الخليفة أي التفاتة[٥].

ويبدو أن الكارثة كانت آتية، لكن سببها المباشر يعود إلى إحدى هذه البعثات التجارية، حين أرسل جنكيزخان قافلة تجارية إلى غربي آسيا للتجارة في الأسواق الخوارزمية. ولما وصلت إلى مدينة أوترار الواقعة على نهر سيحون. أجهز أينال خان، حاكم المدينة، عليها وقتل جميع أفرادها وسلب البضاعة[٦].

لم يكن بوسع جنكيزخان أن يتغاضى عن هذه الإثارة خاصة بعد أن رفض السلطان طلباً له بتسليمه حاكم أوترار. فجهّز جيشاً جراراً وهاجم الأراضي

---

(١) لقد جالت في نفس هذا السلطان فكرة إقامة خلافة علوية مكان الخلافة العباسية، والجدير بالذكر أنه كان يعتنق المذهب الشيعي. راجع فيما يتعلق بأسباب طمع السلطان الخوارزمي ببغداد: حسين، محمد عبد الباسط عبد الهادي محمد: الشرق الإسلامي من ظهور السلاجقة حتى زوال دولة الخلافة العباسية ببغداد. ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) إقبال: ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٦١.

(٤) Lamb. H: Jengkis khan: P 116

(٥) Curtin: The Mongols: P 99.

(٦) النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي: ص ٨٦.

الخوارزمية. فسيطر على إقليم ما وراء النهر في عام (٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م) وسقطت العاصمة الخوارزمية في يده[١].

وتوفي علاء الدين في إحدى جزر بحر قزوين في عام (٦١٨ هـ/ ١٢٢١ م) فاراً من وجه المغول[٢] الذين استولوا على خراسان. وفي عام (٦١٩ هـ/ ١٢٢٢ م) غادر جنكيزخان الأقاليم الغربية بعد أن ثبّت حكم المغول في إقليمي ما وراء النهر وخراسان بشكل نهائي[٣].

(١) انظر أحداث سقوط بلاد ما وراء النهر عند الجويني: جـ ١ ص ١١٠ ـ ١٣٥.
(٢) النسوي: ص٢٣.
(٣) العريني: السيد الباز: المغول ص ١٤٢.

سقوط دولة الخلافة العباسية

استأنف المغول زحفهم باتجاه مناطق غربي آسيا، بعد وفاة جنكيزخان في عام (٦٢٤ هـ/ ١٢٢٧ م) ضمن سياسة توسعية، فقد عهد منكوخان، الذي تسلم الزعامة المغولية في عام (٦٤٦ هـ/ ١٢٢٨ م) إلى أخيه هولاكو بقيادة حملة على فارس، وأوصاه ببسط السيطرة المغولية على البلاد الممتدة من العراق حتى أقاصي مصر. وحدّد له إطار العلاقة مع الخليفة العباسي، بحيث إذا قدّم فروض الولاء والطاعة فلا يتعرض له، أما إذا عصى، فعليه أن يتخلص منه حتى لا يشكل وجوده عقبة في طريق الزحف المغولي[١].

ومن جهته، وضع هولاكو خطة عسكرية تقضي أولاً بالقضاء على الإسماعيلية، ثم غزو المناطق الغربية وصولاً إلى مصر في مرحلة ثانية. وبعد أن حقّق هدفه الأول انطلق لتحقيق هدفه الثاني.

كانت الأوضاع في بغداد آنذاك، سيئة جداً، فقد اشتهر الخليفة العباسي المستعصم بعدم جدّيته في إدارة الشؤون العامة[٢]، فلم يستعد لمواجهة الزحف المغولي، ظناً منه أن في نفسه القدرة على المكر والصمود أمام خطرهم[٣]. كما تعدّدت مراكز القوى آنذاك، في بغداد، واختلفت فيما بينها بفعل عوامل سياسية ومذهبية. ووقف الخليفة عاجزاً عن وضع حد للمشاكل المتفاقمة، فترتب على ذلك، أن اشتدت حدة الخلافات بين مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير، وكان سني المذهب، وبين مؤيد الدين بن العلقمي، وزير المستعصم، وكان شيعياً. مما كان لها أثرها السيء في اضطراب الأمور، وتقويض سلطة الخلافة[٤].

وتعدّت الخلافات، أهل الحكم، لتنتقل إلى العامة من سكان بغداد الذين انقسموا على أنفسهم في تناحر مذهبي[٥] مما دفع الوزير ابن العلقمي إلى مراسلة المغول، وأطمعهم في ملك بغداد[٦].

---

(١) رشيد الدين جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران جـ ٢ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٢) ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية. ص ٣٣٣.

(٣) الصياد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ. ص ٢٥٢.

(٤) صفا، ذبيح الله: تاريخ أدبيات در إيران، جـ ٣ ص ١٢٠.

(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص ٤٦٥.

(٦) المصدر نفسه.

والواقع أنه لم يكن لهذه المراسلات بين الطرفين، ولا للمباحثات التي جرت بينهما، في وقت لاحق، من أثر كبير في دفع هولاكو أو في ثنيه عن مهاجمة بغداد، لأن الاستيلاء على العراق كان من ضمن سياسة مغولية عامة.

في هذه الظروف الحرجة، طلب هولاكو من الخليفة أن يمده بجيش ليعاونه في القضاء على الطائفة الإسماعيلية. شاور المستعصم معاونيه، فنصحوه بعدم الإقدام على هذا العمل، لأن هولاكو يريد بهذه الوسيلة إفراغ بغداد من المدافعين عنها حتى يسهل عليه الاستيلاء عليها عندما يهاجمها. فوافقهم على رأيهم، وامتنع عن إرسال المدد إلى هولاكو[1].

ولما فرغ الزعيم المغولي من القضاء على الإسماعيلية، أرسل إلى الخليفة رسالة عتاب تتضمن تهديداً ووعيداً لامتناعه عن إرسال المدد المطلوب. والواقع أنه لم يكن هذا الاحتجاج إلاّ ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التي سبق أن منحت في بغداد للأمراء البويهيين ثم للسلاطين السلاجقة[2]، وطلب منه:

- أن يهدم الحصون، ويردم الخنادق، ويسلم البلاد لابنه.
- أن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير سليمان شاه والدواتدار[3].

رد الخليفة بالرفض الذي اتسم بالتهديد والوعيد، ظناً منه، أن ذلك سوف يثني هولاكو عن عزمه، ويجعله يفكر ملياً قبل أن يقدم على خطوته.

ويبدو أنه أمل في تلقي المساعدة من الأمراء المسلمين، إلاّ أنه أخطأ في تقديره إذ إن الأيوبيين في بلاد الشام، والمماليك في مصر، الذين عقد آماله عليهم، توافر عندهم من المشاكل ما منعهم من النهوض لمساعدته. ولم يتحرك الأتابكة والترك والفرس لمساندته بفعل ما استبد بهم من الخوف من المغول، أما سلاجقة الروم فقد خضعوا لحكم هؤلاء[4].

---

(١) راجع الرسالة في فتح بغداد المنسوبة إلى نصير الدين الطوسي، والملحقة بكتاب تاريخ قاهر العالم، للجويني جـ ٢ ص ٣٦٣.
(٢) الصياد: ص ٢٥٥.
(٣) رشيد الدين: جامع التواريخ، مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٧١.
(٤) العريني: ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

وهكذا بدا العالم الإسلامي مفكّكاً، فلا يعقل أن يهب أمراؤه لنجدة الخليفة الذي لم يكن له سند حقيقي حتى يستطيع أن يقف هذا الموقف المتشّدد. فكان لهذا الموقف العباسي الرافض أسوأ الأثر في نفس هولاكو مما دفعه إلى الزحف باتجاه بغداد.

وصل رسل الخليفة إلى هولاكو، فلما اطّلع هذا على رسالته وعلم بما لحق برسله من أذى العامة في بغداد، استبدّ به الغضب. فأعاد رسل المستعصم، وحملهم رسالة أخرى تتضمن إنذاراً نهائياً له صيغ في لهجة شديدة[1].

ولما عاد الرسل إلى بغداد، وأدرك الخليفة ما ينطوي عليه الرد المغولي من تهديد ووعيد، عرض الرسالة على كبار رجال دولته مستطلعاً رأيهم، فأشار عليه وزيره ابن العلقمي أن يبذل الأموال والتحف والهدايا، ويرسلها إلى هولاكو مع الاعتذار إليه وأن يجعل الخطبة والسكة باسمه[2]، على النحو الذي كان متبعاً أيام البويهيين والسلاجقة، وقد مال الخليفة إلى قبول هذا الرأي، والأخذ به، لكن مجاهدبن أيبك الدواتدار الصغير الذي كان يستند على قوة الجيش، ومساندة العناصر السنية في بغداد، رفض رأي الوزير، وأصرَّ على المقاومة. فعدل الخليفة عند ذلك عن رأي الوزير وتبنّىٰ خيار المقاومة[3].

وهكذا لم يكن لتبادل الرسائل بين الطرفين من أثر سوى جعل الحرب ضرورة لا بد منها[4].

ولما أيقن هولاكو أن في استطاعته السير إلى العراق دون أن يتعرض للمصاعب، وأن في مقدور قواته الاستيلاء على بغداد، أخذ في تنفيذ خططه الحربية التي وضعها أثناء إقامته في همذان، وأصدر أوامره بأن تتحرك الجيوش المغولية باتجاه عاصمة الخلافة. ولما وصلت إليها في (الثالث عشر من شهر محرم عام ٦٥٦ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٢٥٨ م) ضربت حصاراً مركزاً عليها، وأقام هولاكو معسكره في ظاهر المدينة من ناحية الشرق[5].

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ جـ ٢ ص ٢٧١.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٧١.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٧٢.
(٤) حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي...، جـ ٤ ص ١٥٦.
(٥) ابن العبري: ص ٣٠٧.

ولما رأى الخليفة حرج موقفه أراد أن يهدّىء المغول ويثنيهم عن عزمهم على متابعة الهجوم، فأرسل إلى هولاكو الرسل والهدايا[١] لكن هولاكو رفض الاستجابة لهذا النداء. ونفّذ خطة عسكرية، تقضي بإفراغ بغداد من مدافعيها قبل أن يقتحمها جنوده. فأرسل نصير الدين الطوسي إلى الخليفة يأمره بإرسال سليمان شاه والدواتدار. فاضطر الخليفة إلى الاستجابة. ولما وصلا إليه، أعادهما إلى بغداد لاصطحاب أتباعهما وأصحابهما بحجة أنهم سينفون إلى الشام ومصر. فخرج معهما جند بغداد وكثير من السكان[٢].

فلما خرج هذا الجمع، أمر هولاكو بقتلهم جميعاً[٣] فانكشف عندئذٍ موقف الخليفة. ولما رأى أن لا مفر من دخول المغول بغداد مال إلى التسليم.

ولم يمض على ذلك يومان حتى خدعه المغول بالوعود الكاذبة. وقد اشترك ابن العلقمي في هذه المؤامرة حين أقنع الخليفة بوجوب الاستسلام، لأنه مهد طريق الصلح، وسوف يأتيه هولاكو والمغول طائعين[٤].

وقد ذكر ابن كثير، أن الوزير ابن العلقمي كان قد اجتمع بهولاكو مع أهله وأصحابه وحشمه، ثم أشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف الخراج لهولاكو والنصف الآخر للخليفة[٥].

وفي يوم الأحد (الرابع من شهر صفر عام ٦٥٦ هـ/ شهر شباط عام ١٢٥٨ م) خرج الخليفة من بغداد وسلّم نفسه وعاصمته للمغول دون قيد أو شرط، بعد أن وعده هولاكو بالأمان[٦].

عندئذٍ دخل الجنود المغول إلى المدينة وعاثوا فيها مدة أسبوعٍ، فهدموا مساجدها، وجردوا القصور مما فيها من التحف النادرة، واتلفوا عدداً كثيراً من الكتب

---

(١) الصياد: ص ٢٦٢.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) جامع التواريخ: جـ ٢، ص ٢٩٠.
(٤) الصياد: ص ٢٦٣.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ: جـ ١٣، ص ٢٠١.
(٦) الصياد: ص ٢٦٣.

واتلفوا عدداً كثيراً من الكتب القيّمة في مكتباتها، وأهلكوا كثيراً من رجال العلم فيها، وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن. وتعطلت المدارس والربط. وأضحت المدينة قاعاً صفصفاً[١]،

فتكدّست الجثث في الطرقات والأزقة. ثم انتشر الوباء فحصد كثيراً ممن كتبت لهم النجاة[٢].

وقد انتهت هذه الأحداث بقتل الخليفة المستعصم وابنيه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن، وأسر ابنه الأصغر مبارك وأخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم[٣].

وبسقوط بغداد ومقتل الخليفة العباسي المستعصم انتهت دولة الخلافة العباسية التي عمّرت أكثر من خمسة قرون. ويبقى أن نذكر أن هذه الأحداث جعلت منصب الخلافة شاغراً يتطلع إليه كل زعيم طموح. فلما تولى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عرش مصر، بحث عن أحد أفراد الأسرة العباسية ونصبه خليفة في مصر في عام (٦٥٩ هـ/ ١٢٦١ م).

والواقع أن السلطان المملوكي هدف إلى إضفاء الصفة الشرعية على حكمه بفضل التقليد الذي حصل عليه من الخليفة. وقد استمر هذا الوضع قائماً في مصر إلى أن ضمّها السلطان العثماني سليم الأول في عام (٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م)، وأنهى هذه الظاهرة.

وشغل السلاطين العثمانيون منصب الخلافة، فأداروا شؤون العالم الإسلامي من عاصمتهم إستانبول حتى عام (١٩٢٤ م) حين قاد كمال أتاتورك انقلاباً على الخلافة.

ولا يزال العالم الإسلامي منذ ذلك التاريخ دون خليفة يشغل منصب الخلافة الشاغر.

---

(١) Brown: Literary Hist of persia: II P 463

(٢) ابن كثير: جـ ١٣، ص ٢٠٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٠٥. الطوسي: مصدر سابق ص ٣٧٠.

الخاتمة

يُعتبر اعتلاء أبو العباس السفاح سدَّة الخلافة، إيذاناً ببداية مرحلة سياسية جديدة من مراحل التاريخ الإسلامي، تقلَّد فيها العباسيون الحكم ومارسوا السياسة، وبقي نظام الحكم كما عرفه الأمويون ومارسوه، نظاماً ملكياً وراثياً، صاحبه كثير من مظاهر الترف التي حفلت بها قصور العباسيين.

إلاّ أن هذا النظام اتخذ منحى جديداً في مساره الحركي من ناحية العلاقة بين فئات المجتمع الإسلامي، وذلك بفعل اعتماده القوي على العناصر الإسلامية غير العربية التي اندمجت في هذا المجتمع، بالرغم من احتفاظ العرب بمنصب الخلافة وبالكثير من المناصب القيادية.

ونتيجة لذلك اتسم العصر العباسي الأول بالطابع الفارسي مع احتفاظه بالسمة العربية، مما أدّى إلى تمازج سياسي وحضاري نتج عن الأول تغلغل النفوذ الفارسي في إدارات الدولة، في حين نتج عن الثاني نشوء ثقافة جديدة قائمة على الثقافة الفارسية كإطار عام ضمن حيثيات عربية.

وكان أبو جعفر المنصور رجل العصر المطلوب لملء المركز القيادي. ويعتبر بحق مؤسس دولة الخلافة العباسية، حيث قضى على المعارضين والخارجين على حكمه من داخل الأسرة العباسية ومن خارجها. وحافظ في الوقت نفسه على حدودها مع الخارج.

ورغم العراقيل التي تعرض لها العباسيون، فإنهم تمكنوا من إرساء دعائم نظام متجدّد أملته الظروف السياسية والاجتماعية المستجّدة ومكانة الدولة الإسلامية، ذلك أن العقلية الإسلامية لم تقف جامدة أمام التطورات الحضارية التي شهدها العالم الإسلامي، وإنما تفاعلت معها وأنتجت نظاماً يتلاءم مع المبادىء الإسلامية العليا ولا

يخرج عن الإطار العام كما رسمه القرآن الكريم وحدّدته السنة، ويوّحد بين مصلحة الإسلام العليا ومصلحة الأمة من حيث ظروفها الدينية والسياسية الدنيوية واتجاهات العصر. فكان الانفتاح الحضاري على الشرق، بشكل خاص، والغرب، أحد الخطوات الهامة للأخذ بأسباب التطور.

وظلت ولاية العهد إحدى الخطوات الهامة التي خطاها العباسيون من أجل تثبيت أقدام أسرتهم والاحتفاظ بالسلطة، والاستمرارية في ممارسة الحكم، في ظل معارضة الطالبيين بشكل خاص، الذين استاؤوا من تسلم آل العباس السلطة واستئثارهم بها وهم الذين ساندوا الثورة العباسية على أمل استلام الحكم، باعتباره حقاً شرعياً في بيت علي. وظلت المعارضة الطالبية ناشطة طيلة العصر العباسي الأول حتى تمكّن الطالبيون من إقامة دول انفصالية في المغرب والمشرق خلال العصر العباسي الثاني، نافست أحياناً دولة الخلافة العباسية وشكلّت خطراً على وجودها. وأقام الخوارج دولاً انفصالية في المغرب. كما أسس عبد الرحمن الداخل الأموي دولة انفصالية في الأندلس.

وما إن أشرف العصر العباسي الأول على الانتهاء إلاّ وكان العالم الإسلامي على وشك التفكّك سياسياً مع الاحتفاظ برباط الخلافة الروحي باستثناء ما حصل مع العبيدين الذين لم يعترفوا أصلاً بالخلافة العباسية.

ويبدو أن مردَّ هذه الظاهرة يعود إلى ضعف شخصية الخلفاء، واتساع رقعة الدولة وصعوبة المواصلات بين أجزائها حتى تعذر على الخلفاء ممارسة رقابة فعلية على ولاتهم في الأقاليم، بالإضافة إلى توثب العناصر الإسلامية غير العربية للانفصال في محاولة لإحياء أمجادها القديمة.

وقد أثّرت ظاهرة الانفصال على مركز الخلافة السياسي. فبرز أمراء الأمراء الأتراك في بادىء الأمر، وحكام الدول الانفصالية على حساب الخلافة. وتوارى الخليفة في الظل، وفقد نهائياً كل اختصاصاته كمصدر أول للسلطة في الدولة، وتعرض الخلفاء للعزل والمصادرة والقتل في بعض الأحيان.

واستمر ضعف الخلافة وانحلالها في العصر العباسي الثالث أمام بروز قوة البويهيين الشيعة. لكن حدث في أواخر العهد البويهي أن استعاد الخليفة العباسي القائم بعض صلاحياته منتهزاً الظروف السياسية المتدهورة التي كان يمر بها الحكم

في هذا الوقت نجح الأتراك السلاجقة في تأسيس دولة لهم في الشرق على أنقاض الغزنويين والبويهيين، وزحفوا نحو العراق، فدخلوه، وقضوا على الدولة البويهية، وحلوا محل البويهيين في حكمه. واستأثروا بجميع السلطات في الدولة، واستمر وضع الخلفاء على حاله مجردين من سلطاتهم حتى في حاضرة الخلافة، إلاّ أن معاملتهم لهم كانت أفضل من معاملة بني بويه باعتبارهم من أهل السنة. فكانوا حريصين على بقاء الخلافة العباسية ليسهل لهم القضاء على منافسيهم من أنصار المذهب الشيعي، والحصول على تأييد العالم الإسلامي السني.

وفي أواخر العهد السلجوقي، ضعف السلاجقة، فاتخذت العلاقة بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة طابعاً جديداً يختلف كل الاختلاف عن طابع العلاقات في فترة وحدة السلاجقة، فاغتنم الخلفاء هذه الفرصة، وأخذوا يعملون على استعادة ما كان للخلافة من سلطة، وذلك عن طريق التخلص من النفوذ السلجوقي فدخل الطرفان في صراعات حادة انتهت بدخول الخوارزميين ثم المغول على الخط السياسي. وقد حقّق هؤلاء المغول نجاحات مذهلة. فقضوا على الدولة الخوارزمية، ثم زحفوا نحو العراق في محاولة للسيطرة على العالم الإسلامي، ودخلوا بغداد، فقتلوا الخليفة المستعصم وأسقطوا دولة الخلافة العباسية في عام (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م).

وبسقوط دولة الخلافة العباسية خسر العرب السيادة المطلقة ورجحت كفة العناصر غير العربية خاصة المماليك والأتراك العثمانيين الذين حملوا راية الخلافة الإسلامية. فحققوا باسم الإسلام أمجاداً مشرقة.

وظلّت الخلافة في دولة بني عثمان يتوارثونها حتى عام ١٩٢٤ م حين أنهى كمال أتاتورك دور الخلافة. ولا يزال هذا المنصب شاغراً حتى يومنا هذا.

وأخيراً تبقى دولة الخلافة العباسية التي عمّرت ما يزيد على خمسة قرون، بالرغم من سلبياتها، صورة متألقة في ضمير المسلم، وصفحة مضيئة في تاريخه المجيد، يعتز بها، ويفخر بمآثرها.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر

ـ ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم السعدي:

ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق نزار رضا. مكتبة دار الحياة بيروت ١٩٦٥.

ـ ابن الأثير أبو الحسن علي... ابن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري:

ـ الكامل في التاريخ. دار الكتاب العربي ـ بيروت ط ٢، ١٩٦٧ م.

ـ ابن أعثم، أبو محمد أحمد:

ـ كتاب الفتوح. دار الكتب العلمية بيروت. ط ١، ١٩٨٦.

ـ ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي المصري:

ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق محمد مصطفى. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢ م.

ـ ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف:

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. دار الكتب المصرية. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

ـ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد:

ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن ١٣٥٧ هـ.

ـ ابن خرداذبة، عبد الله بن عبد الله:

ـ المسالك والممالك. نشر دي غويه. ليدن ١٨٨٩ م.

ـ ابن الخطيب، لسان الدين بن الخطيب:

ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإسلام من ملوك الإسلام. تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكفافي الدار البيضاء ١٩٦٤.

ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد:

- العبر وديوان المبتدأ والخبر . . . المعروف بتاريخ ابن خلدون. دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٥٧ .

- مقدمة ابن خلدون . تحقيق عبد الواحد وافي . لجنة البيان العربي . القاهرة ط ٢ ، ١٩٦٥ م .

- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر :

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . دار الثقافة بيروت ١٩٦٨ - ١٩٧١ .

- ابن خياط ، خليفة أبو عمرو بن أبي هريرة الليثي ، الملقب بـ شباب ، ونسبته العصفري :

- تاريخ خليفة بن خياط . تحقيق أكرم ضياء العمري . النجف ط ١ ، ١٩٦٧ .

- ابن سعيد ، علي بن موسى المغربي :

- المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق ، ليدن ١٨٩٨ - ١٨٩٩ م .

- الأصطخري ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي :

- المسالك والممالك . تحقيق محمد جابر عبد العال . القاهرة ١٩٦١ م .

- الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين :

- مقاتل الطالبيين . تحقيق أحمد صقر . منشورات مؤسسة الأعلمي بيروت ط ٢ ، ١٩٨٧ .

- الأغاني . تحقيق عبد الكريم العزباوي . القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠ م .

- ابن طباطبا ، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا :

- الفخري في الآداب السلطانية ، والدول الإسلامية . دار صادر بيروت ١٩٦٦ .

- ابن عبد ربه ، شهاب الدين أحمد الأندلسي :

- العقد الفريد . تحقيق محمد سعيد العريان . دار الفكر بيروت .

ابن العبري ، غريغوريوس الملطي :

- تاريخ الزمان . دار المشرق . بيروت ١٩٨٦ .

- ابن العديم ، كمال الدين عمر بن هبة الله :

- زيدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان . دمشق ١٩٥٤ .

- ابن عذارى أبو محمد عبد الله محمد المراكشي :

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ليدن ١٩٤٢ م .

- ابن عمراني ، محمد بن علي بن محمد :

- الأنباء في تاريخ الخلفاء . باهتمام تقي بينش . مشهد ١٣٦٣ شمسي هجري .

- ابن القوطية، محمد بن عمر :

- تاريخ افتتاح الأندلس. تحقيق عبد الله الطباع، دار النشر للجامعين. بيروت ١٩٥٧ م.

- ابن كثير الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي :

- البداية والنهاية في التاريخ. دار المعارف بيروت ط ٢، ١٩٧٧.

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم :

- لسان العرب. جـ ٢. دار صادر، بيروت.

- ابن النديم، محمد بن إسحاق.

- الفهرست. المطبعة الرحمانية القاهرة، ١٩٤٨ م.

- الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى :

- تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، تحقيق عمر عبد السلام تدمري. جروس برس. طرابلس - لبنان، ١٩٩٠.

- البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر :

- فتوح البلدان. تحقيق عبدالله وعمر أنيس الطباع. دار النشر للجامعيين، ١٩٥٧ م.

- البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل :

- كتاب البدء والتاريخ. باريس، ١٩١٩ م.

- البلوي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المديني :

- سيرة أحمد بن طولون. تحقيق محمد كرد علي. دمشق ١٣٥٨ هـ.

- البنداري، الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني :

- تاريخ دولة آل سلجوق. دار الآفاق الجديدة بيروت. ط ٣، ١٩٨٠.

- البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد :

- الآثار الباقية عن القرون الخالية. ليبزك ١٨٧٨ م.

- الجهشياري، محمد بن عبدوس :

- كتاب الوزراء والكتّاب. تحقيق مصطفى السقا وآخرين. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. ط ١ القاهرة، ١٩٣٨ م.

- الجويني، عطا ملك :

- تاريخ قاهر العالم. ترجمة أحمد آلتونجي. دار الملاح للطباعة والنشر، حلب، ١٩٨٥ م.

ـ الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي:

ـ زهر الآداب وثمر الألباب. دار الجيل بيروت. حققه محمد محي الدين عبد الحميد. ط ٤، ١٩٧٢.

ـ الحسيني، صدر الدين بن علي:

ـ أخبار الدولة السلجوقية. باعتناء عباس إقبال. دار الآفاقه الجديدة. بيروت ط ١، ١٩٨٤.

ـ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله:

ـ معجم البلدان. دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.

ـ الخطيب البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي:

ـ تاريخ بغداد أو مدينة السلام. دار الكتب العلمية، بيروت.

ـ البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد:

ـ الفرق بين الفرق. حققه محمد محي الدين عبد الحميد. مكتبة محمد علي صبح، القاهرة.

ـ الدينوري، أبو حنيفة بن داود:

ـ الأخبار الطوال. مراجعة حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٨.

ـ الراوندي، أبو بكر محمد بن علي:

ـ راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية. تعريب الشواربي، الصياد وحسنين. دار القلم القاهرة. ١٩٦٠ م.

ـ السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي:

ـ طبقات الشافعية الكبرى. تحقيق محمود محمد الطناجي وعبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥.

ـ السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين:

ـ تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية، القاهرة، ط ٤، ١٩٦٩.

ـ الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبد الكريم:

ـ الملل والنحل. تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي وشركاه القاهرة، ١٩٦٨.

ـ الشيرازي المؤيد في الدين هبة الله بن موسى بن داود:

ـ سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة. القاهرة، ١٩٤٩.

ـ الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى.

ـ أخبار الراضي بالله والمتقي بالله. نشر هيورث دن، القاهرة، ١٩٣٥ م.

ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير:

ـ تاريخ الرسل والملوك. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر، ١٩٦٠

ـ الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف:

ـ كتاب الولاة والقضاء. نشر روفن جست بيروت، ١٩٤٨ م.

ـ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب:

ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية. مكتبة مصطفى البابي الحلبي القاهرة ط ١، ١٩٦٠.

ـ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن:

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار الأندلس بيروت.

ـ مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد:

ـ تجارب الأمم. طبعة آمدروز. القاهرة ١٩١٤ ـ ١٩١٩ م.

ـ المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد:

ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. طبعة ٢، بريل ليدن، ١٩٠٤ م.

ـ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي:

ـ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. القاهرة، ١٣٢٦ هـ.

ـ شذور العقود في ذكر النقود. النجف.

ـ مؤلف مجهول:

ـ أخبار الدولة العباسية. باعتناء عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي بيروت، دار الطليعة ١٩٧١.

ـ مؤلف مجهول:

ـ أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم. مدريد ١٨٦٧ م.

ـ النسوي، محمد بن أحمد بن علي:

ـ سيرة جلال الدين منكبرتي. تحقيق حافظ حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٣.

ـ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح.

ـ تاريخ اليعقوبي. تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

ـ كتاب البلدان. نشر دي خويه ليدن، ١٨٩٢. بيروت ط ١، ١٩٩٣ م.

ب ـ المراجع

ـ إقبال، عباس:

ـ تاريخ إيران بعد الإسلام. تعريب محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٠ م.

ـ الليثي، سميرة مختار:

ـ جهاد الشيعة. دار الجيل، بيروت ط ٢، ١٩٧٨ م.

ـ أمين، أحمد:

ـ ضحى الإسلام. القاهرة، ط ١، ١٩٣٣.

ـ أمين، حسين:

ـ تاريخ العراق في العصر السلجوقي. مطبعة الإرشاد. بغداد ١٩٦٥ م.

ـ بارتولد، فاسيلي فلاديمير وڤتش:

ـ تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي. تعريب صلاح الدين عثمان هاشم الكويت ١٩٨١ م.

ـ تاريخ الترك في آسيا الوسطى. ترجمة أحمد السيد سليمان عن الأصل التركي. القاهرة ١٩٥٨ م.

ـ بروكلمان، كارل:

ـ تاريخ الشعوب الإسلامية. تعريب: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت ط ١١، ١٩٨٨ م.

ـ بيضون، إبراهيم:

ـ الدولة العربية في إسبانيا. دار النهضة العربية. بيروت، ١٩٨٠ م.

ـ حاطوم، نور الدين:

ـ تاريخ العصر الوسيط في أوروبا. دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٦٧ م.

ـ حسن، إبراهيم حسن:

ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ط ٧، ١٩٦٤.

ـ تاريخ الدولة الفاطمية. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ط ٣، ١٩٦٤ م.

- حسين، محمد عبد الباسط عبد الهادي محمد:

- الشرق الإسلامي من ظهور السلاجقة حتى زوال الخلافة العباسية ببغداد. مكة المكرمة ط ١، ١٤١٤ هـ.

- الخازن، وليم:

- الحضارة العباسية. دار المشرق. بيروت ط ٢، ١٩٩٢ م.

- الخضري، الشيخ محمد:

- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية. المكتبة التجارية الكبرى، ط ١٠، القاهرة.

- دائرة المعارف الإسلامية.

- دايفز، هـ كارلس:

- شارلمان، ترجمة السيد الباز العريني. مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ١٩٥٩.

- رستم، أسد:

- الروم في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم وصلاتهم بالعرب. منشورات المكتبة البولسية ط ٢، ١٩٨٨ لبنان.

- الدوري، عبد العزيز:

- العصر العباسي الأول. دار الطليعة بيروت. ط ٢، ١٩٨٨ م.

- دراسات في العصور العباسية المتأخرة. بغداد، ١٩٤٥ م.

- دوزي، رينهارت:

- المسلمون في الأندلس. ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٩٤م.

- الرحيلي، سليمان ضفيدع:

- العلاقات السياسية، بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة في عهدي الخليفة هارون الرشيد والإمبراطور شارلمان. دار الهدى للنشر والتوزيع، الرياض.

- رمضان، عبد العظيم:

- الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى إنتهاء الحروب الصليبية. دار المعارف، مصر.

- زكّار، سهيل:

- الجامع في أخبار القرامطة. دار حسان، دمشق ط ٣، ١٩٨٧ م.

- الزهراني، محمد بن مسفر:

- نظام الوزارة في الدولة العباسية. العهدان البويهي والسلجوقي. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط ٣، ١٩٨٦ م.

- زيّود، محمد أحمد:

- العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والأخشيدي. دار حسان. دمشق. ط ١، ١٩٨٩ م.

- سامح، كمال الدين:

- العمارة الإسلامية في صدر الإسلام. المؤسسة المصرية العامة. القاهرة ١٩٦٤ م.

- سرور، محمد جمال الدين:

- سياسة الفاطميين الخارجية. دار الفكر العربي القاهرة، ١٩٧٦ م.

- سعد، فهمي:

- العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة. دار المنتخب العربي ط ١، ١٩٩٣ م.

- شعبان، محمد عبد الحي:

- الثورة العباسية. ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي. دار الدراسات الخليجية.

- الصالح، الشيخ صبحي:

- النظم الإسلامية. دار العلم للملايين. بيروت ط ١، ١٩٦٥ م.

- صبحي، أحمد محمود:

- نظرية الإمامة لدى الشيعة الأثني عشرية. دار النهضة العربية، بيروت ١٩٩١ م.

- الصياد، فؤاد عبد المعطي:

- المغول في التاريخ. دار النهضة العربية، بيروت. ١٩٨٠ م.

- عاقل، نبيه:

- الإمبراطورية البيزنطية، دراسة في التاريخ السياسي والثقافي والحضاري. دمشق ١٩٦٩ م.

- العبادي، أحمد مختار:

- في التاريخ العباسي والأندلسي. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧٢ م.

- العبادي، عبد الحميد:

- صور وبحوث من التاريخ الإسلامي. الإسكندرية، ١٩٤٨ م.

- عبد الله، وديع فتحي:
العلاقات السياسية بين بيزنطية والشرق الأدنى الإسلامي. مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ١٩٩٠ م.
- العدوي، إبراهيم أحمد:
- الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية. مكتبة النهضة مصر. القاهرة ١٩٥١ م.
- العريني، السيد الباز:
- الدولة البيزنطية. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٨٢ م.
- العسلي، بسام:
- الرشيد القائد. دار النفائس. بيروت، ط ٢، ١٩٨٨ م.
- العش، يوسف:
- تاريخ عصر الخلافة العباسية. دار الفكر المعاصر. بيروت، ١٩٩٠ م.
- علبي، أحمد:
- ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد. دار الفارابي بيروت، ١٩٩١ م.
- علي، محمد كرد:
- خطط الشام. دمشق، ١٩٢٥ م.
- عمر، فاروق:
- طبيعة الثورة العباسية. بيروت، ١٩٧٠ م.
- التاريخ الإسلامي فكر القرن العشرين. مكتبة النهضة، بغداد. ط ٢، ١٩٨٥.
- عمران، محمود سعيد:
- محاضرات في معالم التاريخ الإسلامي الوسيط. مكتبة كريدية إخوان. بيروت.
- العمرو، علي عبد الرحمن:
- أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول. ط ٥، ١٩٩٣ م.
- العميد، طاهر:
- المظاهر العسكرية في بناء بغداد المدورة. مجلة كلية الآداب بغداد، ١٩٦٩ م، العدد ١٢.
- عنان، محمد عبدالله:
- دولة الإسلام في الأندلس. مكتبة الخانجي. القاهرة ط ٣، ١٩٨٨ م.

- الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية. مكتبة الخانجي القاهرة ط٣، ١٩٨٨ م.

- ڤاز يلييف أأ:

- العرب والروم. ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي. القاهرة.

- فامبري، أرمينيوس:

- تاريخ بخارى من أقدم العصور حتى العصر الحاضر. ترجمة محمود الساداتي، المؤسسة العربية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٥ م.

- كاهن، كلود:

- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الأمبراطورية العثمانية. ترجمة: بدر الدين القاسم. دار الحقيقة بيروت، ط ٣، ١٩٨٣ م.

- لين بول، ستانلي:

- العرب في إسبانيا. ترجمة علي الجارم، القاهرة، ١٩٦٣.

- سيرة القاهرة. ترجمة حسن إبراهيم حسن. القاهرة، ١٩٥٠ م.

- محمود، حسن أحمد:

- حضارة مصر في العصر الطولوني. مكتبة الأنجلو مصرية. القاهرة، ١٩٦٠ م.

- محمود، حسن أحمد والشريف، أحمد إبراهيم:

- العالم الإسلامي في العصر العباسي. دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٥.

- المظفري، محمد حسين:

- تاريخ الشيعة. مطبعة الزهراء. النجف، ١٣٥٢ هـ.

- المسند، عبد الله بن علي:

- العلويون في الحجاز ١٣٢ - ٢٠٣هـ. دار المنار، القاهرة، بيروت ط ٢، ١٩٩٣ م.

مؤنس، حسين:

- تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي. العصر الحديث بيروت، ط ١، ١٩٩٢ م.

- النشار، علي سامي:

- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. دار المعارف. مصر، ط ٨.

ـ ثانياً: المصادر والمراجع باللغة الفارسية

ـ خواندامير، غياث الدين بن همام الدين:

ـ تاريخ حبيب السير في أخبار أفراد البشر. تحقيق محمود دبير سياقي طهران، ط ٢، ١٣٥٣ هـ.

ـ صفا، ذبيح الله:

ـ تاريخ أدبيات در إيران. طهران، ١٣٢٩ هـ.

ـ كرديزي، أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك بن محمد:

ـ زين الأخبار. نشر محمد ناظم، برلين، ١٩٢٨ م.

ـ المستوفي، حمد الله بن أبي بكر بن أحمد بن نصر المستوفي القزويني:

ـ تاريخ كزيدة. نشر براون، بومباي ١٣٢٨ هـ.

ـ ثالثاً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية:

- **Arnold, Sir Thomas, w:**
    - The caliphate. Oxford. 1941.

-Brown, E. G:
    - Literary History of Persia. Camb University 1955.

-Buckler, F.W:
    - Harun - Al - Rashid and charles The great. Massa chusetts. U. S. A. 1931.

- **Bury, J. B:**
    - A History of the Later Roman Empire. London 1923.
    - A History of the Eastern Roman Empire. London 1912.
- Camb. Med. History.
- Camb, Modern History.
- **Canard, M:**
    - Histoire de la Dynastie de Hamdanides de Jazira et de Syrie. T. I. Paris 1953.
- **Curtin, J:**
    - The Mongols. Boston. 1908.
- **Diehl, Ch et Marcais, G:**
    - Le Monde Orienta le 395 - 1081. Paris 1936.
- **Einhard, R:**
    - The Life Of Charlemagne. Michigan 1960.
- Encyc. Britanica.
- **Finlay, G:**
    - History of the Byzantine Empire. London 1906.
- **Grousset, R:**
    - Histoire de L'Armenie des Origines a 1071. Payot. Paris 1947.
- **Joranson, Enar:**
    - The Alleged Frankish Protectorate in Palestine. American Historical Review XXII. London, Jan - 1927.

- **Lamb ,H:**

- Genghis Khan, the Emperor of all Men. New York 1928.

- **Lane - Poole, S:**

- A History of Egypt in The Middlle Ages. London. 1924.

- **Michel le Syrienne:**

- Chronique. Ed by J.B. chabot. Bruxelles. 1899 - 1910.

- **Muir, W. T:**

- The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall. Edinburgh, 1924.

- **Noldke, Th:**

- Sketches From Eastern History. trans by J. S. Black, London 1892.

- **Ostro gorsky, G:**

- A History of the Byzantine States, Trans, by Hussey, oxford 1956.

- **Provençal, L:**

- Histoire de L'Espagne Musulmane. Paris 1950.

- **Ramsey, Sir, W. M:**

- Historical Geography of Asia Minor. London 1890.

- **Runciman, S:**

- Charlemagne and Palestine, English Historical Review Vol L, London oct 1953.

- **Schlum berger:**

- L'Epopée Byzantine à La Fin du Dixiéme Siècle, Tom I. Paris 1896 - 1905.

- **Theophanes:**

- Chronographia. P. G. M. Tome CVIII, Paris 1863.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

العصر العباسي الثالث
عصر النفوذ البويهي الفارسي
٣٣٤ـ٤٤٧ هـ/ ٩٤٦ـ١٠٥٥ م

العصر العباسي الرابع
عصر النفوذ السلجوقي التركي
٤٤٧ـ٦٥٦ هـ/ ١٠٥٥ـ١٢٥٨ م

من منشورات دار النفائس

- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، د. محمد حميد الله.
- قيادة الرسول (ﷺ) السياسية والعسكرية، أحمد راتب عرموش.
- الفتنة ووقعة الجمل، رواية سيف بن عمر، جمع وتقديم أحمد راتب عرموش.
- مختصر سيرة ابن هشام، عفيف الزعبي وعبد الحميد الأحدب.
- تاريخ الدولة العليَّة العثمانية، محمد فريد، تحقيق د. إحسان حقي.
- سلسلة مشاهير قادة الإسلام، بسام العسلي.
- سلسلة الخلفاء والأمراء، بسام العسلي.
- سلسلة مشاهير قادة الحرب العالمية الثانية، بسام العسلي.
- سلسلة جهاد شعب الجزائر، بسام العسلي.
- الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، بسام العسلي.
- تاريخ الدولة الأموية، د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ الدولة العباسية، د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، د. عباس صباغ.
- تاريخ فلسطين القديم، د. ظفر الإسلام خان.
- تاريخ القوقاز، محمود عبد الرحمن.
- حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، محمد عيسى بن كنان (محقق).
- الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، د. محمد شندب.
- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، ابن الحمصي، ت. عبد العزيز فياض.
- السلطة في بلاد الشام في القرن الثامن عشر، د. عبد الغني عماد.
- فجر الاستقلال في سورية، محمد سهيل العشي.
- محاسن الوسائل إلى معرفة الأوائل، محمد عبد الله الشلبي (محقق).
- المدخل إلى التاريخ الإسلامي، د. فتحي عثمان.

رقم : 305 - 96



المؤلف والكتاب

المؤلف: محاضر جامعي، تنحصر أبحاثه في التاريخ الإسلامي بعامَّة، وتاريخ الأتراك بخاصة. وله أبحاث عدَّة في تاريخ سلاجقة الروم. حائز على تنويه مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في استانبول.

من مؤلفاته: «العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة».

أما الكتاب: فيتناول تاريخ الدولة العباسية من جانبها السياسي. وقد استطاع المؤلف أن يوجز فيه أحداث ذلك التاريخ المعقدة والمتشابكة، نتيجة الكيانات السياسية المتعددة التي تكونت ضمن دولة مترامية الأطراف، استمرت أكثر من ستة قرون، حتى سقطت على أيدي المغول سنة ١٢٥٨ م.

ويتبين، من خلال البحث، أن انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين يُعدُّ منعطفاً مهماً في التاريخ الإسلامي غيَّر، بشكل جذري، الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية للمجتمع العربي الإسلامي، وفتح الباب للمسلمين غير العرب للبروز في مختلف هذه النواحي وعلى جميع الصعدان.

الناشر

ISBN 978-9953-18-045-8

9789953180458